الكُرد

دراسة سوسيولوجية وتاريخية

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كُردستان العراق

ص.ب رقم: ١

www.araspublisher.com

الكُرد

دراسة سوسيولوجية وتأريخية

ألفه باللغة الفرنسية

باسيلي نيكيتين

قنصل روسيا السابق في إيران، عضو الجمعية الآسيوية
وجمعية علم الإنسان في باريس، والعضو الدائم في المؤسسة
العالمية لعلم السلالات البشرية، والعضو المراسل
لأكاديمية الدبلوماسية العالمية

تقديم

لويس ماسينيون

المستشرق والأكاديمي الفرنسي المعروف

نقله من الفرنسية وعلق عليه

الدكتور نوري طالباني

إهداء المؤلف:

إلى لورا نيكيتين (زوجتي ورفيقتي المخلصة)
في ذكرى أورميه ١٩١٥–١٩١٨

اسم الكتاب: الكُرد – دراسة سوسيولوجية وتأريخية
ألفه باللغة الفرنسية: باسيلي نيكيتين
تقديم: لويس ماسينيون
نقله من الفرنسية وعلق عليه: الدكتور نوري طالباني
منشورات ئاراس: ٢٣٤
الإخراج الفني: بدران أحمد حبيب + دلاور صادق أمين
الغلاف: آراس اكرم
كتابة الغلاف: الخطاط محمد زاده
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود
الطبعة الثالثة: ٢٠٠٣ أربيل
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل:

محتويات الكتاب

˚ إهداء المؤلف

* تقديم لويس ماسينيون

˚ مقدمة المترجم

˚ مقدمة المؤلف

* باسيلي نيكيتين: مدخل إلى حياته واعماله... هلكوت حكيم

الفصل الأول

الكرد: أصلهم وخصائصهم اللغوية والإنسانية

أولاً: نسبية المقاييس

ثانياً: كاردوخيو زينفون

ثالثاً: نظرية مينورسكي حول اصل الكرد

رابعاً: نظرية الجافيتيد و لوك حول أصالة الشعب الكردي

خامساً: رأي الكرد أنفسهم حول أصلهم

سادساً: الدلائل المستقاة من علم السلالات البشرية

الفصل الثاني

كردستان: مفهومها الاصطلاحي وأهميتها الحقيقية

أولاً: اسم كردستان في تاريخ الشرق

ثانياً: الجغرافيا الطبيعية لكردستان

ثالثاً: خصائص الهضبة الأرمينية

رابعاً: زاگروس -كردستان إيران

خامساً: منطقة السكنى الحالية للكرد

الفصل الثالث

نمط الحياة والمشاغل والأعراف والعادات

أولاً: الرحلات الكردية

ثانياً: طقوس حياة الرعاة

ثالثاً: أهمية تربية المواشي

رابعاً: الزراعة والقطاف والصيد

خامساً: الصناعة اليدوية والتجارة

سادساً: منهج للإصلاحات الاقتصادية

سابعاً: ملاحظات حول الاقتصاد الكردي وآفاق تنميته

الفصل الرابع

فردية الكردي وطباعه

أولاً: صعوبة رسم صورة عن الحالة النفسية لشعب ما

ثانياً: نماذج سايكولوجية كردية للدكتور كريستوف

١- رُحّل من رعاة جبال طوروس

٢- رعاة من رحّل أرمينيا (تماس مع أرمينيا)

٣- العشائر الحدودية وأنصاف الرُحّل

٤- العناصر الكردية المدنية

ثالثاً: انطباعات عدد من المستشرقين عن الكرد:

(سون. بيندر. ميلينكن. لوك. ويكرام. مينورسكي)

رابعاً: كيف يرى الكرد أنفسهم؟

الفصل الخامس

العائلة الكردية: مسكنها. أزياؤها. غذاؤها. دور المرأة. طقوسها العائلية

أولاً: المسكن. القرية. الخيمة

ثانياً: الزي الكردي

١- أزياء الرجال

٢- أزياء النساء

٣- تصنيف الملابس

ثالثاً: الغذاء

رابعاً: مكانة المرأة الكردية

خامساً: نظرة الكرد إلى نسائهم

سادساً: رب الأسرة
سابعاً: الطقوس العائلية
أ- الولادة
ب- الزواج
ج- المآتم

الفصل السادس

العشيرة الكردية
البيئة الاجتماعية: (الطبقات. مكانة الزعيم وصلاحياته. وسائل اللهو)
والاقتصادية: (الواردات. نظام الاوبا)
أولاً: صورة العشيرة
ثانياً: تركيب العشيرة وطبقاتها
ثالثاً: صفة الزعيم ومهامه
رابعاً: أقاصيص عن العلاقات بين زعماء العشائر
خامساً: السلطة القضائية لزعيم العشيرة
سادساً: وسائل التسلية الجماعية، الغناء والرقص
سابعاً: المظهر الاقتصادي للعشيرة
١- ما يدفعه الكردي لرئيسه
٢- الالتزامات العسكرية في ظل النظام الإقطاعي
٣- النظام المالي
٤- نظام الاوبا

الفصل السابع

العشائر في الزمان و المكان
أولاً: تاريخ العشائر
ثانياً: توسع الكرد مكانيا
أ - عشائر كردستان الوسطى (تركيا)
ب- عشائر كردستان الجنوبية (العراق)

١- بابان
٢- هموند
ج- عشائر كردستان إيران
١- موكري
٢- أرد لان
٣- عشيرة (جاف)
٤- كلهر

الفصل الثامن

الكرد والدولة والأمة الكردية
أولاً: التمييز بين الدولة و الأمة
ثانياً: الدولة والامة في الإسلام
ثالثاً: الكرد في التطور السياسي الإسلامي
رابعاً: الإحساس القومي الكردي
خامساً: المرحلة الأولى من التاريخ الكردي: من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر

الفصل التاسع

الكرد والدولة (ملحق)
سادساً: المرحلة الثانية من التاريخ الكردي: منذ بداية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر: النظام الإقطاعي في كل من الدولة العثمانية و إيران
سابعاً: المرحلة الثالثة من التاريخ الكردي من منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى: إزالة نظام ملوك الطوائف في تركيا وإيران

الفصل العاشر

الحركة الوطنية الكردية
أولاً- الفائدة المتوخاة من وراء بحث هذه المسالة
ثانياً- ثلاث مراحل من الحركة الوطنية
أ- تمردات وثورات دونما مخطط عام
١- ثورة عبدالرحمان باشا بابان ١٨٠٦
٢- ثورة بلباس عام ١٨١٨

٣- الكرد خلال الحرب الروسية - التركية (١٨٢٨-١٨٢٩)
٤- الكرد و ثورة مصر ١٨٣٢ -١٨٣٩
٥- ثورة بدرخان بيك
٦- ثورة يزدان شير (١٨٥٣ -١٨٥٥)
٧- ثورة الشيخ عبيد الله نهري ١٨٨٠
ب- محاولات لتنظيم الحركة الوطنية الكردية
١- التنظيمات السياسية الكردية الأولى في القسطنطينية (١٩٠٨)
٢- الكرد خلال الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨)
ج- التأييد الدولي للأماني الكردية
١- معاهدة سيفر لسنة ١٩٢٠ و معاهدة لوزان لسنة ١٩٢٣
٢- قضية الموصل
٣- تأسيس (خويبون) والثورات الجديدة
٤- الكرد في إيران
٥- الكرد في العراق
٦- الكرد في سوريا
٧- الكرد في الاتحاد السوفياتي
د- المسالة الكردية خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠-١٩٤٥) وبعده
- خط بياني لحركة الطبع والنشر الكردية فيما عدا الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩١٣ وحتى عام ١٩٣٤.

الفصل الحادي عشر

الحياة الروحية للكرد: الدين
أولاً- طابع العاطفة الدينية لدى الكرد
ثانياً- موقف الكرد إزاء الإسلام
ا- النخبة المتبحرة في الإسلام
ب- سنّية الكرد
ج- التصوف الكردي، سلطة المشايخ

د- الجهاد المقدّس
ثالثاً- سلوك الكرد إزاء اليهود
رابعاً- موقف الكرد إزاء اليزديين (الايزديين)
خامساً- اليزدية (الايزدية)
نظرية أصل اليزدية الاسلامي
سادساً- اليزدية كما يراها البروفيسور مار
أ- عن كلمة جلبي (Chalabi)
ب- المعتقدات القديمة في اسيا القديمة
ج- الخميرة الوثنية الكردية في ارمينيا
د- الكرد ليسوا هندو-اوروبيين
هـ- جافيتية الكرد
و- تماثل كلمتى (جلبي) و (يزدى)
سابعاً- أهل الحق
ثامنا- الأساطير الشعبية الكردية
- مفاهيم تتعلق بتكون الكون
تاسعا- الثعبان في المعتقدات الكردية
عاشرا- عبادة الحمار

الفصل الثاني عشر

الحياة الروحية لدى الكرد - الأدب الكردي
أولاً- التاريخ المادي والتاريخ المعنوي للشعب
ثانياً- الفولكلور الكردي الناتج من الأمية
ا- اللاوك: من الأشعار الغنائية الكردية
ب- أهمية هذا النوع من الشعر
ج- مقارنة بين اللاوك الكردي و القصيدة العربية
د- مدرسة المغنيين الكرد
ح- المجاميع الفولكلورية الكردية

و- المواضيع الفولكلورية الكردية بالمقارنة مع المواضيع الفولكلورية للشعوب الأخرى
ثالثاً- الأدب الكردي المدون
ا- الرواد الأوائل
ب- الممثلون الجدد للشعر الكردي
ج- مسالة اللغة الأدبية الكردية
د- الحركة الثقافية في سوريا
هـ- الحركة الثقافية الكردية في العراق
و- النجاحات التي أحرزتها الدراسات اللغوية بين كرد الاتحاد السوفيتى
ز- مؤتمر عام ١٩٣٤ في يريفان
رابعاً- دور روسيا في حركة الاستكراد

ملاحق

الملحق رقم (١)(يتعلق بالفصل الخامس)
الملحق رقم (٢) (يتعلق بالفصل العاشر)
مقتبس من تقرير اللجنة التحقيقية المؤرخ في ١٦ حزيران ١٩٢٥ حول مسالة الموصل
الملحق رقم (٣)(يتعلق بالفصل العاشر) رسالة الشيخ محمود إلى رئيس مجلس عصبة الأمم
الملحق رقم (٤)(يتعلق بالفصل العاشر) رسالة حول الاقليات الكردية
من مؤلف هذا الكتاب إلى مدير جريدة (التايمس)
الملحق رقم (٥) (يتعلق بالفصل العاشر) رسالة المؤلف إلى مدير جريدة
(لومتان - الصباح) التي لم تنشر
الملحق رقم (٦) (يتعلق بالفصل الثاني عشر) فهرست المدارس القرآنية
(العلوم القديمة) في مدن كردستان و قراها ا- في تركيا العثمانية ب- في إيران
وثائق وصلتني بعد تأليف الكتاب
مذكرة حول كردستان

تقديم

منذ قرون خلت، تحتضن كتلة جبال آرارات، عند منابع دجلة والفرات، مجموعة قبائل أثبتت عبر التأريخ، تجانسها الاجتماعي ووحدتها اللغوية، انها الكرد. ومع أن عددا كبيرا من المختصين في الشؤون الكردية (الكردولوج) بدأوا منذ أكثر من نصف قرن بدراسة الكرد دراسة منتظمة، إلا أننا ما نزال لا نعرف بصورة جيدة ما هي كوردستان. وهذه الدراسة التي يقدمها كردولوجي بارز، أول مؤلف شامل يتناول مختلف أوجه المسألة الكردية.

إن المسألة الكردية قائمة رغم عدم وجود دولة كردية. ورغم أن لهجات اللغة الكردية من عائلة اللغات الإيرانية، إلا أنها توحي بوجود عنصر غريب فيها. وإذا كان دين الكرد الحالي هو الإسلام، فإن عناصر قديمة مازالت تشوب اليزدية وأهل الحق والسنة والشيعة، وهي عناصر قلما توافق خط الإسلام الرسمي. لقد ظهرت بين الجاليات الكردية المنتشرة في سوريا والأناضول والعراق وأرمينيا وإيران شخصيات تميزت بوضوح بخصائصها الكردية الأصيلة مثل صلاح الدين الأيوبي. إن أعدادا من رجال السياسة في بلاد الترك والعرب والفرس يعودون إلى أصول كردية.

لقد استطاع باسيلي نيكيتين بوجوده في (أوروميه)، بفضل صداقاته المتينة، أن يجمع وثائق مباشرة عن الكرد استفادت منها مجلات علمية متنوعة في الغرب. كما أن إطلاعه على المعلومات المتوفرة بغزارة في المكتبتين الإنكليزية والروسية واللتين تتعاظمان في هذا السياق يوما بعد يوم، سهّل له أن يتناول في فصول مؤلفه الأثنى عشر جميع جوانب المسألة الكردية: أصول اللهجات الكردية، نمط حياة الكرد، نماذج من شخصياتهم، مساكنهم، تكوين قبائلهم، نوع تكتلاتهم ونشوء الفكرة القومية بينهم. تلك هي المحاور التي تدور حولها دراسة المؤلف بكثير من الفهم العميق. لقد عرف المؤلف أين تتوقف حدوده عند تطرقه للنقاط العديدة التي ما يزال يكتنفها الغموض. وهو بهذا يظهر بوضوح كم أشبع المسألة درسا وتمحيصاً.

ومن خلال العرض الذي قدمه المؤلف – وهو على حق – لإتساع الأدب الشعبي لدى الكرد، هذا الأدب الذي يفيض حيوية، وإن كان لما ينضج بعد – يمكننا أن نستشعر طلائع تجدد إنساني بإمكان الكرد الجبليين الذين تحالفوا مع الترك السلاجقة لاحتلال الأناضول، أن يبعثوه ثانية في الدول المجاورة، ولاسيما إذا سويت بعض الخلافات القائمة.

أيار ١٩٥٨ – لويس ماسينيون

مقدمة المترجم

من أوليات مستلزمات الترجمة الصحيحة،الأمانة ! ولا نقصد بالترجمة الصحيحة الترجمة الحرفية، فالترجمة الحرفية تفقد الكتاب في حالات كثيرة، روحه وجوهره. إن الغرض المطلوب من مفهوم الترجمة الصحيحة إيصال فكر المؤلف وما استهدف بيانه للقارئ، دون إضافة شيء لم يقله في كتابه، أو حذفه منه. وهذا ما حاولت تحقيقه في ترجمتي لهذا الكتاب الذي كتبه في منتصف القرن الماضي، مؤلفه المستشرق الروسي الأصل، الفرنسي الثقافة، الكردولوجي المعروف باسيلى نيكيتين.

اطلعت على هذا الكتاب الذي أطلق عليه مؤلفه اسم "الكرد، دراسة سوسيولوجية وتاريخية" وأنا طالب في جامعة السوربون في باريس في أواسط الستينيات. وقبل عودتي إلى الوطن بفترة وجيزة كنت في زيارة للمستشرق والكردولوجي المعروف، الأب (توما بوا)، فقال لي والألم باد على وجهه: "لقد سررت كثيرا عندما علمت بترجمة كتاب نيكيتين إلى اللغة العربية في بيروت. ولكنني تمنيت، عندما اطلعت على الترجمة، أن لو لم يترجم بهذه الصورة المبتورة والمشوهة". وقبل أن أودعه، وكان ذلك اللقاء لقاءنا الأخير، طلب مني إعادة ترجمته إن تسنت لي الفرصة في المستقبل. وقد بحثت في تلكم الأيام عن الكتاب في جميع أماكن وجوده في باريس، ولكن دون جدوى، بسبب نفاذه من المكتبات.

ومضت سنوات، سمعت بعدها نبأ وفاة هذا العالم الجليل الذي كرس معظم وقته لدراسة أحوال الشعب الكردي وشرح قضيته، وأحسست في حينه بوخزة في الضمير لأنني لم أحقق له في حياته ما طلب مني، لعدم توفر الكتاب لدي. وفي نهاية العام ١٩٨٧ التقيت صدفة بصديق استفسرت منه عن كتاب الأب تومابوا (الكرد والحق) الذي نشره باللغة الفرنسية عام ١٩٤٧ بإسمه المستعار (رامبو)، فاخبرني بعدم وجوده لديه، لكنه ذكر أن كتاب باسيلى نيكيتين عن الكرد موجود لديه. وبعد أن بينت له رغبتي القديمة في ترجمة الكتاب الأخير إلى اللغة العربية، أعارني إياه مشكوراً. وها أنا أبر بوعدي، وقد بذلت كل ما في وسعي لتأتي الترجمة أمينة ودقيقة ومعبرة عن أفكار المؤلف بلغة سهلة ومفهومة، رغم عدم اتفاقي معه في بعض مضامين كتابه، وهي إن صحت فهي إنما تعبر عن واقع الحياة الكردية قبل أكثر من نصف قرن. لقد تطور المجتمع الكردي خلال هذه الحقبة من الزمن، شأنه شأن المجتمعات الشرق اوسطية، في مختلف الميادين الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية وغيرها، رغم أن الظروف السياسية التي مرَّ بها هذا الشعب وما يزال في مختلف أجزاء كردستان كانت كافية لقلع جذور أي شعب آخر لو عاش ظروفا مماثلة. ولكن جذور الشعب الكردي كانت ومازالت عميقة في أرض آبائه وأجداده كردستان، ولذلك استطاع الصمود بوجه عوادي الزمن على

صعوبتها وقسوتها.

لقد سبق أن "ترجم" هذا الكتاب إلى العربية في بداية الستينيات "لفيف من المترجمين" وصدرت ترجمتهم عن "دار الروائع" البيروتية. ويكفي للتدليل على مدى" الأمانة" المتوفرة في هذه الترجمة أن كتابا يقع في أصله الفرنسي في ٣٦٠ صفحة ومطبوعة بالحروف الناعمة، تقع ترجمته العربية في طبعة ١٩٦٧ في ٢٤٠ صفحة متوسطة الحجم !

أفلا يحق لي، والحالة هذه، التساؤل كيف يجوز لمترجم ما أن يترجم كتابا على هذا النمط، ومن الذي أباح له أن يتخذ من نفسه حكماً على الكتاب، يُبقي منه ما يشاء، ويحذف منه ما يشاء؟ لقد سمح هذا اللفيف من المترجمين لأنفسهم أن يترجموا في مواضع عديدة من الكتاب سطوراً من أحد مباحثه ويتركوا صفحات عديدة منه. والأغرب من هذا أنهم ترجموا بكل دقة وأمانة أقاصيص موهومة وردت في الكتاب مما يسئ إلى الشعب الكردي ويصوره شعبا متعطشا للدم، ميالاً إلى السلب والنهب واللصوصية، أو أقوالاً لبعض الرحالة الأجانب المتحايلين على الكرد لأسباب معلومة، أو فقرات لا تصدق محتوياتها إلا على فترات زمنية بعيدة، بينما أهملوا ترجمة فقرات وصفحات أخرى تتضمن معلومات قيمة تاريخية وسياسية وجغرافية وغيرها وردت في الكتاب مما يعتبر الاطلاع عليها ضروريا لفهم ماضي الشعب الكردي وحاضره. أفلا يعتبر التركيز على جانب في الترجمة وإهمال جوانب أخرى أمرا يتنافى مع مستلزمات الأمانة العلمية وغشا في التعامل مع جمهرة القراء؟

في الكتاب، كما سبق أن ذكرت، آراء عن الكرد أكل عليها الدهر وشرب. ولكن وجود مثل هذه الآراء في الكتاب لا ينقص من قيمته لأسباب عديدة منها علمية المؤلف وإطلاعه الواسع على الشؤون الكردية وخبرته بها، وموضوعيته إلى حد كبير. وتصحيحاً لتلك الآراء، أود أن اذكر هنا أن شعبنا الكردي ليس بأي حال من الأحوال شعباً محبّاً لسفك الدماء أو مفتتاً بسبب سيادة الروح العشائرية. انه، على العكس من ذلك، شعب يسفك دمه لا لسبب إلا لمطالبته بمعاملة تليق بإنسان هذا العصر. والروح العشائرية انتهت فيه إلى غير رجعة عموماً، ولكن جهات عديدة تبذل كل وسيلة للمحافظة على بقايا هذه الروح بين صفوفه أينما وهنت ولبعثها من جديد أينما انقضت. وفيما عدا ذلك، فإن لكل مرحلة اجتماعية سماتها وخصائصها. ولئن كان الرحالة الأجانب تحدثوا عن وجود لصوص وقتلة وعصابات سلب ونهب في كردستان قبل اكثر من قرن من الزمان، فما كان ذلك سمة خاصة بالكرد لا يشاركهم فيها غيرهم. لقد وجد أولئك على مر الزمن، في كل أمة وشعب، ولم ينتهوا إلا بدخول مجتمعاتهم مراحل أكثر تطورا من ذي قبل وادعى إلى الحياة المدنية الهادئة الهانئة. وهذا ما تحقق في المجتمع الكردي أيضاً رغم كل عصيّ التعويق التي يضعها في طريق تطوره أكثر من جهة وفي أكثر من مكان.

المترجم – شباط ١٩٨٩

مقدمة المؤلف

الكرد وكردستان؟ من هم الكرد، وأين تقع كردستان؟ وما الفائدة من دراسة تأريخهم ومجتمعهم في أيامنا هذه؟ تلك هي الأسئلة التي قد تتبادر إلى ذهن القارئ الذي يلقي نظرة على واجهات بعض المكتبات، ولاسيما أن التسمية ليست مألوفة كثيراً لدى القارئ الفرنسي[1]. إن واضع أي مؤلف يوضع في متناول يد القارئ يترقب هذه الملاحظات، ولكن الفائدة في موضوعنا هذا تبدو قبل كل شئ في أنه موضوع لم ينشر عنه الكثير وغير معروف إلا في نطاق عدد معدود من المختصين، وتلك مهمة ينبغي القيام بها من أجل تعريف القارئ بحقيقة الكرد وبلادهم.

إن الرأي العام الفرنسي غير معذور بعد اليوم إذا أبدى عدم اكتراث بالتعقيدات اللامتناهية في آسيا، التي برزت فجأة أمام أعين الناس بعد انتهاء الحرب الأخيرة، بصورة جديدة وغير متوقعة. لقد حلّت فجأة محل الهدوء والركود اللذين كانا سائدين ومألوفين في هذه القارة، اضطرابات غير معتادة، وبرزت انتفاضات وحركات وطنية كشفت دونما سابق إنذار عن مشاكل سياسية واقتصادية ذات تأثير كبير على استتباب السلم العالمي.

هذه المشاكل الناجمة عن الحرب العالمية الأولى، التي ظلت بعيدة عن أن تجد لها حلولاً مرضية، نمت وازدادت تعقيداً وتسببت بالتالي في تسخين وضع الشرق وما ترتب على ذلك من أذى يصعب معالجته. لذلك ينبغي التعرف أكثر من أي وقت مضى على جوانب المشكلة ومعطياتها في وضعها الراهن. وقد تسنت لي الفرصة لمراقبة ودراسة الكرد وبلادهم كردستان خلال سنوات عملي الوظيفي كقنصل في تلك البقعة من آسيا، فحاولت، بوصفي مؤلفاً، تفهم هذا الشعب الذي "نسيه التاريخ" وتحديد موقعه من التطورات السياسية والاجتماعية والروحية في الشرق الإسلامي، وإبراز خصائصه المتميزة وبيان آماله وكذلك الأسلوب المتبع من لدن الدول التي تتقاسم فيما بينها بلادهم وموقف الدبلوماسية العالمية منهم بوجه عام.

وسوف يطلع القارئ الكريم أيضا على الدور المشؤوم الذي لعبه الكرد في نهاية القرن التاسع عشر في المشكلة الأرمينية، فقد إقترن اسمهم بالمذابح التي تعرض لها الأرمن، ولا يوضح ذلك غير جانب واحد من حياة الكرد نفسها الحافلة بالأذى. وسيلاحظ القارئ أن الشعب الكردي لا يستحق هذا الحكم المتسرع والإدانة المسبقة. ولا يدعي المؤلف، بطبيعة الحال، براءة الكرد مما ارتكبوه فيما مضى تجاه جيرانهم المسيحيين، ولكنه يحاول أن يبين أن هذه المثالب إنما تعود لظروف تطور الشعب الكردي

(١) إن صح الحكم قبل أكثر من خمسين عاما عندما ألف المؤلف كتابه هذا، فإن الوضع يختلف اليوم تمام الاختلاف – المترجم.

اجتماعيا وسياسيا، هذه الظروف التي تخضع بدورها للوسط ولأسلوب العيش الذي كان يتبعه. لذلك ينبغي رد الاعتبار إليه ومحاولة إبراز وجهه الحقيقي بكل ما يكتنفه من محاسن ومساوئ، دون أن نتقبل إدانة مسبقة بشأنه[2].

فيما يتعلق بالمبدأ القائل "فهم الكل يغفر الكل" يتحدد موقف المؤلف بالرغبة في الالتزام بالشطر الأول منه والتحفظ في الإفاضة في الخطر الذي يخفيه الشطر الثاني منه. كذلك يود المؤلف أن ينبه القارئ إلى أنه نظراً لسعة الموضوع، فقد امتنع عن الولوج في شرح تأريخ الكرد بأكمله. فأولاً يضم التأريخ المذكور القرون التي مضت منذ انسحاب العشرة آلاف من اليونانيين مع زينفون وهم الذين اصطدموا بالكاردوخيين أسلاف الكرد، إلى عصرنا هذا. إن تأريخ الكرد الطويل والنشط بهذا المفهوم الواسع لن يتوقف عنده إلا المختصون بالمواضع، ولم يأت الوقت بعد لإكمال هذا العمل، فلابد من إعداد دراسات دقيقة في هذا المجال بغية سد الفراغ في هذا الميدان الرحب من التاريخ، إذ أن الكرد أسهموا بنشاط في تأريخ جميع الشعوب التي تتابعت على مسرح الأحداث في آسيا القديمة خلال قرون عديدة. وسنحاول، بقدر إلمامنا بتفاصيل تأريخ الكرد الغني بالتحولات والمداخلات الكثيرة وبمساعدة جميع المختصين في هذه المواضيع العسيرة، الإسهام خطوة بعد خطوة في إعادة بناء هذا النسيج الثخين والممزوج الذي سيضاف إلى مستقبل الكرد.

لقد اكتفى المؤلف باستعراض ملامح الحياة الكردية من أجل إعطاء فكرة عامة وشاملة عنهم، وهو لا ينكر أن نقاطا أخرى عديدة لم تبحث إلا بصورة سطحية. ومع ذلك فهو يعتقد أنه تناول جميع العناصر الأساسية للمسألة. إن الوسط الكردي يعد مجالاً رحباً ليكون موضوع دراسة شاملة في ميادين علوم خصائص الشعوب وأصولها وسلالاتها وعلوم الآثار القديمة والتأريخ واللغات. ولم يتمكن المختصون في هذه الميادين من القيام بتنقيبات منتظمة لأسباب سياسية، ولإمكان اتهام القائمين بهذه التنقيبات بشتى التهم من قبل الحكومات المعنية، ولاسيما فيما مضى، لاعتقادها أنهم يتدخلون في أمورها الداخلية (كاغتيال العالم الألماني المعروف شولتز في العام ١٨٣٠). وإذا ما أتيحت الفرصة يوما ما لكردستان لتعيش حياة آمنة وعادية، فإن المستفيد الأول من ذلك سيكون العلم. ونأمل أن يظهر بين الكرد أنفسهم باحثون، وقد ظهر فعلا عدد يبشر بالخير يتعاونون مع العلماء الأجانب في هذا المضمار.

وحتى لو لم تكن معلوماتنا عن كردستان متكاملة بما يرضي المستشرقين، فأنها كافية لفهم أسلوب

(٢) لمعرفة الحقيقة بأجلى صورها عن دور الكرد في ما تعرض له الأرمن في تركيا في أواخر القرن التاسع عشر، راجع كتاب (كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى) تأليف الدكتور كمال مظهر احمد وترجمة محمد الملا عبد الكريم، ولاسيما الفصل المعنون: الكرد والدم الأرمني المراق – الصفحات ٢٣٥ – ٣٠٢ منه. من منشورات المجمع العلمي الكردي، بغداد ١٩٧٧ – المترجم.

عيش الكرد الذي حاول المؤلف استخلاصه بعد التطورات التي مر بها هذا الشعب منذ وجوده ولحد الآن.

ما يزال النظام القبلي سائداً في المجتمع الكردي ولم يتخلص منه حتى اليوم رغم أنه يسير نحو التحضر (وفي الاتحاد السوفياتي نحو العمالية) الذي يمكن الإسراع به بتطور البلدان التي يعيش الكرد ضمنها. إلا أن الكردي ما يزال يمثل بالنسبة لنا شخصية الرجل القبلي. وهو إن بدا لنا بهذه الصورة سّهل علينا فهم عيوبه وفضائله، فهو في نظر سلطات الدول التي يعيش ضمنها يعد فوضويا متمردا يصعب إخضاعه للنظام، ولكنه، في المقابل، يأخذ مكانته كاملة داخل تركيب عشيرته التي يخلص لها ولرئيسها، وهو مقاتل باسل ومستعد للتضحية بحياته في سبيل المجموع، كما أنه فخور بأصله ونسبه وماضيه الحافل بالكفاح. انه فارس مقدام، يهتم بملابسه الزاهية وشغوف بسلاحه. وربما قد حان الوقت لتحديد هذه الصورة، لأن الكرد يعدون آخر من بقى من الرحل الهندو-أوروبيين على قيد الحياة. أما في حياته العائلية فهو أب حنون لأولاده ولاسيما الذكور منهم، ومتفان في سبيل أسرته التي تلعب فيها زوجته دورا متميزاً قلما تجده لدى الشعوب الإسلامية الأخرى. ويحب الكردي في أوقات راحته وفراغه الاستماع إلى الشعراء المتجولين الذين يتغنون بالمآثر الكردية، أو أن يشارك في الدبكات المختلطة مع النساء. وفي ذلك أيضا يختلف عن الشعوب الإسلامية الأخرى. أنه يغني ويرتجل أشعارا غنائية قيلت في الإشادة بجمال الحبيبة أو بمآثر المقاتلين. وهو غالبا ما يكون قاسيا مع الآخرين، ولكنه غير بار بنفسه أيضا. وهو تارة مغامر وتارة محتال، وسريع الغضب تارة ومراء تارة أخرى. كما انه كثير التهكم وبسيط مع الآخرين. ويبدو لنا الكردي بوجه خاص محبّاً لجباله التي نشأ فيها ولشلالاتها المزبدة البيضاء وقممها الشمّاء ووديانها العميقة ومراعيها الجميلة المزينة في الصيف بقطعان الماشية التي تعد المصدر الرئيسي لمعيشته. ويجمع الباحثون جميعا على الإقرار بأن الكردي يتمتع بذكاء حاد وفهم سريع حتى في الميادين التي لم تعد مألوفة بالنسبة إليه بعد كالميكانيك الذي أثبت انه عامل مثالي فيه، ولاسيما في مشاريع استخراج النفط.

أما في ما يتعلق بالدين، فرغم أن الكردي يخضع لمصلحة عشيرته إلا أن صفوة من الكرد يتميزون بانغماسهم في الروحانيات، وفي ميدان التصوّف خاصة. وتحث هذه الروحانيات الإنسان الكردي على "البحث عن الله"، وهذا البحث جبلة إيرانية مميزة تشعبت من المعتقدات الكردية التي تجد أصولها في الإسلام وفي معتقدات أخرى ترجع إلى ماضٍ سحيق. وكل ذلك يفسر بأسباب تاريخية ترتبط بموقع كردستان ووقوعها على ملتقى الديانات التي ظهرت في أرض آسيا القديمة.

ويتجلى لنا تراث هذا الشعب في فولكلوره الغزير المتشعّب الذي هو في حد ذاته مادة غنية جديرة بالدراسة. إن الأدب المدوّن أقلّ تقدّما، وما يزال يفتقر إلى لغة أدبية مشتركة. ونجد في ثنايا هذا الأدب تراثا قديما. وتبذل اليوم جهود مضنية ومفيدة تستحق الثناء. وترتبط هذه الجهود بالحركة

الوطنية الكردية، إذ يريد المساهمون فيها أن يقدموه في إطار متكامل يجد جذوره ومسيرته في مراحل متعاقبة.

وهكذا سوف يرى القارئ أنه، بالإضافة إلى الجانب المتعلق بأصول هذا الشعب وطريقة حياته التي تستحق المعرفة، تبدو لنا الحركة الوطنية الكردية، ابتداء من تأريخ معيّن، مماثلة في خصائصها لحركات شعوب الشرق الأخرى التي برزت طموحاتها في التحرر من العبودية غداة اندلاع الحرب العالمية الأولى. وقد أسهم اصطدام هذه الاتجاهات التي برزت معا إسهاما جليّاً في تعقيد المشكلة الكردية في إطار الدول التي شتتّت شمل الشعب الكردي ضمنها، تلك الدول التي تمر أيضا بمراحل التطور الوطني نفسها.

وبعبارة أكثر إيجازاً، ان في دراسة المسألة الكردية فائدة عظمى لفهم الوضع السياسي الراهن. فمنذ اندلاع الحرب العالمية الأولى والمباشرة بتحديد مناطق النفوذ بين الدول العظمى وإنشاء دول تخلف الإمبراطورية العثمانية، غدا وضع الكرد معروفا لدى الدبلوماسيين، بل وبدا الأمر خلال فترة قصيرة وكأن آمال هذا الشعب وجدت إقراراً دولياً بها من قبل الدول الكبرى التي اتخذت من نفسها حكما لتحديد الوضع الدولي. ولكن خلافا للوعود المعلنة والتصريحات المفخّمة، خططت حدود بلدان المنطقة ليس بمقتضى الاعتبارات القومية والإنسانية، بل وفق المصالح المشينة لرجال الأعمال الكبار ودول الغرب الاستعمارية. أما الضمانات التي منحت للشعب الكردي المتمثلة بالوصاية عليه نظرياً من قبل عصبة الأمم، فلم يتمتع بها إلا بصورة واهية وحسب رغبات وزارات المستعمرات.

وأخذت الأحداث منذ ذلك الحين تسير في اتجاه آخر لا يمكن السيطرة عليه، فلم تعد المشكلة الكردية قائمة فقط، بل أخذت منحى آخر، كما أثبتت ذلك سلسلة الثورات والانتفاضات الدموية التي قام بها هذا الشعب والتي عبّر بواسطتها عن إرادته في التحرر من الذل والهيمنة.

إن من السابق لأوانه التكهن منذ الآن بمستقبل الوضع السياسي للدول التي تتقاسم فيما بينها أبناء هذا الشعب، ولكن الشيء الأكيد هو أن كل حل يتجاهل من جديد حقوق هذا الشعب لن يكتب له النجاح، ويثير ضمن أوضاع هذه الدول السياسية اضطرابات حتمية[٣]، لإصراره على التمسك بحقوقه والتمتع بها.

ويكفي أن نلقي نظرة على خريطة العالم لتتبيّن لنا أهمية موقع كردستان، فجميع الطرق التي تمر عبر آسيا القديمة وتربط الغرب بالشرق بمفهومه التاريخي للتبادل التجاري معه، سواء تلك التي تجتاز هضاب أرمينيا العالية صوب أذربيجان والقفقاس أو الطرق المارة بين القمم العالية التي تربط بلاد ما

(٣) كما برهنت الوقائع على ذلك خلال السنوات التي أعقبت صدور هذا الكتاب، خاصة منذ بداية التسعينات من القرن الماضي – المترجم.

بين النهرين بإيران، تمر كلها عبر كردستان. لذلك يعتبر توفير الأمن والاستقرار لخطوط المواصلات هذه ضروريا بغية تطوير المناطق التي تمر عبرها. أما معاداة الكرد فإنها تجعل من هذا الشريان الحيوي من خطوط المواصلات الدولية تفقد قيمتها الحيوية. وتبرز المشكلة نفسها بالنسبة لظروف استثمار الثروات الهائلة الموجودة في باطن الأرض في هذه المنطقة من العالم وبخاصة البترول منها. إن معظم ينابيع هذه المادة المهمة موجودة في المنطقة الكردية من العراق (كركوك)، وهي التي بوشر باستثمارها، أو في الهضاب العالية من أرمينيا التي حددت أماكنها وبوشر باستثمارها جزئيا.

هذه الاعتبارات تبدو واضحة وهي تدعو المصالح السياسية والاقتصادية للقوى المؤثرة في المنطقة لتجتمع حول مائدة مفاوضات مكرسة لدراسة مستقبل كردستان. وبودنا أن لا تكون هذه الأسباب هي وحدها وراء إثارة انتباه الدبلوماسيين والخبراء الذين يدعون لدراسة المشاكل التي نعيشها حاليا. إننا نأمل أن تكون مبادئ الأخلاق وقواعد القانون والعدالة والضمير الدولية هي المنتصرة لنكون قد جنبنا البشرية خيبة أمل أخرى في سلام فقدناه، لأنه رتب وفق المصالح الأنانية لبعض القوى الكبرى التي لا تتفهم مشاكل الغير. ولابد لهذا المؤتمر الذي ندعو إليه من أن يجد حلا للمشكلة الكردية، رغم أنها تبدو غير كبيرة في نظر البعض، ولكن الأمن لن يستتب في هذه المنطقة الحيوية من آسيا دون تحقيق ذلك. ولكي يؤدي المؤلف عمله بصورة متقنة، فقد استعان - بالإضافة إلى خبرته ودراساته الشخصية - بالعلاّمة الكردي الملا سعيد وبأعمال المستشرقين والكردولوجيين الألمان والإنكليز والفرنسيين والطليان والفرس والبولون والروس الذين اسهموا، كل في مجال اختصاصه في زيادة معلوماتنا عن كردستان ممن سنشير إلى أعمالهم في مواضعها. إلا أن المؤلف يود، أن يذكر بوجه خاص أسماء بني وطنه[٤] وهم كل من العلاّمة (مار) و (مينورسكي) و (فيلجيفسكي) الذين يدين لهم بالفضل في النجاح الذي أحرزه في بحوثه، وإلى الأساتذة الفرنسيين الأجلاّء (بيير روندو) و(روجيه ليسكو) اللذين ساعدا المؤلف كثيرا بوثائقهما ومعلوماتهما المستفيضة بشأن الكرد في سوريا واليزيديين في هذا المجال. ويود أن يشكر بوجه خاص (بيير روندو) الذي تفضّل بإعادة النظر في مسودّة هذا الكتاب. أما العلاّمة والمستشرق الكبير (ماسينيون) الذي كان له الفضل دوما في تشجيع المؤلف في دراساته الخاصة بالكرد، فقد أضاف فضلا آخر بكتابته تقديماً لهذا الكتاب، لذلك يقدم إليه المؤلف شكره وامتنانه الخالصين.

نيسان /١٩٤٣ باسيلي نيكيتين

(٤) من الروس - المترجم

ملاحظة:

يقدم المؤلف شكره وعرفان جميله إلى اللجنة الخاصة المعروفة بـ(لجنة الحضارات غير الكلاسيكية) التي يرأسها العلاّمة (فيرولو) ويتولى عضويتها الأستاذان (ماسينيون) و(كروسيه)، هذه اللجنة التي أوصت اللجنة الوطنية للأبحاث العلمية (C.N.R.S) بإعطاء منحة مالية لطبع هذا الكتاب. فإلى زملائي المستشرقين الأجلاّء شكري مرة أخرى وعرفاني بالجميل.

شباط ١٩٥٥ - المؤلف

باسيلي نيكيتين

مدخل إلى حياته واعماله(*)

١٨٨٥-١٩٦٠

دكتورهلكوت حكيم

معهد اللغات الشرقية الحية/جامعة باريس

"وهل عمل نيكيتين في حياته شيئا آخر غير البحث والكتابة؟". هكذا أجابتني، والذهول يأخذها، موظفة في مكتبة باريسية متخصصة في قضايا الشرق. ولم يكن رأي الباحثة الاقتصادية التي خلفته في البنك الفرنسي للتجارة الخارجية يختلف كثيرا عن رأي المكتبية، إلا أن إعجابها كان يمتزج بأسفها على عدم التعرف عليه شخصيا. هذا الأسف لاشك انه اكبر لدى الكردي، وحاجته إلى التعرف أقوى. أذن هناك ما يشجعنا على محاولة أولية لتعريف نيكيتين، بعد مرور أكثر منثلث قرن على توديعه لهذا العالم. ورغم أن ضخامة آثار الرجل وعمقها لا تسمحان بهذه العجالة السطحية، إلا أننا نلتمس العفو، منه ومن القارئ على ذلك، آملين أن يكون إحياء الذكرى المئوية لميلاده عونا لنا.

حياته:

ولد باسيلي نيكيتين في مدينة سوسنوفيتزى ببولونيا عام ١٨٨٥ في أحضان عائلة لم يكن فيها من يهتم بالشرق ليحبّب إليه الاهتمام به. كان عليه أن ينتظر فترة الشباب حين أخذت قراءاته ومناقشاته مع أستاذ اللغة الفرنسية الذي جاب الكثير من بلدان آسيا وجولاته القصيرة في سواحل البحر الأسود وفي القفقاس تبذر في قلبه ولعا نحو الشرق لم يتركه حتى أيامه الأخيرة. فما أن أتم دراسته الثانوية حتى دخل معهد لازاريف في موسكو عام ١٩٠٤ لدراسة اللغات الفارسية والعربية والتركية، فتخرج وهو يحمل قاعدة قوية من المعرفة حول هذه اللغات.

عقب انتهاء دراسته، قام بعدد من الرحلات إلى القسطنطينية وباريس لمتابعة دروس بعض المستشرقين الفرنسيين. تم قبوله في عام ١٩٠٨ في مدرسة الترجمان التابعة لوزارة الشؤون الخارجية

(*) طلبنا من الزميل الدكتور هلكوت حكيم الاستاذ المساعد في معهد اللغات الشرقية الحية في جامعة باريس كتابة بحث عن باسيلي نيكيتين لإعطاء القارئ فكرة عن مكانته العلمية والأبحاث القيمة التي نشرها عن الكرد، قبل كتابته لهذا الكتاب، فإليه شكرنا - المترجم.

في سان بطرس بورك، حيث أرسل بعد عام للتمرن في القنصلية الروسية باصفهان. هذه الإقامة الأولية ساعدته على التطلع عن كثب على بعض حوادث الثورة الدستورية في إيران. عاد بعد عام إلى سان بطرس بورك وهناك تزوج من فتاة فرنسية (هـ. لوروا) التي رافقته بقية حياته.

في عام ١٩١١ اجتاز نيكيتين امتحان وزارة الشؤون الخارجية، فتم تعيينه سكرتيرا- مترجما في القنصلية الروسية في رشت (كيلان)، فاشتغل هناك حتى ربيع سنة ١٩١٥، حيث انتقل إلى وظيفة نائب القنصل في تبريز، ولكنه لم يمارس هذه الوظيفة إلا فترة قصيرة بسبب تعيينه قنصلا في مدينة أورروميه التي كانت آنذاك مسرحا للمنازعات والمناوشات بين الأتراك والإيرانيين والكرد والمسيحيين.

قضى باسيلي نيكيتين في هذه المدينة ثلاثة أعوام (مايس ١٩١٥ - نيسان ١٩١٨) كانت ذات أهمية كبرى في دراساته اللاحقة، إذ سمحت له بتعلم اللغة الكردية على يد الملا سعيد، قاضي كردستان، هذه الشخصية التي تركت لدى نيكيتين أكبر الأثر، فلم يتوقف عن ذكرها في كتاباته والتعبير عن مشاعره العميقة نحوه وإعجابه بثقافته وعلمه في اللغات والأدب والدين الإسلامي وبيان مواقفه الدينية المتّزنة.

قادته فوضى المدينة وضواحيها إلى القيام بدور سياسي فعال في المنطقة. فهجمات الأتراك ووضع الكلدانيين وتذبذب العشائر الكردية دفعته إلى التنقل من منطقة إلى أخرى في كردستان إيران لغرض التفاوض مع العشائر الكردية. وقد جمع خلال تنقلاته موادا كثيرة أصبحت فيما بعد مصدرا مهما لدراساته حول الكرد.

بعد ثورة أكتوبر أخذ التفكير الشيوعي ينتشر بين الجنود الروس في إيران. لم يتحمل نيكيتين الوضع الجديد فقرر أن يترك إيران نهائيا ويتوجه إلى فرنسا ليقيم فيها بصورة نهائية فوصلها عام ١٩١٩ كان هذا تحولا جذرياً في حياته. إذ ترك العمل السياسي ودخل عالم البحث والكتابة من بابه الواسع. وقد شغل خلال ٢٨ عاما وظائف مهمة في قسم الدراسات الاقتصادية للبنك الفرنسي للتجارة الخارجية. وكان يقضي أكثر أوقات فراغه باحثا وكاتبا في مواضيع لم تكن تتعلق بوظيفته لا من بعيد ولا من قريب.

توفي باسيلي نيكيتين في السابع من حزيران عام ١٩٦٠ تاركا وراءه أعمالا سوف تخلده وتخلد ذكراه. كتب محرر مجلة "أفريقيا وآسيا" كلمة تأبين لا نرى بدّاً ونحن نكتب اليوم هذه الصفحات من ترجمة الكلمات التي وصف بها نيكيتين الإنسان: "سوف ينقصنا بلا شك في هذه الكلمة التوديعية الأساس إن لم نذكر مزايا الإنسان، السمح في فتح باب مصادر معرفته لمنافسيه الشباب، الكريم في خدمة الجمعيات العلمية التي كان عضوا فيها وخاصة جمعيتنا الأسيوية. لم يتوقف باسيلي نيكيتين خلال النصف الثاني من حياته عن تقديم الأدلة على نزاهة عملية نادرة"(١).

(١) (L' Afrique et L' Asie, Paris, 1961, pp. 46-49.)
المعلومات الواردة عن حياة باسيلي نيكيتين هي خلاصة ما نشرته المجلة في نفس العدد.

أعماله حول الكرد:

من الصعب أن نجد باحثا تجاوزت موسوعية دراساته حول الكرد تلك التي أنجزها باسيلي نيكيتين خلال نصف قرن من حياته. وقد تعدت موسوعية تفكيره هذا الشعب إلى دراسة العديد من الشعوب الآسيوية وفي نواحٍ مختلفة من حياتها كاللغة، والتاريخ، والاقتصاد، والسياسة، وحتى الأدب والفن. بلغ عدد كتاباته من كتب ومقالات وترجمات الخمسين، من ضمنها مؤلفات وترجمات لم تر المطابع حتى يومنا هذا، والتي بتقادم الزمن يتراكم عليها غبار النسيان وتتسرب إلى طيات أوراقها المطبوعة على الآلة الكاتبة دودة الهرم. فمنذ أكثر من ثلاثين عاما وترجمته الفرنسية لقصة الراعي الكردي – على سبيل المثال لا الحصر– تنام في بعض المكتبات الباريسية المتخصصة في شؤون الشرق أو على رفوف المكتبات الشخصية لعدد من المهتمين بالكرد.

حينما بدأ باسيلي نيكيتين بنشر كتاباته باللغة الفرنسية حول الكرد، كان الرأي العام الفرنسي لا يعرف إلا القليل حول هذا الشعب إن لم يكن يجهله تماما. فما كان متعلقا بالأذهان لا يتعدى فكرة غامضة عن دوره المؤسف في مذابح الأرمن ومطالبته بحقوقه القومية بعد الحرب العالمية الأولى. أما صورة الكرد عند المهتمين بالشرق فكانت لوحة رسمتها غالبا ريشة "السياح" الذين جابوا كردستان والمناطق المحيطة بها، فعادوا بانطباعات سيئة جدا، اكتفت بتعميم بعض المظاهر السطحية وحوادث قد حدثت لهم شخصيا على عامة هذا الشعب، وسمحت لنفسها بإعطاء حكم قاس بعيد عن الروح الموضوعية اللامتطرفة. فكان على نيكيتين أن يواجه هاتين المسألتين في طريقه لدراسة الشعب الكردي الذي أحب وتتبع تطوره خلال سنوات. فكانت واحدة من أولى مقالاته ملاحظات عامة حول الكرد نشرها في مجلة عامة غير متخصصة. ثم دخل في مواضيع تربطهم بإيران والمسيحية. هكذا أثار انتباه عدد لا بأس به من المهتمين بهذه المواضيع وبهذه المنطقة من الشرق.

درس نيكيتين تاريخ الكرد ليفهم طبيعة مجتمعهم الحاضر. وقد وجد في البنيان العشائري القائم، الذي كان نتيجة للظروف الطبيعية لمنطقة كردستان، العائق الأكبر أمام التطور الطبيعي لهذا الشعب من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. فاعتماد كل منطقة على نفسها أدى إلى سيطرة الفردية – العشائرية على ذهنية الفرد الكردي ومن ثم إلى نفوره من كل ما هو خارج عن العشيرة. وقد بقي النظام الإقطاعي القائم على العشيرة زمنا طويلا في كردستان. وإذا كان هذا النظام عنصرا سلبيا في كيان المجتمع الكردي، فإنه، حسب نيكيتين، يعد واحدا من العوامل التي ساعدت في الحفاظ والأبقاء على خصوصية هوية كردستان والكرد.

وأعطى باسيلي نيكيتين اهتماما كبيرا للدين. كان يرى بأن واحدا من المفاتيح المهمة لفهم الشعب الكردي يكمن في دراسة شيوخ الطرق الصوفية (القادرية والنقشبندية). فانتشار خلفاء هؤلاء بين

العشائر المختلفة، مع إبقاء مركزية سلطة الشيخ، أدى إلى تكوين قوة جديدة داخل المجتمع الكردي يتجاوز نفوذه حدود العشيرة المتعارف عليها. إلا أنه يخلص إلى إشكالية فهم الإسلام بشكل واضح عند الكرد. أي انه يصعب وضعهم في قالب إسلامي واضح المعالم والحدود. لاشك أن تحفظات نيكيتين حول هذه المسألة أثبتت في وقتنا الحاضر، وأمواج الإسلام تعصف بالمنطقة دون أن تجد لها صدى في كردستان، مصداقيتها.

تعد دراسة نيكيتين لتطور الحركة القومية الكردية من أوائل الدراسات العلمية وأكثرها منهجية حول هذا الموضوع. يقسّم هذه الحركة إلى ثلاث مراحل: (١) مرحلة الانتفاضات والحركات العفوية التي كانت تفتقد مشروعا شاملا. تبدأ من تمرد عبدالرحمن باشا بابان عام ١٨٠٦ وتنتهي، مرورا بحركات باشا كوره ١٨٣٢ وحركة بدرخان بك (١٨٤٣-١٨٤٦)، بحركة الشيخ عبيدالله النهري ١٨٨٠. (ب) مرحلة محاولات تنظيم الحركة القومية، حيث تبدأ بعد سنوات من فشل حركة ١٨٨٠ وتنتهي بنهاية الحرب الكونية الأولى. وفيها تم تأسيس أول تنظيم سياسي كردي ١٩٠٨ وولادة الصحافة الكردية التي أخذت طريقها إلى الانتشار والتأثر في توجهات المثقف الكردي. (ج) مرحلة الاهتمام على النطاق العالمي بالمطامح القومية الكردية: معاهدة سيفر ١٩٢٠، ومعاهدة لوزان ١٩٢٣، ومسألة الموصل، وتأسيس جمعية خويبون، والحركات الكردية الأخرى حتى الحرب العالمية الثانية.

ولكي نلقي نظرة عامة على كتابات نيكيتين حول الكرد، نقدم في الصفحات التالية عرضا مقتضبا لدراساته التي خصصها للكرد حسب تسلسلها التاريخي.

ولكن نلقي نظرة عامة على كتابات نيكيتين حول الكرد، نقدم في الصفحات التالية عرضا مقتضبا لدراساته خصصها التي للكرد حسب تسلسلها التاريخي:

(1) Quelques opservatons sur les, den merure de france paris 1921. clv pp. 662-674

(ملاحظات حول الكرد) ملاحظات عامة حول تاريخ الكرد وطبيعة مجتمعهم والقوى التي تسيطر على تطورهم حتى اوئل القرن العشرين

(2) Les valis d' Ardelan, dans Revue dn Monde Musulman, Paris, 1921. vol. XLIX, pp. 77-104.

(ولاة أردلان) ترجمة مختصرة لكتاب علي اكبر خان صادق الملك: حديقة ناصرية. بعد تقديم عدد من الملاحظات حول الجغرافيا الادارية لإمارة أردلان وتعداد نفوس العشائر التي تعيش ضمن سلطتها ومقدار ما تدفع كل عشيرة من الضرائب – يخصص نيكيتين صفحات كثيرة لسرد حوادث تاريخية من الحياة السياسية والعسكرية لولاة هذه الامارة.

(3) Les kurdes et le Christiansme, dans revue de L, Histoire des religions Paris, 1922, t, LXXXV, n 3, pp. 147-156

(الكرد والمسيحية) اعتماداً على العديد من الكنائس القديمة في كردستان وعلى العادات والرموز المسيحية التي يمكن ملاحظتها ما بين الكرد في يومنا هذا، وبالاستناد على معطيات تاريخية، يتوصل الباحث في هذه الدراسة الى ان نسبة المسيحيين الى الكرد كانت خلال القرون العشرة الاولى من التاريخ المسيحي في صالح المسيحيين.

(4) La vie domestiqe kurde, dans Revue d, Ethnographie et des traditions populaires, Paris 1922. pp.334-344

(الحياة العائلية الكردية) مقالة وصفية لعدد من نواحي الحياة اليومية الكردية: وصف المنزل، الملابس. الاسلحة، المرعى. ثم تعالج مجموعة من العادات المنتشرة بين الشعب الكردي، كمراسيم الولادة، والزواج والفن، وأخيراً تتطرق الى مكانة الخرافات.

(5) Les temes religieux dans les taxtes Kurdes de la collection de B. Nikitine, Actes du Congres intemational de l, histoire de la religion, Paris, 1923, t, ll pp. 413-431

المواضيع الدينية في النصوص الكردية لمجموعة ب. نيكيتين. عبر دروس اللغة الكردية التي تلقاها من الملا سعيد، خلال عامي ١٩١٦-١٩١٧، جمع نيكيتين. عددا من النصوص الكردية التي جعلها مادة لدراسة قدمها في المؤتمر العالمي لتاريخ الاديان المنعقد في باريس عام ١٩٢٣. تشمل هذه الدراسة: (١) بحثا عن الكرد ضمن الاطار الاسلامي (شيوخ كردستان تركيا، آراء الملا سعيد حول الجهاد، الجهاء الديني)، تاريخ الاطار الاسلامي (الموقف الكردي من التشيع، الموقف الكردي من اليهود).

(6) the Tale of Suto and Tato, Bulletin of Scholl of Orient and African Studias, London, 1923 vol, pp. 69-88

(قصة سوتو وتاتو). نقل نيكيتين هذه الحكاية المنتشرة بين الناطقين باللهجة الكرمانجية الى اللغة الانكليزية بمساعدة الميجر سون، وقد نشرها بالحروف العربية مع ملاحظاته الخاصة ورأيه حول واقعيتها

(7) Vue d, ensemble sur le Theatre de le ia Grande Guere dans le Nord- Ouest de la Perse L' Asie francaise Paris, 1942, vol. XXIV., pp. 340-345

(نظرة عامة على مسرح الحرب الكبرى في شمال - غرب بلاد فارس) رغم ان المقال يعالج وضع الافشار والكلدانيين والكرد، الا ان القسم الاكبر منه يرسم لنا علاقة الكرد بالكلدانيين والافشار خلال

الحرب العالمية الاولى ويقدم إحصائيات مهمة حول العشائر الكردية: موقعهم الجغرافي وفروع العشائر واسماء رؤسائها وعدد الافراد في كل عشيرة.

(8) La feodalite Kurde, Revue du Monde Musulman, t, LX Paris, 1925, pp. 1-26

(الاقطاع الكردي) تشمل هذه الدراسة ملاحظات قيمة حول تاريخ الاقطاع الكردي وخصائصها المنطقية وعلاقاتها مع الدولة التركية والدولة الفارسية، وتقارن، من هذه الزاوية، بين الاقطاعيات الكردية الامبراطوريتين العثمانية والفارسية، ملخصا نظرته في التطور المتناسق للنظام الاقطاعي الكردي في الأولى، وافتقاره لهذا التناسق في الثانية.

(9) Les Kurdes racontes par eux- memes,L, Asie francaise, Paris, 1925, n0 231,pp 147-157

(الكرد، كما يتحدثون عن انفسهم) كتب باسيلي نيكيتين هذه المقالة بعد فشل حركة الشيخ سعيد التي كتبت عنها الصحف الفرنسية من منطق موضوعي او عدائي. يهدف الكاتب الى تقديم صورة قريبة الى الواقع عن الكرد الى الرأي العام الفرنسي اعتمادا على بعض المقابلات التي اجراها مع الكرد خلال إقامته في كردستان، وكذلك عرضا تاريخيا واجتماعيا وسياسيا لوضع الشيوخ البارزانيين والنهريين مع بعض الملاحظات المختصرة حول مولانا خالد.

(10) Kurdish stories from my collection, Bulletin of Scholl of Orient and African Studies' London 1926, vol., PP 120-138

(حكايات كردية من مجموعتي) ثلاث حكايات كردية أخذها نيكيتين من الملا سعيد، قاضي كردستان. بعد مقدمة قصيرة، نشر نيكيتين هذه الحكايات بالحروف العربية مع ترجمتها الانكليزية وبعض الهوامش اللغوية. والحكايات هي: مام مزكو الشاب والشيخ، الشيخ سليمان، قصة أمير حكاري وبشرى طير الربيع.

(11) OU en est la Kurdologie?, Annali del Real Real lnstitute Orientale de Napoli,1932,pp. 1-5

(اين وصلت الدراسات الكردية)، عرض موجز للدراسات الكردية بدءاً من الاب موريزيز كارزوني (اب الدراسات الكردية) وصاحب كتاب قواعد اللغة الكردية، روما، ١٧٨٧، وحتى سنوات الحرب العالمية الاولى.

(12) Une appologie Kurde de du Sunnisme, Rocznik Orjentalistyczny, t., Vlll, LWON, pologne, 1933, pp. 116-160

(دفاع كردي عن التسنن). تعتمد المقالة على قصة كردية بعنوان «حكاية درويش كردي من السليمانية مع المجتهد الكربلائي». اضافة الى النص الكردي وترجمته الفرنسية وبعض الملاحظات اللغوية حول النص، يدرس باسيل نيكيتين في مقدمته بعمق هذه القصة محاولا بيان الصعوبات التي تجابه الباحث عند تكوين فكرة حول التسنن عند الكرد.

(13) Notes sur le Kurde, Oriental Studies, Oxford, 1934, pp. 305-334

(ملاحظات حول اللغة الكردية) تعالج هذه الدراسة اللغوية ثلاثة مبتحث لغوية: اللغة الكردية لغة إيرانية؟ النظرية الجابيتية، مكونات لغوية للكردية – مفردات واقسام الكلام والنطق، انطلاقا من معطيات لغوية ويقول نيكيتين، كما توصل الى ذلك غيره من العلماء على ضوء مظاهر عرقية وتاريخية وفولكلورية بايرانية اللغة الكردية. ثم يقدم عرضا تحليليا للنظرية اللغوية الجابيتية، وأخيرا يبحث في بعض نواحي اللغة الكردية.

(14) Le systeme routier du Kurdistan, Geographie, Paris, 1935, pp. 360-385

(نظام طرق كردستان) قبل ان يتطرق نيكيتين الى ما دوّنه خلال رحلة قام بها من دوَه الى اورامار (١١–١٤ ايلول ١٩١٧)، يقدم وصفا لنظام الطرق ووسائله في كردستان، معتمدا على مشاهداته العينية، ويلحق بذلك عددا من الصور والخرائط التوضيحية.

(15) Essai de clssification de folkiore a l, aide d, un inventiontion socieiel - economiqe, XVlE Conbgres international d, Anthropologie, Bruxelles, 1935, pp. 1-12

(محاولة لتصنيف الفولكور اعتماداً على جرد اجتماعي – اقتصادي). هذه الدراسة التي قدمها نيكيتين الى المؤتمر العالمي للانثروبولوجيا المنعقد في بروكسل عام ١٩٣٥، تعتمد على قصة (مم و زين)، يحاول فيها تقديم صورة عن جوانب اجتماعية واقتصادية من حياة الشعب الكردي. من ذلك المسكن الملبس والسلاح والعيش (الزراعة، الصيد، الرعي) والمهن... الخ.

(16) Probleme Kurde Politique etrangere Paris, 1946, n0 3, pp. 251-262

(المشكلة الكردية) نشر نيكيتين هذه المقالة بعد الحرب العالمية الثانية حينما اخذ الحديث عن الكرد يتردد هنا وهناك. ولانه كان يتوجه الى الرأي العام، يقدم اولا ملاحظات عامة حول الكرد ثم يبسط عرضا تاريخيا للمسألة مدافعا فيه عنهم، ليختم مقالته بهذه الكلمات التي تعبر اعمق تعبير عن تفكيره حول هذه القضية «القضية الكردية عادلة ولا يمكن تأجيل حلها الى امد غير محدد »

La poesie lyrique, L’ Ethnographie Paris, 1947-1950. pp. 39-53

(الشعرالغنائي الكردي) دراسة لبعض نصوص الشعر الغنائي الكردي مع عرض لبعض مميزاته،

تعقبه ترجمة عدد من اشعار كامران بدرخان. يجد القارئ ترجمة هذه الدراسة في مجلة الدراسات الكردية، العدد الثاني باريس ١٩٨٥، ٤١–٥٣.

وأخيرا ظهر كتابه ليتوّج أعماله حول الشعب الكردي: الكرد، دراسة سوسيولوجيه وتاريخية، باريس، ١٩٥٦.

أنهى نيكيتين العمل في هذا الكتاب عام ١٩٤٣. غير انه لم يصل إلى يد القارئ إلا بعد ثلاثة عشر عاما. ذلك لأن مؤلفا حول الكرد لم يكن مما يثير اهتمام الرأي العام الفرنسي. فكان تبني أي دار نشر لهذا العمل مخاطرة تجارية. لذا كان عليه أن ينتظر طوال هذه السنوات كيما يستطيع الحصول على مساعدة مالية من قبل المركز الوطني للأبحاث العلمية بدعم من عدد من العلماء الفرنسيين من ضمنهم لويس ماسينيون، والذي كتب للكتاب مقدمة قصيرة.

يعد هذا الكتاب اشمل ما ألف حتى الآن حول الكرد. فرغم مرور أكثر من خمسين عاما على كتابته إلا أن كل عملية فكرية لفهم الحاضر الكردي في أغلب أبعاده تبقى، وحتى سنوات عديدة، كما يبدو ذلك من آفاق الدراسات الكردية الحاضرة، في حاجة إلى دراسة أفكار وأعمال نيكيتين التي جمع زبدتها في هذا الكتاب. فإضافة إلى النظر الثاقب للباحث في التاريخ والمجتمع والثقافة، كان لدى نيكيتين معرفة بالواقع المعاشي، اكتسبها من العيش بين أبناء هذا الشعب خلال سنوات حرجة وصعبة من تاريخه السياسي وتطوره الروحي. لذا نرى في كتابه حوادث مختلفة كان بنفسه شاهدا لها أو واحدا ممن كان لهم فيها دور كبير.

إن نظرة عجلى على كتاب الكرد تقودنا إلى التفكير في مسألة ماهية أبعاد من تعارف على تسميته بالمستكرد Kurdologue. لو كان المراد هنا هو المتخصص في دراسة الأكراد بنواحي حياتهم المختلفة، ولا نعرف فهماً آخر لذلك؛ أليس هذا اسما سمّاه نيكيتين؟ هذه المسألة تشجعنا على عرض عناوين فصول الكتاب بغية إعطاء فكرة أوضح.

يتكوّن الكتاب من اثني عشر فصلا (٣١٠ صفحات من الحجم المتوسط). والفصول هي: الكرد، أصلهم وخصائصهم اللغوية والعرقية – كردستان، مصطلح متفق عليه، قيمته الحقيقية – طريقة الحياة، الاهتمامات، العادات، الفردية الكردية، طبيعتها – مراسيم عائلية – المسكن، الملبس، المأكل، دور المرأة، مراسيم عائلية – العشيرة الكردية، البنية الاجتماعية والاقتصادية – العشيرة في الزمان والمكان – الكرد والدولة، الحياة الروحية الكردية، الدين – الحياة الروحية للكرد، الأدب.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العديد من اللغات منها التركية والروسية والإنكليزية والفارسية.

إضافة إلى هذه الدراسات والمقالات، كتب نيكيتين مجموعة مهمّة من المقالات المختصرة عن شخصيات ومناطق كردية نشرها في الموسوعة الإسلامية، منها :برادوست، البدرخانيين، شمدينان،

اورامار، رواندوز. ونجد له عروضا لكتب صدرت حول الكرد في مجلة L’Afrique et L’ Asie بشكل خاص. وله صفحات عديدة يتحدث فيها حول الكرد ضمن دراسات تخص الشعوب المجاورة وخاصة في الاتحاد السوفياتي وإيران.

لباسيلي نيكيتين فضل كبير علينا. لعل هذه الكلمات المتواضعة تعبر عن الاعتراف بهذا الفضل.

الفصل الأول

الكرد: أصلهم وخصائصهم اللّغوية والإنسانية

أولاً – نسبية المقاييس:

غالبا ما يطرح البحث عن أصول أي شعب كان مشكلة مستعصية، وبخاصة في مثل حالة الشعب الكردي، لأن الشواهد التاريخية تعوزها الديمومة، ويتعذر التثبت منها في بعض الحالات. فلكي نثبت هوية شعب ما، نلجأ في الغالب إلى مقاييس معيّنة حاسمة، كإسمه وعرقه ولغته، دون أن نقتنع بقيمتها العلمية المطلقة. فالأسم وحده لا يسمح في الواقع بأي استنتاج مرضٍ بالنسبة للشعب الذي يتسمّى به. ويكفي أن نذكر، على سبيل المثال، الشعب الفرنسي. فإذا اعتمدنا على أسمه، دون أن نعرف جيداً أصوله التاريخية، أمكننا افتراض أنه يعود إلى أصل جرماني. وكذلك بالنسبة إلى الروس الذين يشتق اسم شعبهم من كلمة اسكندنافية، إذ يمكن أن تضلّلنا هذه التسمية إن لم نكن نعرف أنها تشير إلى فئة مسيطرة من زعماء الفاريغ الذين أخذ منهم هذا الشعب السلافي اسمه. وكذا الأمر بالنسبة للشعب البلغاري اليوم الذي لا يجمعه جامع بأجداده الكورانيين الذين كانوا يعيشون حياة بدائية على ضفاف نهر الفولكا. وكذلك بالنسبة للشعب الروماني الحالي الذي اتخذ اسمه من بعض الفرق الرومانية في بلاده، التي لم تكن تتألف من لاتينيين فقط. وما يصح بشأن التسمية، يصح أيضا بشأن العرق واللغة، إذ يستحيل علينا أن نحدد بدقة عناصرهما الخالصة التي يمكن الاستناد إليها كنقاط لوجه المقارنة بين شعوب تواجدت في مطلع التاريخ. إن مهمة عالم اللغة تبدو مع ذلك اكثر سهولة، إذ غالبا ما يتمكن من إرجاع الكلمة إلى أصلها الأولي بالإشارة إليه. وبالعكس، فإن عالم الأنثروبولوجيا لا يستطيع أن يستخلص نموذجا ابتدائياً لإنسان انحدرت منه ذريته. بالإضافة إلى أن عالم الآثار لم يقدم حتى هذه الفترة المتأخرة المساعدة التي كان ينتظرها منه عالم الأنثروبولوجيا(١).

وكما لاحظ البروفيسور (كونتينو) خلال مناظرة علمية عقدت في جمعية علم خصوصيات الشعوب

(١) "أني لأشعر بالحنق كلما فكرت بعلماء الآثار الذين استخرجوا من التربة القديمة لآسيا الغربية كل هذه الآثار الرائعة، لأنهم كانوا غير مكترثين بالبقايا الإنسانية التي عثروا عليها. إن استنكارنا لا يعبرها فيه الكفاية عن هذا الهدم العلمي الذي ارتكبه رجال أطلقوا على أنفسهم اسم (رجال العلم). عن كتاب (الأجناس والتاريخ) لمؤلفه إبيتار، ص ٣٨٨. «عندما نفكر في ضخامة التنقيبات التي أجريت في الأراضي الإيرانية، في الثروة التاريخية وتلك التي تتعلق بالسلالات واللغات التي اكتشفت في حينه، نشعر بالأسى لأن آثار الانثروبولوجيا التي توضح هذا الماضي السحيق لم يهتم بها في حينه علماء الآثار الذين قاموا بتلك التنقيبات المهمة» المصدر نفسه، ص ٤٦٦.

في باريس عام ١٩٣٧، انه يوجد اختلاف بهذا الشأن نتيجة الفحوصات التي أجريت على بعض الجماجم السومرية. وتمثل لنا المنحوتات بوجه خاص نماذج من رؤوس صغيرة، غير أن علم مقاييس الجماجم لا يتفق مع هذه النماذج. إن قلة اهتمام علماء الآثار ببقايا العظام المكتشفة في هذه التنقيبات تفسر جزئيا التلف السريع للبقايا الإنسانية لملامستها الهواء ولصعوبة حفظها في حالة تسمح بإجراء الفحوصات الأثرية عليها. إن الطريقة التي تؤمن حفظ هذه الآثار، والجماجم منها خاصة، طريقة حديثة نسبيا. ونأمل تعاون علماء الآثار مع علماء طبائع الإنسان في هذا المجال في المستقبل، بالرغم من صعوبة توافق هذين العلمين مع علم اللغة. وخلاصة القول، إن جميع هذه المقاييس نسبية[٢]. فأحياناً يصعب تحديد النسب الصحيح لشعب ما من أعماله وحركاته الأولية كما ترويها الروايات، بقدر ما يصعب تبيان عالم الطفولة لإنسان ما من خلال ملامحه رجلاً ناضجا. من المؤكد أننا قد نجد بعض التشابه، ولكن يجب أن لا ننسى في هذه الحالة، رغم حسن النية البيّن، أن توجيهنا نابع من قناعتنا الذاتية ويخص شخصا واحدا فقط، في حين أن سلسلة الحلقات التي تربط بين شعب كما نعرفه اليوم وبين ما يدّعى له من صورة بدائية، نادراً ما تكون كافية لأن توحي بالشبه بينهما.

ثانياً – كاردوخيو زينفون:

عندما نبحث عن أصول الكرد، يجب أن نأخذ التحفظات المذكورة آنفا بنظر الاعتبار. لقد نقل لنا التاريخ عددا من الأسماء تشبه في لفظها إلى حد ما الإسم الحالي لهذا الشعب. وهذا ما يسمح للاختصاصيين ببناء فرضياتهم أو نقضها.

وهكذا قيل أن الكاردوخيين الذين تكلّم عنهم (زينفون) في روايته عن الانسحاب المشهور (بين ٤٠٠ – ٤٠١ ق.م) لعشرة آلاف يوناني عبر كردستان الحالية إلى البحر الأسود، لم يكونوا غير الأسلاف الحقيقيين للكرد. إنهم كانوا جبليين أشداء مثلهم، يقطنون البلاد نفسها ولهم اسم شبيه باسمهم. ماذا يراد أكثر من ذلك لدعم هذه الفرضية؟

بيد أن البحوث الحالية لا توصلنا إلى هذه النتيجة المؤكدة نفسها. فبعض المستشرقين من أمثال (نولدكه) الذي يعد حجة في مجال اختصاصه، و (هارتمان) و (ويسباخ) أثبتوا لغويا أن لفظتيْ (كورد) و (كاردو) غير متماثلتين[٣]. ويذهب هذان العالمان إلى القول أن السرتيين الذين ذكرهم

(٢) هذا ما يقوله البروفيسور (كونيتنو)، على سبيل المثال، بخصوص الفينيقيين، انه ما دامت لغتهم ساميّة، فإنهم ساميّون، دون أن يأخذوا بنظر الاعتبار العناصر الأخرى. ونتساءل: هل يصح أن نرفض البحث بصورة مطلقة عن العنصر واللغة لتمييز شعب ما؟ لذلك أظل مقتنعا بأنه كلما رجعنا أكثر فأكثر إلى الماضي، غدا الوصول إلى توفيق بين الفرضيتين ممكنا، فمن المحتمل مثلا أن نجد في فجر التاريخ أن العنصر السامي كان يتكلم السامية. الحضارة السامية، ص ٣٥٧.

(٣) تتماثل لفظة (كاردو) مع ألفاظ سامية وبخاصة في الأكدية – الآشورية، فهي تعني (قومي، بطل) وتعني (كاردوا) (يصبح بطلا).

المؤرخون الكلاسيك و (سترابون) خاصة، الذين كانوا يقطنون بلاد ميديا الصغرى وبلاد برسيس – هم أسلاف الكرد. أما العلامة (ليهمان – هوبت) وهو الاختصاصي الضليع في شؤون هذه المنطقة من آسيا، فقد ذهب في معرض إشارته إلى الكاردوخيين إلى أنهم ليسوا أسلاف الكرد، وإنما هم أسلاف الجورجيين الكارتوفيليان[٤]. لقد هاجر هؤلاء الذين كانوا يسمون أيضا الأيبير في وقت متأخر نسبيا إلى بلادهم الحالية واختلطوا تدريجيا مع الموسك الذين كانوا موجودين فيها[٥]. هذه الهجرة، كما تذكرها الروايات الجورجية، أتت من الجنوب في وقت لم يكن (هيرودوت) يعرف شيئا عن وجود الايبيريان في القفقاس، ويفترض أنها تمت بين القرنين الأول والخامس ق.م. كأبعد تاريخ. ويستطرد (ليهمان) في القول: أن الأراضي الواقعة بين ملتقى دجلة الشرقي (بوهتان سو) وفرعها الغربي، كانت مسكونة في نهاية القرن الخامس من قبل الكاردوخيين، وأن هذا الشعب، كما أثبت ذلك كل من (نولدكه) و (هارتمان)، لا يرتبط بشيء بالكرد الذين أتوا منذ قرون من بلاد فارس واستقروا في هذه المنطقة. إن لفظة (كاردوخي) مشتقة من صيغة الجمع الأرمينية (كاردو–خ) وهي تتفق مع التسمية الوطنية (ART-K UELI كارتفلى KART-VEL) لسكان جورجي – ايبيرى. إن الألفاظ (كوردوين) و (كورداوى).. الخ تعني هذه المنطقة الجنوبية، وتضم الأجناس نفسها. وهذه الأراضي التي كانت تعود فيما مضى للكاردوخيين، مليئة بالمساكن الكثيرة التي تشبه إلى حد كبير مساكن الجورجيين الصلدة المنحوتة في الصخور، ولكنها تختلف اختلافا أساسيا عن المساكن المقامة بين الصخور التي تعود إلى ما قبل وصول الأرمن، من قبل الكالديين (أو الخالديين). وبعد فتح آسيا من قبل الاسكندر الأكبر، استوطن المقدونيون الذين هم من أصل مقدوني، جزءا من أراضي كاردوخ بضمنها نصيبين. وقد أثرت الاضطرابات التي نشأت بفعل هذا الاستيطان على الكاردوخيين بصورة مباشرة وغير مباشرة، ودفعت بعضا منهم إلى الهجرة صوب الشمال في وقت يتوافق زمنياً مع هجرة الايبيران، بينما بقي البعض الآخر منهم في موطنهم القديم في كوردين الإغريق والرومان. وإذا صح هذا الأمر، فإننا نجد في أناباس (زينفون) الذي يصف فيه رحلته، ذات الأيام السبعة عبر بلاد الكاردوخ، اقدم وصف لطريقة القتال والعادات والأعراف لدى أهم عنصر أسهم في تكوين الشعب الجورجي، كما يستنتج ذلك (ليهمان – هوبت). فالكاردوخيون الكاريتول كانوا إذن الجيران الجنوبيين للخالديين، بينما كان العنصر الآخر الذي أسهم بصورة رئيسية في تكوين الشعب الجورجي وهم الموسك، أقرب إلى الكالديين.

إن هذا التقارب بين الكاردوخيين والكارتفيليان الذي يقول به (ليهمان – هوبت)، كان معروفا من

(٤) حول أصل الجورجيين، في GEORGICA، الفقرتان ٤ و٥، ١٩٣٧.

(٥) (ف.ى.آلان): تاريخ الشعب الجورجي، ص ١٦ و١٧، (كورزون)، الجزء الأول، ص ٥٥٠، المشار إليه من قبل (بارتولد في إيران "باللغة الروسية")، ص ١٣٠

قبل لدى العالم الروسي (مار) الذي أبدى وجهة النظر نفسها في دراسته المعنونة: (مرة أخرى عن كلمة (Chalabi جلبي) "التي تعني بالمفهوم الثقافي للشعب الكردي في تاريخ آسيا القديمة والمنشورة في مدونات القسم الشرقي في الجمعية الأثرية الإمبراطورية سنة ١٩١٢، المجلد ٢٠، ص ١٣٩ "باللغة الروسية". فإذا كان (ليهمان – هوبت) يستبعد الكرد عن نطاق نظريته الأصلية للكاردوخيين (الكرد) والكارت (الجورجيين)، رغم أن أيا من المجموعتين تختلف عن الأخرى في الوقت الراهن بتاريخ يمتد إلى ألفي "سنة"، يضيف قائلاً: "فإذا ما تحققت هذه النظرية مع الأيام، فإن بعض الكلمات من اللغة الكردية الحالية تعد من بقايا اللغة الكردية القديمة التي هي من مجموعة (كارت) من فروع الجافيتيك. فعلى سبيل المثال إن الكلمة الكردية (باف) أو (باب) أي الأب، مرادفة لكلمة (ماما) الكرتية، و (ديدا) أو (دييا) الكردية تقابل (ديدا) أو (دييا) الكرتية. وهكذا ينبغي التراجع عن بعض التفسيرات المقبولة لحد الآن. وبطبيعة الحال فان حل المشكلة يعتمد، من جهة، على الأسلوب الصحيح الذي يتبع في دراسة الظاهرة الثقافية والاتنوكرافية بكاملها في حياة الشعب الكردي، ولدى شعوب الجافيتيك من جهة أخرى، وليس في مقارنة رمزية للمصطلحات الجغرافية التي يمكن أن تتعرض لتوافق لفظي طارئ. أما بالنسبة للمصطلحات المتعلقة بالسلالات، فلا يمكننا الإقرار بتفسيراتهم الحالية هذه والقول أن الكلمات (كارد) و (كورد) هي من الأصل نفسه مع (كورت)، أو أنها مجرد توافق لفظي طارئ بينهما. وعلى كل حال فإننا لا نرى في الوقت الحالي أساساً لتقريب (الكاردوخيين- الكالديين) الجنوبيين من (الكاليب) الذين كانوا يقطنون شمالي غربي أرمينيا، الذين أطلق عليهم ابتداء من فترة محددة اسم (الكالت) أو (الكالتيس).

سوف نتكلم عن نظرية مار، فيما بعد[٦]، ونعود ثانية إلى الكاردوخيين الذين يبدو أن صلاتهم بالكرد لا يمكن إنكارها كليا، كما بيّنا آنفا، فنشير إلى أن الكاردوخيين حسب ما ذهب إليه زينفون لم يكونوا يعترفون بسلطة الملك أرتاكسيركيس ولا بسلطة الأرمن. وفي مطلع القرن الأول الميلادي، استولى الملك (تيكران) الثاني على بلاد الكوردويين وقتل ملكها (زار بيونيس). وفي سنة ١١٥ (ميلادية) كان ملك الكوردويين يسمى "مانياروس"، ولم يكن إقليم كوردويين خاضعا للأرمن إلا بصورة اسمية.

أما من وجهة النظر الخاصة بأصول اللغات، فسواء كان إجراء التقارب بين الكاردوخيين والكرد ممكنا أم لا، فهناك نقطة جديرة بالإشارة إليها وهي أن عنصر الكارد كان مستقرا على النطاق الإقليمي، وكان الآراميون يطلقون على هذه المنطقة من (كوردويين) اسم (بيت كاردو)، وعلى مدينة جزيرة ابن عمر الحالية (كازارتاد كاردو). أما الأرمن فكانوا يطلقون عليها اسم (كوردوخ)، والعرب

(٦) إن مدرسة (جافيتيك) للبروفيسور (مار) بشأن اللغات القفقاسية والتي أطلقت عليها اسمها لتثبت أنها لا تنتمي لأحد من المجموعات اللغوية المألوفة، أدخلت ضمنها تدريجيا اللغة الكالدية (الأرمنية قبل الآرية) والسومرية والعيلامية وحتى لغة البامير والباسك والبربر... الخ.

(باكاردا)، وكان لإقليم كاردو لدى الأرمن والعرب حيّز محدود، فلا نعرف بالضبط الحدود الصحيحة لإقليم كورديون. ان مدن الإقاليم الثلاثة (ساريزا) و(ساتالكا) و(بيناكا) التي هي مدينة (فينك) الحالية، كانت تقع على ضفاف دجلة، ولكن الملفت للنظر هو أن جبال كورديون كانت تمتد، حسب (سترابون)، بين ديار بكر وموش.

تتوقف النظريات التي تفسر أصل الكرد بمساعدة الأسماء التي خلّفها لنا التاريخ في هذه المناطق، عند كاردوخيي زينفون، إذ لا يمكن أن نتجاهل أنه بين القرنين الرابع والسادس ق.م. كانت الهضاب التي غدت فيما بعد أرمينيا، تشكل مملكة كالد أو خالد (الخالديين) أو الأورارتو [التسمية الأولى وطنية والثانية آشورية وتوافق آرارات الواردة في التوراة]. هؤلاء الخالديون، الذين ينبغي عدم الخلط بينهم وبين الكلدانيين الساميين، صاروا في فترة ما أقوياء حتى أنهم اخذوا يثيرون المتاعب الجدية للآشوريين، ودخلوا معهم في معارك عديدة انتصروا عليهم في العديد منها. ولئن كانت أصول علم الفونيتيك (علم الأصوات) تسمح بإجراء تقارب بين اسمي الكالد والكاردو مع احتمال وجود بعض الصلات بينهما وبين الكارتفيل الجورجيين، فإن هذه الادعاءات لا تفيدنا في تفسير أصول الكرد، وخصوصا إننا ما نزال لا نعرف الشيء الكثير عن الكالديين، وأن هناك جدلاً حول خصائصهم العرقية. والشيء الذي نعرفه عنهم هو أن لغتهم لم تكن لغة هندو-أوروبية، وتتشابه بعض الشيء مع مجموعة اللغات الكارتية، في حين أن الكرد يتكلمون، في الوقت الحاضر على الأقل، بلغة تنتمي إلى المجموعة الإيرانية، أي لغة هندو-أوروبية.

يبقينا البروفيسور (سميزك) في بحثه المعنون (الحيتيون) المنشور في المجلة البولونية Rocznik Orient، الجزء الثاني، العام ١٩٢٥، بالاستناد على أدلة صوتية واضحة جدا، ضمن احتمالات هذه الأسماء المقارنة. ويشير في استنتاجه الذي يلفت الانتباه حقا، إلى أمثلة منها إسم (السليت) المعروف لدينا في ثلاث صور مختلفة.

سبق أن أشرنا إلى أنه يجب عدم الخلط بين الكالديين الذين سبقوا الأرمن في استيطانهم لتلك المنطقة والكلدانيين الذين كانوا يستوطنون بابل. إن هذا التمييز الضروري لم يكن معروفاً أو معترفاً به من قبل عدد من المستشرقين قبل فترة ليست طويلة [نشير من بينهم إلى بحث البروفيسور ليهمان-هوبت المشار إليه آنفا الذي يشرح فيه الموضوع بصورة كاملة]، فقد كانت النظرية السائدة حول أصل الكرد سابقا، تستند على نسابتهم مع الكلدانيين.

وكان كتّاب من العهد القديم قد أشاروا إلى أن الكلدان سكنوا منطقة كردستان الشرقية، وأيد ذلك أيضا (ماركوبولو) الذي تكلم كذلك عن الكرد المسيحيين في جبال الموصل. وهكذا فان الرأي الذي كان سائدا في أوروبا القرون الوسطى هو أن الكرد ينحدرون من عقلاء الكلدان الوارد ذكرهم في العهد الجديد. وكبار اللغويين والمؤرخين في نهاية القرن الثامن عشر من أمثال ميكائيليس وشلوتزر كانوا، مع تأكيدهم على ضرورة جمع الوثائق الصحيحة عن اللغة والثقافة الكرديتين، يؤيدون النظرية

السائدة عن انحدار الكرد من الكلدان. ومع ذلك ظهرت في الحقبة الزمنية نفسها دراسات عملية للمبعوثين الدومينيكان من أمثال (كارزوني) الذي ألّف كتابا في قواعد اللغة الكردية في العام ١٨٨٧ و (سولديني) وغيرهما. وقد ذهب هؤلاء، مستندين على إلمامهم التام بعدّة لهجات كردية، إلى وجود ارتباط مباشر بين اللغتين الكردية والفارسية الحديثة. بل وذهب (كارزوني) إلى حد التفكير بإمكانية طبع الترجمة الكردية لعدّة كتب كاثوليكية في مطابع تستخدم حروفا لاتينية في اللغة الفارسية أنشئت لهذا الغرض في القرن السابع عشر من قبل (مجمع الرهبانية للدعاية). ان ما ذهب إليه هؤلاء من أن الكرد انسباء الفرس وأن لغتهم مجرد لهجة من اللهجات الإيرانية، وضع مسألة الأصل الإيراني للشعب الكردي على بساط البحث.

ان التطور السريع للدراسات التي أجريت حول كردستان وأصل الكرد ولغتهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والمعلومات التي جمعت حول تاريخهم ولهجات لغتهم وانتشار قبائلهم ومعتقداتهم السابقة لدخولهم الإسلام.. الخ، بالإضافة إلى التطور الهائل الذي حدث في العلوم نتيجة الاكتشافات والتنقيبات والعثور على الكتابات المدوّنة في الآثار الباقية من الحضارات الشرقية القديمة، والتي عثر على جزء منها في أرض كردستان نفسها، كل هذه أسهمت في وجوب إعادة النظر في الآراء والنظريات السائدة عن كردستان القديمة. وهكذا وضعت من جديد مسألة أصل الكرد ولغتهم أمام العلماء، فأسهم كبار علماء اللغة في ذلك الوقت من أمثال (روديجير) و(بوت) بمساعدة علم اللغات المقارن في دحض الفكرة القائلة باحتمال انحدار اللغة الكردية من الكلدانية، وأظهروا علاقتها باللغة الفارسية الحديثة واللغة الزندية التي هي لغة مشتركة بينهما. وبذلك ثبت علميا، وبصورة نهائية، النظرية القائلة بانتماء اللغة الكردية إلى مجموعة اللغة الإيرانية.

لقد برهن العالم الروسي (كونيك)، استنادا الى وثائق تاريخية، على وجود صلة وثيقة بين الشعوب القديمة المتمدنة التي كانت تقطن آسيا القديمة والشعب الكردي، واستند على وجود هذه الصلة في بيان العلاقة بين اللغة الكردية واللغة الإيرانية، واستنتاج الأصل الكردي، وليس الكلداني البابلي، للكرد ولجميع الشعوب التي استوطنت آسيا الصغرى[٧].

ان أفكار "كونيك" هذه، التي وضّحها أكثر، كل من البروفيسور (رينان) والبروفيسور (درون) كانت الأساس لأفكار (ليرخ) الواردة في مخطوطته[٨]. فهذا الأخير يرى في الكرد "أحفاد كالديي إيران" وأنهم "محاربون أشداء، وقد كانوا منذ الألف الثالث قبل الميلاد جبليين يمتلكون روحاً قتالية، مما سهل لهم النزول إلى سهول دجلة والفرات لإخضاع العشائر السامية الضعيفة في بلاد بابل.".

(٧) محاولة لتوضيح تأثير الإيرانيين على العنصر السامي بمساعدة التاريخ المقارن "باللغة الفرنسية" في "المجموعة الآشورية"، الجزء الأول، ص ٥٤٠.

(٨) التاريخ العام والنظام المقارن لمجموعة اللغات السامية "باللغة الفرنسية"، الجزء الأول، ص ٢٣ – ٢٧، ٥٤ – ٦٢، ٤٣٣ وما بعدها

ثالثاً – نظرية مينورسكي حول اصل الكرد:

حاول العلماء اكتشاف أصل الكرد بالاستناد إلى التجانس الموجود بين أسماء شعوب كاردوخ وكارتفيل والخالديين والكالديين واسم الكرد، فضلا عن توافق موطنهم مع موقع كردستان الحالي (أو ليس ذلك مجرد تجانس في الألفاظ؟) لقد رأينا ان الرأي السائد الآن بصدد اللغة الكردية هو اعتبارها من مجموعة اللغات الإيرانية. سوف نعود إلى مناقشة وجهة النظر هذه لدى عرضنا لرأي مدرسة (جافيتيك)، ولكننا نود قبل ذلك أن نلخص نظرية زميلنا العلاّمة مينورسكي التي عرضها بإسهاب في المؤتمر العالمي العشرين للاستشراق، المنعقد في بروكسل عام ١٩٣٨ حول أصول الكرد، لأنها تقدم لنا أحدث تحليل يعرض في غاية الدقة والوضوح.

يعرض مينورسكي مسبقا بعض الملاحظات ويقول: لو أردنا البحث عن أسلاف الكرد المحليين لوجب أن يكونوا البوكهتانيين (البختانيين) لا الكاردوخ، ويمكن اقتفاء أثر هذا الاسم منذ عصر المؤرخ الإغريقي (هيرودوت)، كذلك في بوهتان المصب الشرقي لدجلة الموجود في (بيت – كاردو) الذي كان يسمّى سابقا بوكهتان. لقد شكل الأرمن والبوكهتانيون السبط الثالث عشر في الإمبراطورية الفارسية. ويلاحظ أيضا أن الأساطير الكردية الواردة في كتاب (شرفنامه) تعطي بوهتان (أي بوختان القديم) دوراً مهما، إذ أن الكرد ينحدرون جميعا، حسب هذه الأساطير من أخوين هما (بوخت) و (باجان).

وبعد أن يستذكر مينورسكي الأسماء العديدة التي يرتبط اسم الكرد بها، يقول: "يجب القول أولاً أن من المجازفة إثبات أصول الشعوب عن طريق اشتقاق الأسماء، فمن الواجب الاستناد على وقائع تاريخية وجغرافية " وهذا هو الصحة بعينها. ويذكر بعد ذلك أنه منذ زمن سحيق، تذكر المصادر العربية اسم الكرد مرادفا لـ"الرحل"[٩]، ولتجنب هذا الخلط، فقد حاول أن يضع جانبا هؤلاء الرحل، ولم يهتم إلا بالكرد الذين يتكلمون العربية.

"بالنسبة للكرد المشتتين بين أرجاء واسعة، المختلفين من وجهة النظر الجسمانية اختلافا كبيرا، تعد طريقة حياتهم ولغتهم من العناصر الأساسية التي يمكن الاستناد عليها لبيان خصائصهم الوطنية".

وبالرغم من أن اللغة الكردية تتشعب منها لهجات عديدة، إلا أن لها خصائص ثابتة وقوية،

(٩) كم كان بودي أن يورد المؤلف عناوين بعض أقدم المصادر العربية التي يقول أنها تورد اسم "الكرد" مرادفا لـ "الرحل"، ففي اللغة الكردية وبين الكرد أنفسهم كان إطلاق اسم الكرد على العشائر الرحل أمراً متعارفاً عليه حتى العقود الأخيرة من هذا القرن حيث انتفت أو كاد الرحلات السنوية المستمرة بين المراعي الصيفية والشتوية بحثا عن الكلأ الجيد، فقد كان إسم "الكرد" يطلق على الرحل بينما تطلق كلمة "كوران" عنواناً للمقيمين في القرى، المشتغلين بالزراعة – المترجم.

وتنتمي، دون أدنى شك، لمجموعة اللغات الإيرانية الشمالية – الغربية. ان الاختلافات التي نلاحظها بين اللغتين الكردية والفارسية، نجدها في جميع اللهجات. ويخلص مينورسكي إلى القول، بحق، أنه توجد في أساس اللغة الكردية لغة مجموعات مهمة، تكونت خصائصها العامة قبل نزوح الكرد وانتشارهم فيما بين الجبال.

وبالرغم من أننا لا نعرف من اللغة الميدية الأصلية إلا بعض الكلمات الخاصة، يستحيل علينا تصور تكون لهجات الشمال الغربي للمناطق الإيرانية دون مشاركة العنصر الميدي. وحسب هذه الاعتبارات التاريخية والجغرافية، يجب القول ان انتشار الكرد تم فقط في بلاد ميديا الصغرى التي تضم حاليا بلاد (أترو باتين) أو أذربيجان.

وبعد توصله إلى هذا الاستنتاج، يبدأ مينورسكي بدراسة التاريخ البشري للمنطقة الواقعة جنوبي بحيرة أورروميه التي لعبت دور السبب الأساسي في الصراع بين الآشوريين وشعب (أورارتو)، حيث أشير إلى اسم الإيرانيين في الغرب لأول مرة في القرن التاسع قبل الميلاد.

كانت توجد في جنوبي البحيرة إمارات ليست هندو–أوروبية في (آلابريا) و (كاركار) و (اليبى) الخ. ثم ورد لأول مرة في سنة ٤٤ ق.م. اسم بلاد (بارسويا) في جنوبها الغربي، بوصف سكانها بمثابة أسلاف أولين للفرس. أما الميديون (ماتالي) و (مادا) الذين جاء ذكرهم منذ سنة ٨٣٦ ق.م.، فكانوا في الجنوب الشرقي لبلاد بارسويا (حيث هاجر الفرس صوب الجنوب) فصار الميديون شيئا فشيا سادة المنطقة. وجاء بعدئذ شعب غامض يحمل اسم (ماناي) أو (المانيين) عرف حوالي الفترة ٨٣٠ – ٨٥٦ ق.م كجيران مباشرين لبارسويا من جهة الشرق[١٠]، ولا يعرف شئ عن الانتماء العرقي للمانيين. وعلى كل حال فقد اختلط بصورة كلية بالميديين. ولم يتأخر هؤلاء المانيون في التطبع بطابع إيراني خاصة بعد أن تحولوا إلى (سيتيين). ونحن نعلم أنه ما من شك في إيرانية السيتيين.

تغيرت لوحة الأجناس المختلفة هذه في القرن الثامن ق.م، ففي البداية أثر الغزو السومري تأثيرا كبيرا على مملكة (وان) ومن أعقبها من السيتيين الذين كانوا قد استقروا جزئيا بين المانيين. ثم غدا السيتيون سادة آسيا لمدة ثمانية وعشرين عاما (الفترة ما بين ٦١٥ – ٦٤٢ ق.م)، إلا أن الميديين ثبتوا في النهاية وذبح ملكهم (سياكريس) رؤساء السيتيين ليواجه وحده الآشوريين الذين دب فيهم الضعف. وهكذا سقطت نينوى عام ٦١٢ ق.م. وقد ورد من بين خلفاء الميديين، بالإضافة إلى ملك بابل، اسم (أومان–ماندا) أو (الماندين الأشقياء) كما تعود الآشوريون أن يطلقوا هذه التسمية على السومريين والسيتيين. إن هذا التشابه بين أسماء (مادا) و (ماندا) و (ماناي) يثير الشكوك. وقد ترك سقوط الآشوريين فراغا كان ينبغي ملؤه من قبل الغرب. وهذا ما يفسر انتشار القبائل الإيرانية

(١٠) مار: الأعمال المختارة، الجزء الخامس، صـ ١٧–١٨.

باتجاه الغرب. وحارب سياكريس[١١] الليديين، وبحماية جيشه تقدمت القبائل الميدية وأحرزت النصر المبين.

وبعد مذبحة رؤساء السيتيين، استعاد المانيون نفوذهم. ومنذ بداية القرن السابع ق.م غزوا الآشوريين مرات عديدة. وسطع اسمهم فيما بعد في القرن الخامس ق.م في ملحمة (هيرودوت) الذي اكتشف الطريق الملكي المهم للفرس، ثم في ملحمة (ما فيتافن) كما سماها سترابون في أوائل القرن الأول الميلادي ببحيرة أورروميه، بينما سماها بطليموس (مارجيانويى) مضيفا أن هذه المنطقة "تمتد على طول الحدود مع الآشوريين". وهكذا نرى أن حدود بلاد "مارجيانويى" القديمة (MATIENOIMANNAI) كانت مجاورة لحدود الآشوريين.وبعد سقوط الآشوريين كان المانيون المستفيدين الأولين.

بعد الإشارة إلى أسماء هذه الأجناس الواردة في المصادر الآشورية، يضيف إليها مينورسكي اسم (مارد) الوارد لدى المؤلفين الإغريقيين. وهكذا يبدو أن العشرة آلاف إغريقي بعد أن عبروا ممر (كينترتيس)، هوجموا من قبل فصيل من الماردين والأرمينيين. ويذكر (سترابون) الماردين إلى جانب (كيرتيويى) من بين رحل أتروباتين[١٢]. ويعتبر بطليموس أيضا الماردين جيرانا لكيرتيويى. ويذهب (مينورسكي) إلى القول أن هؤلاء كانوا ضمن القبائل المادية وأن صلة قربى تجمعهم معا، وربما كان هؤلاء الماردون هم الذين واصلوا التقاليد ألمانية. "ان صيغ مارجيانويى تفترض احتمال تغير في الاسم مع حرف (ر) بدلا من (ن). ان هذه الطبيعة الخاصة بحرف (ن) واردة في كتابة الآشوريين، كلمة (مانايى) بحرف (ن) المدغم في مثله".

أما بالنسبة لـ (كيرتيويى) فليست لدينا معلومات مباشرة حول أصل هؤلاء. ان اسمهم الذي يبدو في صيغته وارداً من (كورت) ليس له اشتقاق يعتمد عليه. وكان الاعتقاد سائدا بوجود مراجع آشورية حول أصل هذا الشعب تحت تسمية (كورتيى) ولكن هذا الاسم يقرأ كما يأتي: (كورهي ي KUR-HI-I). وعلى كل حال فقد ذكر اسم السيرتيين لأول مرة في (بوليب) في سنة ٢٢٠ ق.م كرماة في قطعات الحاكم الميدي الذي حارب الملك (انتيوش الثالث). وبعد مرور ثلاثين عاما نرى

(١١) ملك الميديين – المترجم.

(١٢) ريناش، الكيريتون، المجلة الاركيو لوجية، الجزء الثالث عشر، ص ١١٥ – ١١٩. اشتهر الكرد وقتذاك بكونهم عسكريين متضلعين، ومن الغريب أن نلاحظ أن سكان (كوردويى) كانوا معروفين بكونهم معماريين ومهندسين عسكريين وقد حارب الملك الأرمني تيكران الكرد وساق حوالي خمسة وثلاثين ألف كرديا مع جيشه "لفتح الطرق وبناء الجسور وتنظيف الأنهار وقطع أشجار الغابات ولتنفيذ أعمال عسكرية وأخرى". وقد لاحظ بخصوص الآثار الكلاسيكية أن (بلوتارك) في حديثه عن (لوكولوس) يشير إلى أن هذا الأخير صادف في (أنتيوش) زعيماً كرديا.

هؤلاء في (تيت ليف) مرتزقة في خدمة الملك أنتيوش نفسه في آسيا الصغرى. وفي عام ١٧١ ق.م في خدمة الملك (بيركام). لقد نزحوا بسهولة في القرن الثاني قبل الميلاد، ولا يتصور أن أسلافهم الذين سنحت لهم الفرصة لملء فراغ وجد بفعل سقوط الآشوريين، لم يملأوه(١٣).

فإذا أضفنا إلى ذلك، كما فعل مينورسكي بعدئذ، دراسة بعض المصطلحات الجغرافية، وبخاصة مصطلح (KWTAIA) الذي يقع، على ما يقول (بطليموس)، شرقي (كوردويين - بيت - كاردو) الذي يحتمل أن يكون مصطلح (كويتايى) الذي نجد مرادفا له بين المصطلحات الجغرافية الأرمينية (لورجيك، كوردوك، كورديك) التي تضم كلها عنصر (كورت)، أمكننا استنتاج أن (كيرتيوس - كورد) تابعوا في مسيرة انتشارهم الخط الذي يبدأ من ضفاف بحيرة أورروميه، صوب منطقة (بوهتان) التي تشكلت فيها منذ القرن الرابع قبل الميلاد الإمارة الكردية المعروفة (ماهكيرت).

ثم يفترض مينورسكي نظريته البارعة في تفسير تسمية كلمة (كرمانجي) التي يطلقها الكرد على أنفسهم، ثم بحذفه الزائد من الحروف على أصل (ج DJ) يرى في التركيب الباقي للعنصر الأول في كلمة (كر) د، بينما يرجع المتبقي منه إلى الميديين أو المانيين (مانتيانويى).

فإذا كان الماريون أحفاداً للماندين، فإن هذه النظرية تجد لها سندا في سلسلة الإنسان التي يعطيها المسعودي للكرد في القرن العاشر بقوله: انهم أبناء كرد بن مارد بن ساسا بن حرب بن هوازن.

"وحسب الوقائع التاريخية والجغرافية، يحتمل كثيراً ان تكون الأمة الكردية قد تكونت من مزيج من قبيلتين متجانستين هما الماردوني والكيرتيوني اللتان كانتا تتحدثان بلهجات ميدية جد متقاربة. ومن جهة أخرى، فان من المؤكد أنه لدى توجههما صوب الغرب انضمت إليهما عناصر من سلالات أخرى"

يبدو أن للحجج التي استند عليها مينورسكي في شرح نظريته قيمة علمية قاطعة. وما دام لم يتوفر لدينا في اللغة والتاريخ الكرديين ما يدل على كون الكرد السكان الأصليين لديارهم، فان نظرية هجرتهم من جهة الشرق إلى موطنهم الحالي تبقى على قوتها.

(١٣) نذكر، على سبيل المثال للحركة السريعة للقبائل الإيرانية، انتقال (أسكرتيا) (التي تضم أسماؤها عبارة "كارت" التي يمكن استخدامها لتفسير تعابير أخرى ورد ذكرها من قبل). وقد أخبرني زميلي (هيرزفيلد) في اكسفورد عام ١٩٢٨ أنه يمكن اعتبار هؤلاء بمثابة أسلاف للشعب الكردي. وكان يعتقد أن اسم مدينة (سعرت) على نهر دجلة مشتق من اسمهم. ان (اساكارتيا) او (الساكارتيين) عاشوا في البداية في (سيستان) ونجدهم في العهد الآشوري في بلاد ميديا تحت اسم (زيكير) أو (زاكروتي). (ستريك، المجلد الرابع عشر، ص ١٤٦). وفي عهد (داريوس) كانت عاصمتهم تقع في سهل (أربيلا) حيث شنق داريوس ملكهم (تشينترانتاكهام). علماً أن الصورة المنحوتة على صخر (بيستون) تمثل نموذجا كرديا (كنك، في نقوش بيستون) "باللغة الإنكليزية".

رابعاً - نظرية الجافيتيك ولوك حول أصالة الشعب الكردي:

ان النظرية التي تقول بأصالة الشعب الكردي، ينادي بها العلامة (مار) ومدرسته المعروفة بالجافيتيك. لقد سبق أن أشرنا إلى وجهة نظر (مار) التي أعلنها عام ١٩١١ حول احتمال وحدة أصل الكاردوخ (الكرد) مع الكارت الجورجيين وانفصالهم فيما بعد، في عصر غريق في القدم. وعلى العكس من مينورسكي الذي يحاول تبرير نظريته بالاستناد على حجج تاريخية وعرقية، كما رأينا، يبدأ (مار) في تفسير نظريته استنادا على حجة معاكسة وهي انفصام أو انحلال العلاقات التاريخية بين الكرد و (الكارتفيل)، مما استتبع ظهور فراغ وجب ملؤه. صحيح أن أهمية هذا الفراغ تقل كثيرا إذا ما قبلنا المعادلة الثلاثية: كاردوخ - كارتفيل - كورد، رغم أننا في عملنا هذا نستند فقط على التفسير الاشتقاقي المجرّد من حجج تستند على وقائع تاريخية وجغرافية ثابتة، فضلا عن عدم أخذنا بنظر الاعتبار للاعتراضات القائمة على التقارب بين اسميْ الكاردوخ والكرد. ان النظرية الجافيتيكية المجردة في الظاهر من أسس تاريخية وجغرافية، تصطدم مع مشكلة أخرى. أننا لا نستطيع في الحقيقة إنكار أن اللغة الكردية التي نعرفها اليوم تنتمي إلى المجموعة الإيرانية. لذلك يضطر (مار) إلى الافتراض "بأن اللغة الكردية خضعت في الواقع لتغيير عميق وتحولت كلياً من الجافيتيكية إلى الآرية"، ويستشهد على ذلك برواية تقليدية مفادها أن الكرد أنفسهم تركوا لغتهم القديمة واستساغوا لغة قريبة من الفارسية. ومع ذلك فان هذه الرواية التي أشار إليها المسعودي تقول انهم كانوا يتكلمون اللغة العربية في السابق.

يقبل (مار)، إذا، الفكرة القائلة أن الكرد غيروا لغتهم (والمسألة في حد ذاتها ممكنة التصور وقد حدثت أمثالها فعلا لدى شعوب أخرى كالبلغار مثلاً)(١٤)، إلا أنه يؤكد في الوقت نفسه "أن عادات الكرد صعبة التبدل كصخور بلادهم" ويشير في هذا المجال إلى اليزدية وهي واحدة من المعتقدات الكردية التي تمد جذورها في المندائية والصابئية وفي غيرها من التيارات المخالفة لأصول الدين التي ظهرت في أرمينيا، أو المذاهب الدينية المتبعة في ما وراء أرمينيا وحتى جورجيا. والشيء المهم بالنسبة لـ(مار) هو مجموع الملامح التي تسهم في تكوين خصائص وطنية أو بالأحرى اجتماعية.

ونظراً إلى أن (مار) ومدرسته يتمسّكان في نظريتهما اللغوية بدراسة الوقائع الاجتماعية التي تعطيها دوراً مهما في تكوين اللغة وتطورها، فانهما يرفضان فكرة المجموعات اللغوية. ان الشيء المهم لديهما هو درجة التحضّر داخل المجموعات الإنسانية منذ بداية تطور تفكيرها المناسب والمطلوب في سلوك الإنسان تجاه الطبيعة وتجاه قبيلته بواسطة ظروف عمله ووجوده. وهكذا فانهما [أي (مار)

(١٤) وكالشعوب التي تحولت إلى التحدث بالعربية في الشرق الأدنى وشمالي أفريقيا بعد الفتح الإسلامي - المترجم.

ومدرسته] يوليان مسألة نزوح الشعوب التي تتكلم لغة متكاملة قابلة لأن تؤثر مباشرة وبصورة كبيرة على لغات الشعوب المغلوبة على أمرها أهمية أقل في عاقبة الأمر. والعامل الأصلي في حدوث التغيرات في مجال الكلام وغيره هو في الغالب تشابك الألسنة فيما بينها عن قرب، في المجاميع اللغوية التي تدخل في علاقات تعاون مشتركة.

ولم يخصص مار غير دراسة واحدة (أشرنا إليها فيما سبق) للمسألة الكردية، ولكنه يتكلم فيما بعد بصورة عرضية وخلال دراساته الأخرى، عن الطريقة التي تستخلص منها وجهة نظر كاملة(١٥).

فالكرد، حسب مارآه (مار)، سكان اصليون للمناطق الجبلية في آسيا الصغرى، ولغتهم الكردية تكونت في تلك البقعة لا في منطقة أخرى من الكرة الأرضية. وبتأثير التغيرات التي حدثت في الميادين الاجتماعية والاقتصادية للناطقين بهذه اللغة، وبتأثير لا ينكر للحضارات التي تتابعت في المنطقة والتي أسهم فيها الكرد أنفسهم أيضا بنشاط، خضعت اللغة الكردية لتغيرات أساسية وتحولت من أصلها الجافيتي القريب من اللغتين الجورجية والكالدية إلى حالتها الهندو-أوروبية التي تربط اللغة الكردية باللغات الإيرانية ولغات أرمينيا، وحتى بالعناصر الهندو-أوروبية للغات الحيثيين. وأخيرا، ومنذ العهد الإقطاعي في كردستان، تأثرت اللغة الكردية باللغة التركية. وبذلك يمكننا القول ان اللغة الكردية لم تبرز خصائصها الهندو-أوروبية إلاّ بعد مراحل من التطور، وهي ليست تلك التي كانت في بداية الأمر، ولا تلك التي اكتملت لدى نشوئها. أما أسباب هذه التغيرات فهي "ليست الهجرات الخارجية الجماعية والتحولات الثورية للشرائح الاجتماعية التي نتجت عن المصادر الجديدة للحياة المادية، وعن التكنيك الجديد نوعيا والنظام الاجتماعي الجديد في نوعيته. وفي النتيجة ظهرت عملية جديدة ومعها أيديولوجية جديدة في تركيبة اللغة وبطبيعة الحال في تكنيكها الجديد".

أما فيما يتعلق بتسمية الكرد، فيعتقد (مار) أن تواردها مع الكلمة الأرمينية (كورت) ليس عرضيا. ولدى المقارنة بين (كوران) (التي تعني في اللغة الكردية طبقة خاصة من هذا الشعب) و (كور-تجاى) التي تعني في الأرمينية (قبيلة أرمينية) و (كور- دو) الجورجي وقربها من (كار-د) (الجورجي والكاردوخي)، يشهد هذا التلاقي بين المصطلحات الاجتماعية والعرقية أن هذه الشعوب والقبائل، وفي الحقيقة جميع التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية السابقة للبناء الحضاري، عرفت نظام الأمومة السائد بوجه عام وبوجه خاص النظام الذي يجعل من ولادة الأطفال وتغذيتهم عملا منظّماً من قبل منظمة مختصة ويلعب فيها الذكور دورا شعائريا. ان الكلمة الكردية (هيفو -/ هيفي Hevi) التي تعني المرأة، تعدّ، على ما يرى مار، من بقايا هذا التنظيم، ومعناها الأصلي هو (السرية) أو (امرأة الحرم) وقد تحولت من مفهومها الجماعي إلى مفهوم فردي.

(١٥) يراجع بصورة خاصة دراسة تلميذه (فيلجيفسكي) التي تحمل عنوان "مار والكوردولوجيا"، ١٩٣٦، التي سنعود إليها فيما بعد.

وبمقارنة مصطلح (كور -ت) بالمصطلح الأرميني المشابه له (مارد - بيت) الذي يعني أيضا (المذكّر)، يصل مار إلى النتيجة التالية: "ان مصطلح (مارد - بيت) مصطلح قبلي صرف، وهو كالمصطلح الأرميني (كورت) إسم لإحدى القبائل، وكان في السابق اسماً لتشكيلة اجتماعية - اقتصادية هي الكورتيون أو الكرد. وهذا هو الشأن بالنسبة لـ(مارد - بيت) التي تعني رئيس (بيت) قبيلة الماردين، وهي مشابهة في تركيبها لإسم (الميدين) نظرا إلى أن تسمية الميدين (مادا) مع ألف طويلة تعود إلى نموذج (مارد). وهكذا فإن إسم (الميدين) في الأرمينية هو بالضبط (مار) الذي يشكل العنصر الأول للاسم القبلي للميديين المكون من (DAM - D \ MAD - DA).

ومن العجيب أن نرى الباحثين مينورسكي ومار يتوصلان إلى نتائج متشابهة تقريبا رغم تحركهما من اتجاهات مختلفة، فعلى الأقل يرى كلا الباحثين دور الميديين في التكوين العرقي للكرد أمراً مؤكداً. وفضلا عن هذا، فقد لاحظ مار في دراساته للكالديين وللغة المجموعة الثالثة (غير الإيرانية) وجود صلات جد وثيقة بين الكرد والميديين في الوثائق الهخا منشية، وقد بدا له الكرد في جوانب كثيرة بمثابة أحفاد مباشرين للميدين. ومع ذلك فان المصطلح العرقي (كرمانجي) الذي يعد أساسا لفرضية (مينورسكي) القيمة، لم يفسر بطريقة مماثلة من قبل (مار)، فهو يقربه تارة من التسمية الأرمينية (هارمين - كارمينتس - كارمينج - كرمانجي)، ويعتقد تارة أخرى بوجوده في السومرية(١٦).

وخلاصة القول أننا إزاء أصل الكرد، أمام نظريتين: إحداهما تعتبرهم من أصول إيرانية (هندو-أوروبية) وقد ارتحلوا في القرن السابع ق.م من منطقة بحيرة (أورروميه) صوب منطقة (بوهتان)، والأخرى تقول انهم شعب أصيل مع وجود صلة قرابة بينهم وبين الشعوب الآسيوية القديمة الأخرى كالكالديين والجورجيين والأرمن، وكانوا يتكلمون سابقا بلغتهم، ثم استبدلوا بها لغة إيرانية خاصة.

وهكذا نلاحظ أن النظريتين لا تختلفان فيما بينهما في جميع الأمور. فمن جهة يقبل مينورسكي احتمال تأثير الآسيويين الاصلاء على الكرد عندما يذكر في استنتاجه المشار إليه أعلاه: "أن وجود حرفي (ر) وحرفي (ل) قاسم مشترك بين الأرمينية والكردية يعود ذلك إلى لغة أصلية قديمة(١٧). ويبقى أن نذكر الزيادة من الحروف في نهاية الكلمة في صيغة الجمع في (تي TE) (كيلشيت KELESET) أي قطّاع الطرق، الموجودة في لهجة الكرد الشمالية. أي في المناطق التي يفترض

(١٦) المؤلفات المختارة (باللغة الروسية). الجزء الخامس، ص ٢٠٦.

(١٧) فيما يتعلق بهذه اللغة الأصلية القديمة، من المفيد أن نورد مثالاً لا يلتقي فيه المورفولوجى الكردي مع مثيله في اللغة الجورجية التي كانت منتشرة في الألف الثاني ق.م. في الجزء الشمالي الغربي من بلاد ما بين النهرين (ميزو بوتاميا) وفي سوريا (راجع محادثة البروفيسور فردريك ليبزغ، أعمال المؤتمر، ص ١٣٠، كذلك دراستنا في الأتنوكرافيا [باللغة الجورجية].

وجود آثار للحديث باللغة المارديّة فيها. أما في المناطق الجنوبية فيجهلون التكلم بهذه اللغة القديمة، لذلك كان من المشوق أن نجد أثراً لإقامة جزء من السيتيين بين المانيين أجداد المارديين".

وبالرغم من أن مار تمسك بوجهة نظره التي تقول بأصالة الكرد، إلا أن ذلك لم يمنعه من القول بانتسابهم للماديين والاعتراف بأن السلالة الجافيتية في هذا الشعب أقل وضوحا من الجانب الهندو-أوروبي الذي يبدو فيهم على أحسن ما يكون.

ومن الناحية التاريخية لا تتناقض النظريتان بالضرورة. فقد ظهر الكرد على جوانب الروافد اليسرى لنهر دجلة حوالي القرن السادس ق.م. وبذلك فقد تجاوروا خلال حقبة طويلة من الزمن مع الكاردوخيين الذين استشهد باسمهم زينفون حوالي السنة ٤٠٠-٤٠١ ق.م. والذي لم يتركوا هذه المنطقة، على ما يرى (ليهمان-هوبت) وينزحوا صوب جورجيا - ايبرى إلا بعد اسكندر الأكبر وربما بعد ذلك الزمن أيضا بمدة طويلة، أي خلال القرن الأول قبل الميلاد. وتمثل تلك الفترة حقبة زمنية مهمة استطاع خلالها الكيروتوئيون والكاردوخيون، وهما قبيلتان جبليتان متجاورتان، ايجاد صلات فيما بينهم والتأثير على الجهات المحيطة بهم. ونورد في هذا السياق مثالا قريباً منّا ذلك مثال النسطوريين الجبليين الذين اندمجوا في جوانب كثيرة من حياتهم مع جيرانهم الكرد بعد أن تركوا سهول الموصل وتوجهوا إلى الجبال في أعالي الزاب الكبير. ان الأغاني والأقاصيص الكردية منتشرة بين أولئك النساطرة انتشارها بين الكرد أنفسهم. وتوجد حاليا عشائر كردية كانت تدين فيما مضى بالمسيحية، وكانت المترادفات اللغوية تستعار فيما بين الكرد والنساطرة بصورة متقابلة، وهناك كتابات كثيرة مدوّنة بلغة الطرفين.

وبدلا من أن نأسف بسبب الاختلاف في الرأي حول أصل الكرد، نتمنّى على العكس أن يستمر كل في نطاق اختصاصه في جمع وتحليل الوقائع التاريخية والاجتماعية واللغوية، إذ يكون من المفيد أن نتعمق في دراسة مسألة نظام سيادة الأمهات. فنحن نعرف بوجه عام أن شعوب آسيا الصغرى يمكن تصنيفها بوجود هذا النظام فيها وممارسة شرب الخمر بإفراط في الأعياد الخاصة بآلهتها في حياة الناس الدينية وفي طريقة العد بالأضعاف. وفي تحليله لمصطلح (ذكر) يبين لنا (مار) الطريقة المتبعة في نظام سيادة الأم. ونعتقد أنه ما تزال توجد في بعض القبائل الكردية على الأقل عادة تسمية الأطفال بإسم عائلة الأم، وهي عادة تعد من البقايا التي تستوجب الدراسة من قريب. وكذلك الأمر بالنسبة إلى العد بالأضعاف الذي ما تزال آثاره باقية بين الكرد، كما أثبت ذلك (فيلجيفسكي) في دراسته المنشورة بهذا الصدد[١٨]، وكذلك الأمر أيضا بالنسبة إلى عادة شرب الخمر بإفراط في

(١٨) في رواية لمجموعته أجد إشارة إلى أن بعض القبائل الكردية لا تعد إلا إلى (٢٠)، أما (٣٠) فيعبر عنه بـ ٢٠+١٠ وبالنسبة إلى (٤٠) فيعبر عنه بـ ٢٠ مرتين، وبالنسبة إلى (١٠٠) فيعبر عنه بـ ٢٠ خمس مرات وبالنسبة إلى (١٠٠٠) فيعبر عنه بـ ١٠٠ عشر مرات. يلاحظ أن العدّ بالأضعاف لايزال سارياً في اللغة الفرنسية، فيعبّر عن (٧٠) بـ ٦٠+١٠، وبـ (٨٠) بأربع عشرونات وهكذا - المترجم.

المناسبات الدينية التي ما تزال تنسب (وان كانت بصورة أخف كثيرا) إلى الكرد اليزديين والكرد القزلباش في منطقة درسيم. ان هذه الآثار جديرة بأن تستلفت انتباهنا. فإذا ما توصلنا إلى التأكد منها وجمع وثائق ثابتة بشأنها، فان النظرية التي تقول بأصالة الكرد تخرج قوية بمفردها، وهي تعتبر كذلك أيضا إذا ما استطاعت أن تثبت لنا في مجال الفونيتيك أو المورفولوجي أو في مفردات اللغة الكردية أشياء غير إيرانية في هذه اللغة. ومن جانبنا فقد حاولنا بكل تواضع أن نعبر عن آرائنا في هذا الخصوص ونخاطر بعرض الاشتقاقات التي تقدم لنا مقارنات كردية[١٩].

خامساً - رأي الكرد أنفسهم حول أصلهم:

نحن نعرف الآن النقاط الرئيسية في الجدل الدائر بين المستشرقين في القول بالأصل الهندو-أوروبي للكرد أو خلاف ذلك. أما ما يقوله الكرد أنفسهم بهذا الشأن فيتبين لنا عند مطالعتنا لكتاب (شرفنامه) وهو أهم مؤلف تاريخي كردي، وقد ألّفه باللغة الفارسية الأمير شرف خان البدليسي عام ١٥٩٦. ويشير هذا المؤلف في مقدمة كتابه إلى أسطورة الطاغية (زوهاك - ضحاك) الذي حل محل جمشيد في التربّع على عرش البيشداديين ليكون الملك الخامس في هذه السلالة الملكية الإيرانية. كان (زوهاك) هذا مصابا بمرض غريب، فقد نبتت على كلتا كتفيه زائدة غريبة في شكل أفعى ولم يستطع أمهر أطباء عصره شفاءه، فنصحه إبليس باستعمال مرهم مركّب من مخ الشباب ليخفف من حدة آلامه. وهكذا كان الطاغية يأمر بذبح شابين كل يوم لهذا الغرض، ولكن الجلاد الذي عهد إليه بتنفيذ العملية يوميا كان رجلا رؤوفا[٢٠]، ولذلك فبدلاً من ذبح الشابين معا كان يكتفي بذبح أحدهما ويترك الثاني، مستعيضا عن مخه بمخ خروف، فكان الشباب الناجون من الذبح يهربون سراً إلى مناطق جبلية نائية لا يمكن الوصول إليها بسهولة. و بمرور الزمن تزايد عدد الفارين وتكاثروا حتى كوّنوا شعباً هم أسلاف الشعب الكردي الذين امتهنوا الزراعة وتربية المواشي. وقد اشتهر الكرد ببسالتهم وشجاعتهم حتى أن بعض المؤلفين العرب القدماء يتحدثون عنهم على أنهم طائفة من الجن!

وفي هذا الخصوص كتب السيد فرج اللّه زكي، الناشر الكردي للطبعة الجديدة من شرفنامه الصادرة في القاهرة قبل عشر سنوات تقريبا (حاليا ستون عاما تقريبا - المترجم) في تعليقه على هذه المسألة

(١٩) ملاحظات حول الكرد، هل يعتبر الكرد إيرانيين؟ في (دراسات شرقية)، ١٩٣٦.

(٢٠) في رواية أخرى كان هناك شخصان مكلفان بهذا العمل الرهيب يدعيان (كرمائيل) و (أرمائيل). فهل هذا مجرد مصادفة لأن الاسم الأول يجعلنا نفكر في تركيب كلمة (كرمانجي)؟ ان عنصرى (كور KUR) و (ما MA) يلتقيان فيه معا. ويقرب من هذه الحالة الكردية ما أشار إليه (يوزانياس) من أنه في ضحايا (ديوجنيس) في (بييوتي) في الرواية الإغريقية القديمة/المترجم - كان يعوّض عن الضحية بالأطفال، بالجداء. وفي الرموز الدينية لآسيا القديمة نرى أحيانا نظائر لهذه الأسطورة، حيث يحل محل الضحية الإنسانية خروف أو جدي.

التي أشار إليها الكتاب المسلمون القدامى، قائلا: "ليس للكرد أي صلة بالجن، وإذا رجعنا إلى التاريخ تبين لنا أن هناك كثير من أبناء الكرد بين الملوك العادلين، نذكر منهم على سبيل المثال السلطان صلاح الدين، كما أن هناك بينهم علماء أجلاء ورجال تقوى يصعب تعدادهم لطول قائمة أسمائهم. أما بالنسبة لأصل الكرد، فنتحدث عنهم في مقدمة الكتاب ". وفي المقدمة الخاصة بالناشرين، يأخذ كردي آخر هو السيد محمد علي عوني مهمة إثبات الأصل الهندو-أوروبي لشعبه على عاتقه مستندا على أدلة وبراهين لغوية. ويتولى في الموضوع نفسه مؤرخ كردي آخر المهمة عينها في كتابه (خونجه ى به هار) أي (براعم الربيع) المكرّس للتاريخ الكردي(هو السيد حسين حزني موكرياني - المترجم).

ومن المفيد أيضا أن نشير بخصوص (زوهاك)، على ما يذكر (مورييه) في كتابه (الرحلة الثانية - ١٨١٢) أن الناس كانوا يحتفلون في ٣١ من آب من كل سنة بالعيد في دماوند بمناسبة تحرير الفرس من الطاغية، وكان هذا العيد يحمل اسم (عيد الكرد). هناك أسطورة أخرى تقول: أن الكرد هم أبناء الجواري اللائى أسرهن سليمان والشيطان جاساد. وتستند هذه الأسطورة على تشابه جذر الفعل العربي (كرد) بمعنى (اصطاد) مع كلمة (كرد). وفي مجال معرفة أصول الكلمات يربط الرأي العام الشعبي على الأغلب كلمة (كرد) بكلمة (كرد) التي تعني في اللغة الفارسية (البطل). وهناك أسطورة أرمينية تقول ان الكرد لم يظهروا إلا في القرن العاشر:

"بعد تزعزع سيطرة العرب في القرن العاشر وازدياد عدد الأمراء في مختلف البلدان، هاجر السيتيون الذين كانوا يقطنون في الجانب الآخر من بحر قزوين والذين كانوا يدعون بالأتراك، هاجروا بصورة جماعية إلى فارس وميديا وانتشروا فيهما وغيروا معتقدهم وصاروا فرسا وميديين دينا ولغة. وقد تجمع العديد منهم حول أمراء ميديين وغزوا أرمينيا في المناطق المحاذية للكاردوخ والموك واستولوا عليها ثم استقروا فيها وامتزج بهم الكثير من المسيحيين بالتدريج واعتنقوا دينهم[٢١]".

سادساً - الدلائل المستقاة من علم السلالات البشرية (الانثروبولوجيا):

إذا كان العرض الذي قدمناه في الميادين التاريخية واللغوية تشوبه أكثر من نقطة غموض ولا يسمح لنا بشرح بعض الأمور المفترضة حول اصل الشعب الكردي، فان علم السلالات البشرية (الانثروبولوجيا) لا يسعفنا بدوره بفائدة كبيرة. في الحقيقة ان محاولة إجراء تصنيف بشري بشأن الكرد لم تباشر إلا حديثا[٢٢]. ويجري بعض الباحثين تمييزا بين الكرد الذي يسكنون شرقي كردستان

(٢١) أورده (مار) في بحثه عن (الجلبي) الذي سبق أن أشرنا إليه.

(٢٢) بامسشماكوف: الشعوب القاطنة حول البحر الأسود في وضعهم الراهن، في وثائق الجمعية الاتنوكرافيه في باريس، ١٩٣٠.

والذين يقطنون غربها. ان الكرد الشرقيين الذين صوّروا من قبل (ستولز)، يتميزون بسمرة بشرتهم وشكل جمجمتهم من نوع (BRACHYCEPHALES) ويشبهون في ذلك الفرس الذين يجاورونهم، وهذا بخلاف الكرد الغربيين الذين درسهم بعناية (فون لوسشان) من وجهة النظر الأنثروبولوجية في مناطق كومازين قرب (قره قوج) في نمروداغ وفي زنجيرلى، وقد بين أن بينهم نسبة كبيرة ممن هم شقر اللون والشعر وشكل جمجمتهم من نوع (DOLICHOCEPHALES)، ثم يتوصل إلى الاستنتاج التالي: «"كان الكرد في الأصل شعبا أشقر اللون أزرق العيون ونوع جمجمتهم (DOLICHOCEPHALES)". ويفسر كون بعضهم في بعض المناطق سمر البشرة ونوع جمجمتهم (BRACHYCEPHALES) بتزاوجهم مع الترك والأرمن والفرس»[٢٣].

ويفترض (فون لوسشاك) أن الكرد الأولين (أي الشقر) نزحوا من شمالي أوروبا دون أن يدعي بالضرورة كونهم من العناصر الجرمانية. وينتج هذا الافتراض نتيجة يعتبرها أكيدة وتتلخص في "ان أحدا، باستثناء سكان شمالي أوروبا، لم يستطع التحقق حتى الآن من مكان السلالة التي هي من نوع (Dolichocephales) ولون أبنائها أشقر وعيونهم زرق". ان نسبة الشقر تتحدد، حسب ملاحظات فون لوسشان، كما يلي: في قره قوج (البحر الأسود) ٧١ فرداً من مجموع ١١٥ أي ٦٢٪ في نمرود داغ (بحيرة وان) ١٥ من أصل ٢٦ أي بنسبة ٥٨٪، في زنجيرلي ٣١٪ من مجموع ٨٠ أي بنسبة ٣٩ في المائة.

ويحتمل ان هذا الطراز من الإنسان الشمالي قد جاء إلى آسيا القديمة دون أن يتكلم اللغة الكردية، وأن هذه اللغة فرضت عليه نتيجة اختلاطه بالعنصر الإيراني بعد إخضاعه له.

وعلى كل حال، أن هذه المسألة التي وضعت حديثا في هذه الصيغة، بقيت غامضة ويعتقد باسشماكوف أنها تتحدد عندما تتوضح المسائل الأساسية التي تخصّ السومريين، وهل هم من نوع (Dolichocephale) لإحتمال كونهم الصورة الأولية للكرد[٢٤]. ويمكننا أن نضيف لملاحظات هذا العالم الأنثروبولوجي بعض اسطر من كتاب (سون) "رحلة في بلاد ما بين النهرين وكردستان" (باللغة

(٢٣) MILLINGEN في "حياة بدائية بين الكرد" - باللغة الإنكليزية، ١٨٧٠.

(٢٤) سبق أن أشرنا إلى أن (مار) كان يرى أيضا إمكانية وجود قرب بين السومريين والكرد، لذلك يمكننا افتراض أن الكرد من نوع (DOLICHO) يمثلون عناصر نازحة امتزجت مع السكان الأصليين للأناضول. ويمكن أن تكون هذه العناصر نزحت في وقت متأخر وقد أتت من أواسط القفقاس أو الجانب الآخر من البحر الأسود. ونعرف بوجه خاص أن بقايا الكوتيين في القرم بقوا حتى القرن السادس عشر. ان ورود غزاة من القرم إلى الأناضول يعتبر أمراً ثابتاً تاريخيا، ونعلم أن الكرد تحركوا في هذه الحقبة التاريخية من الشرق إلى الغرب. (موسزينيسكي) في بحثه باللغة البولونية: "بحوث عن أصل الثقافة الأولية للشعوب السلافية"، ١٩٥٢.

الإنكليزية) لتعرفه خلال رحلته على بعض العشائر الكردية ومعايشته إياها:

"إذا نظرنا إلى الكردي في تكوينه الجسدي فلا شك في أننا نجد أنفسنا أمام نموذج متكامل. ان الكرد الشماليين رجال نحاف، طوال القامة (قلما تجد البدين المفرط البدانة بين الكرد)، أنوفهم طويلة إلا أنها معقوفة قليلا في الغالب. أفواههم صغيرة ووجوههم بيضوية الشكل ومستطيلة. ويربي الرجال منهم عادة شوارب طويلة ويحلقون ذقونهم بلا استثناء. ويغلب فيهم اللون الأشقر. وإذا وضعنا طفلا كرديا من هذا النوع بين مجموعة من الأطفال الإنكليز، لم يمكننا التمييز بينه وبينهم لأن له بشرة بيضاء (شأنهم). أما في الجنوب فتكون الصورة أكثر توسعا والمشية أكثر ثقلا. وبين ٤٠ رجلا من العشائر الجنوبية اختيروا عشوائيا، كان تسعة منهم أقل من ستة أقدام طولاً رغم أن معدل الطول كان بين بعض العشائر خمسة أقدام وستة انجات. خطواتهم واسعة ولكنها بطيئة، وتحمّلهم المشاق في العمل كبير، والجبليون منهم ذوو قوام مستقيم، انهم قوم معتزون بأنفسهم، ويبدو من أشكالهم والهيبة البادية عليهم أنهم يرون في أنفسهم ميدي العصر، وأنهم قادرون على أن يغدوا من جديد، شرط اتحادهم فيما بينهم، أمة قوية مقاتلة، تستطيع بفضل خصائصها أن تقبض بيديها على زمام الأقوام الأخرى التي تعيش بينهم. لقد رأيت بينهم العديد من الرجال الذين يحملون وجوها غامضة، الشعر رائق ومسترسل، والشارب طويل نازل، والبشرة صافية. كل ذلك يقدم حجة مقنعة، إذا أمكن اعتبار الوجه معيارا، على أن الانكلو-سكسون والأكراد يرجعون إلى أصل واحد، حتى وان لم يكن هناك دليل آخر مستنبط من لغتهم[٢٥]".

ولكي نفهم إلى أي مدى تختلف التقديرات الأنثروبولوجية بالنسبة للشعب نفسه، إليكم هذا التحقيق الذي حاول أن يفهمنا أن الكرد أقرب إلى الساميين: "لقد برهن بوضوح تام الدكتور هامي الذي نشر على وجه المقارنة مظهراً جانبيا لأقدم ملك كلداني هو أورنينا وآخر لكردي من أعالي بلاد النهرين يدعي (بوروكي) [هيزي ومسلة فوتور]. وبطبيعة الحال، وبالرغم من غرابة هذا التشابه، لا يمكن اعتباره أمرا ثابتا. ان ما يجب عمله حتى نستطيع تكوين فكرة قريبة حول الخصائص الأنثروبولوجية للشعب الكردي، هو إجراء قياسات عديدة بين أبناء العشائر الكردية. هذا الدليل غير موجود حاليا. والشيء الوحيد الذي يمكن التأكد منه في الوقت الحاضر هو طابع الامتزاج المتنوع الذي يتميز به حاليا العنصر الكردي.

(٢٥) كما يلاحظ (آلآن) في بحثه المشار إليه آنفا "كان الناس من العنصر الشمالي" الذين اكتسحوا العالم القديم من الاطلنتيك إلى همالايا، استولوا على آسيا الغربية، ولكنهم لم يتمكنوا من البقاء في مناطق شاسعة، كما هو الحال في شمالي أفريقيا. فقد سيطروا على الممالك القديمة للحيثيين والأوراتيين وعلى أرمينيا فيما بعد. ولكن نماذجهم الجسمية بقيت في الوقت الحاضر بين الطبقات الكردية العليا، وذلك في القرى التركية وبين الأوسيت بالقرب من مضيق (داريال)".

"ويكفي إجراء مقارنة بين صور لأكراد عشيرة (ملي) [من الطراز العربي] وآخرين من عشيرة (كەردى) [من الطراز الموكري] وأكراد من شمدينان [من الطراز النسطوري والهكاري]، مما هي في الصفحات (٣١٢ و٣٤٣ و٣٧٢ و٤٢٥-٤٢٩) من كتاب (مارك سايكس)[٢٦] أو بين النماذج الأخرى لأكراد الجنوب التي أوردها (لينج) في الجزء الثاني من كتابه (أرمينيا) [الصورة رقم ٩ من الطراز التركماني) (والصورة رقم ١١٤) وهي نموذج بين تماما للأكراد (من طراز واضح)، حتى نتوصل إلى أن كل فكرة تحاول إيجاد قاسم مشترك بيّن النماذج الكردية إنما هي من قبيل خداع النفس[٢٧].

ان مؤلف هذا الكتاب الذي سنحت له الفرصة ليرى العديد من مختلف الأكراد خلال إقامته لمدة ثلاث سنوات في أوروميه، يميل بدوره لهذه الفكرة.

وفضلا عما سبق فان الأنثروبولوجي (بيتار) يذكر في الصفحة ٣٨٨ من كتابه المشار إليه آنفا أنه "لا يعرف علم الانثروبولوجيا إلا قليلا عن الخصائص السوماتولوجية[٢٨] لشعوب آسيا. أما بالنسبة للشعوب التي كونت التاريخ القديم، فيجب القول أننا لا نعرف عنها إلا النزر اليسير. وفي كل لحظة يطرح أمامنا السؤال الذي يستفسر عن العرق الذي ينتمي إليه الناس الذين شيدوا بابل ونينوى، ولأي مجموعة عرقية ينتمي كل من (سرجون) أو (آشور) أو (سيروس). ويمكننا القول ان الفرس الحاليين والكرد والأرمن وحتى بعض الترك هم الأحفاد المتبقون لشعوب هذه الممالك القديمة. ولكن من ذا يثبت لنا أن هؤلاء الأحفاد كانوا يسكنون على الدوام الأرض التي شيد عليها أجدادهم الأولون تلكم الحضارات التي تحير الألباب؟".

في نطاق معارفنا الحالية على الأقل، إننا ملزمون في النتيجة بقبول وجهة نظر عامة ولكنها غامضة، ومشاركة (بيتار) رأيه الذي يقول فيه: "من بون-أوكسون[٢٩] حتى الخليج الفارسي، أي من أعالي مجرى آراس ومنابع أنهار بلاد ما بين النهرين، إلى جبال بلاد فارس القديمة، ربما عاش في آسيا منذ عهد بالغ القدم، أناس رحل يتعايشون على الصيد ولهم خصائص عرقية محددة، طوال القامة من نوع BRACHYCEPHALIS، لون عيونهم وشعرهم غامق، أنوفهم طويلة وكبيرة في الغالب، ومستقيمة أو كمناقير العقبان، في نهاياتها انحناء في أغلب الأحيان، وتبدو صورتهم

(٢٦) The caliph's last heritage.

(٢٧) مينورسكي في بحثه عن الكرد في الانسيكلوبيديا الإسلامية. ويلاحظ أن بعض الرحالة الأرمن في القرن التاسع عشر ذكروا أن رؤساء بعض العشائر الكردية ذكروا لهم سراً أنهم يرجعون إلى أصول أرمنية. وهذا لا يشمل الأرمن الذين يتحدثون باللغة الكردية ومازالوا يدينون للكنيسة الأرمينية، لأن هؤلاء لا يخفون أبداً انتماءهم الأرمني.

(٢٨) علم معرفة الأجناس البشرية - المترجم.

(٢٩) الاسم القديم للبحر الأسود - المترجم

متميزة، حتى أن المنحوتات القديمة عبرت عنها في الأغلب. تحمل سلالات هؤلاء فيما بعد، وبعد حقبة تاريخية طويلة، أسماء مختلفة. ثم ان هؤلاء يدخلون فيما بينهم حروباً طاحنة. ولإسباغ الصفة الشرعية على أعمالهم هذه يتبادلون أحيانا التّهم فيما بينهم بكون بعضهم أجانب عن بعض. ولكن لو نظر إليهم من قريب لظهرت في ملامح قسماتهم الأساسية علامة تكشف عن الدم المشترك الذي يجمع بينهم[٣٠]"...

ان هناك اختلافاً في الرأي بشأن أصل الشعب الكردي[٣١]، إذ يبقى الكثير مما ينبغي عمله حتى نتوصل إلى نتائج مرضية أكثر من تلك التي عرضنا خلاصتها لحد الآن. ان القليل الذي قلناه بهذا الخصوص، محاولين تجنّب المناقشات الكثيرة ذات الصبغة الفنية التي تهم المختصين بهذا الموضع، يثبت لنا مع ذلك ان المختصين بالدراسات الكردية (الكردولوج) يعملون في مجال جد رحب، فاتحين الباب أمام أبعاد تاريخية وعرقية غير معروفة وشيّقة للغاية. وسنحاول في الفصول القادمة أن نفلح في هذا المجال بعرضه تدريجيا في صوره العديدة.

(٣٠) لم يكن البروفيسور (بيتار) قد تعرّف بعد على الكرد الشقر، فقدمت إليه في العام ١٩٣٥ في بلجيكا أحد المشتركين في مؤتمر الاستشراق هو الأمير ثريا بدرخان.

(٣١) هناك مؤلف من أصل كردي، منتقد بالتأكيد من قبل الآخرين يزعم على سبيل المثال "أن الكرد ينتمون للعرق نفسه الذي ينتمي إليه الترك". (الدكتور شكري محمد صبكان، المسألة الكردية، باريس ١٩٣٣، ص٣٦). وهناك آخر عربي يدّعي فارس حماده، وصف الكرد في رسالة وجهها إلى جريدة (إيران) الصادرة في طهران بأنهم ساميون. ويذكر تأييداً لقوله هذا مقطعاً من كتاب المسعودى..الخ. وسوف نرى بصدد الموضوع نفسه في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب ما يقوله (مانزل) حول أنثروبولوجية اليزديين الذين يعتبرون كرداً. ونضيف أيضا أن تحقيقا حديثا أجري بصورة علمية ودقيقة من قبل عالم هولندي هو (كابيرس) يظهر أن بين الكرد مزيجا من عناصر أخرى، وهذا ليس بمستغرب بسبب التزاوج مع الآخرين ولسبب آخر أيضا هو أن كرد الشام كانوا موضع دراسة (كايرسل). ومع ذلك فانه لا يتردد في الإقرار بأن الكرد يشكلون عنصراً متميزاً عن الآخرين (كابيرس، مساهمة في أنثروبولوجيا الشرق الأدنى) (ج ٥، الكرد والجركس والفرس) أشار إليه (روندو) في دراسته المشار إليها أعلاه (ص٢٥٥، قبائل جبلية... ص٢٩).

الفصل الثاني

كردستان، مفهومها الاصطلاحي وأهميتها الحقيقية

أولاً – اسم كردستان في تاريخ الشرق:

تعني لفظة (كردستان) بلاد الكرد. وهي ليست دولة مستقلة محددة الحدود سياسيا يعيش ضمنها شعب متجانس، ولكن أكثريته، على الأقل، ينتمي إلى العرق نفسه. ولم يظهر هذا الاسم إلا في القرن الثاني عشر، خلال حكم السلطان سنجر، آخر كبار ملوك السلاجقة، الذي أنشأ هذا الإقليم واتّخذ من القلعة المنيعة (بهار) التي تقع شمالي غربي همدان، مركزاً له. وكان هذا الإقليم يضم ولايات همدان ودينور وكرمنشاه في شرقي سلسلة جبال زاغروس، وولايات شهر زور وسنجار غربي هذه السلسلة. وحتى القرن الثاني عشر لم تكن تعرف هذه المقاطعات إلا تحت عنوان (جبل الجزيرة) أو (ديار بكر). وأول مؤرخ ذكر اسم (كردستان) هو حمد اللّه ابن المستوفي القزويني (القرن الرابع عشر) في كتابه (نزهة القلوب) عام ٧٤٠ من الهجرة. وكان هذا الإقليم يجاور شرقا العراق العجمي وشمالاً أذربيجان وغربا العراق العربي وجنوبا خوزستان، وكان يضم ١٦ قضاءً إدارياً وهي (١) (آلاني) مع مدينة تحمل الإسم نفسه ولها بعض الأهمية ومناخها معتدل ومناسبة للصيد. (٢) (اليشتر) التي كانت تضم سابقا (آتشكده) أي معبداً للزردشتيين، عبدة النار يسمى (أروخش) أو (أردخش). (٣) (بهار) المشار إليه أعلاه. (٤) (خفيتان): وهي قلعة حصينة على نهر الزاب مع قصبات أخرى أصغر منها من حواليها. (٥) دربند تاج خاتون: وهي مدينة صغيرة. (٦) دربند زينكي: مناخها معتدل ولكن معظم سكانها من قطّاع الطرق. (٧) دزبيل (٨) دينور: وهي مدينة كبيرة معروفة بعنبها. (٩) سلطان آباد جمجمال في سفوح جبل بيستون: شيدها السلطان محمد خدا بنده المعروف بأولجاتو في القرن الرابع عشر. (١٠) شهرزور: وتقع في سهل خصب، وكان مؤسسها على ما يذكر ياقوت الحموي شخصاً يدعى زور بن ضحاك. (١١) كرمنشاه: التي كانت تحمل سابقا اسم (كرميسين). (١٢) كرند و خوشان وهما قريتان. (١٣) كنكاور: وتسمّى أيضا قصر اللصوص (أو حصن قطّاع الطرق). (١٤) ما هيدشت أو ما يدشت التي تضم خمسين مجمّعا سكنيا. (١٥) هرسين وهي حصن قوي. (١٦) وستام وهي قرية كبيرة.

وعندما نقارن بين العديد من المصادر الشرقية نتوصل إلى استنتاج أن كردستان فارس (ايران)، وبضمنها لرستان، كانت تشكّل حتى القرن الثالث عشر جزءاً من الإقليم الذي كان العرب يطلقون

عليه اسم (الجبل)[1]. إما بالنسبة للقسم الآخر من كردستان الذي يغدو فيما بعد كردستان تركيا وكردستان العراق (بلاد ما بين النهرين) فكان يدخل ضمن ولاية الجزيرة، أو بمعنى أكثر تحديدا، دياربكر. وعند الغزو المغولي للمنطقة كانت كردستان فارس تشمل المناطق الجبلية من زاغروس. وقد فقدت عاصمتها الإقليمية (بهار) أهميتها خلال حكم خلفاء جنكيز خان واحتلت مكانتها (سلطان آباد جمجمال) التي صارت مقراً لحكام كردستان الفارسية. وكانت مراكز محلية كردية عديدة تتمتع بنوع من الاستقلال. ولكن خلال القرن الخامس عشر، أي خلال الحكم الصفوي لإيران، فصلوا عنها همدان ولرستان. وبينما احتل العثمانيون أراضي الإقليم الواقعة غربي جبال زاغروس، صار اسم كردستان يطلق في بلاد فارس على إقليم أردلان مع مركزه في (سنه) او(سنندج). أما كردستان تركيا التي لم تظهر إلا مؤخراً في نهاية القرن السابع عشر، فان الجغرافيا الإدارية العثمانية لم تكن تعترف تحت اسم ولاية كردستان إلا بثلاثة ألوية (محافظات) هي (درسيم) و(موش) و(ديار بكر). والجمهورية التركية الحالية تتجاهل اسم الكرد وكردستان وتطلق عليهم اسم "الأتراك الجبليين"!

إن الأقاليم أو الولايات التي تحمل اسم (كردستان) سواء في إيران أو في تركيا، لا تمثل مطلقا المنطقة الشاسعة التي يعيش فيها الشعب الكردي،. لذلك إذا أردنا التعرف على البلاد التي يعيش فيها الكرد، فلا يصح الاستناد إلى الاسم الذي يحمل كلمة كردستان، لأنه اصطلاح يختلف مدلوله من حيث الزمان والشمول، بل يجب البحث عن تحديد آخر ولا يمكننا إيجاده إلا بالرجوع إلى دراسة الجغرافية الطبيعية لآسيا القديمة، مع الأخذ بنظر الاعتبار المبدأ الثابت القائل أن الكرد قوم جبليون بجبلتهم.

ثانياً – الجغرافية الطبيعية لكردستان:

لكي نفهم جيدا جغرافية هذا الجزء من آسيا، ينصحنا (مينورسكي) بالانطلاق من نقطتين

(١) في الصفحة ١٣٨ من "لمحة من تاريخ ايران وجغرافيتها" للبروفيسور (بارتولد) "باللغة الروسية"، نقرأ: ان الجغرافيين العرب كانوا يدخلون أيضا ضمن حدود المقاطعة الجبلية لإقليم الجبال التي كانت ضمنها ري وأصفهان وهمدان ومدن أخرى، الجبال التي تقع شمالي همدان حتى حدود أذربيجان، وكانت غالبية سكان هذه الجبال من الكرد، كما هو الوضع اليوم أيضا. ان الإقليم الواقع بين كرمنشاه وأذربيجان يسمّى اليوم (أردلان) وأهم مدنها (سنه). وكانت دينور تعتبر المدينة الأساسية خلال القرون الوسطى. وتقع آثار دينور المهدمة على جانب النهير الذي ينصب في نهر (جاماس) قرب جبل بيستون ويطلق عليه لحد الآن (آب دينور) أي ماء دينور. وكانت المسافة بين دينور وشهر زور أربعة أيام مشيا على الأقدام. وتقع شهر زور جنوبي شرقي مدينة (السليمانية) الحالية، غير بعيدة عن الحدود العراقية–الإيرانية . وكان الفرس يطلقون على شهر زور اسما آخر هو (نيمراه) أي منتصف الطريق لأنه كان يقع على منتصف الطريق بين عاصمتهم القديمة (المدائن) والمركز الرئيسي لمعبد عبدة النار (شيز) الواقع في القسم الجنوبي من أذربيجان حيث نجد اليوم آثار (تخت سليمان). وفي عهد الساسانيين كانت أردلان تشكل مع نهاوند إقليم (ماه).

أساسيتين هما جبال آرارات[2] وخليج الاسكندرونة. في جنوبي آرارات وعلى مسافة تزيد عن ألفي كيلو متر تمتد سلسلة غير منقطعة من الجبال وتتجه هذه السلسلة ابتداء من الشمال إلى الجنوب مباشرة، ثم تتشعّب وتنحرف إلى الجنوب الشرقي صوب الخليج الفارسي.

يشكّل آرارات مركز منطقة جبلية واسعة ويتخذ شكلا لوزيا قممه الأربعة هي (كوري) في الشمال و(جوله ميرك) في الجنوب و(شوشه) في الشرق و(باى بورت) في الغرب. وباستثناء بعض العوارض المحلية (انخفاض عند نهر آراس مثلا)، من المحال أن لا نميّز في هذه السلاسل التي تكوّن هذه الكتلة المتلاحمة اتجاهين أساسيين. هذان المنحنيان يتواردان تقريبا مع المحور اللوزي. ويشكّل القفقاس الصغير وقمم لازستان محورا متوازيا مع خط الاستواء، بينما الجبال التي تبدأ من (سورما) بالقرب من (كوري) نازلة حتى جوله ميرك ومارة بآرارات، تحتل تدريجيا المحور الأول.

تبدو الجبال الواقعة بين آرارات وقمّة (كيله شين) وكأنها تسند هضبة أرمينيا فوق بلاد فارس. فإذا ما قارنّا التجمعين اللذين تلتقي فيهما مياه أرمينيا من جهة، ومياه أذربيجان من جهة أخرى، رأينا مستوى بحيرة (وان) [١ ٦٥٠ متراً] أعلى بكثير من مستوى بحيرة أورروميه [١ ٢٢٠ متراً]. وفي النتيجة فإن الجبال الكردية هي (كمحور يقطع المحور اللوزي عرضاً) في بحيرة أورروميه، كما هو الأمر بالنسبة لسلاسل (البُرز) بالقياس إلى بحر قزوين. ولكن هذه المعادلات القياسية ليست متماثلة دوما. إن اختلاف المستوى في الحالة الأولى يبلغ ١ ١٠٠ متر (قزوين – السهول الإيرانية)، بينما هو حوالي ٤٥٠ مترا في الحالة الثانية (وان – أورروميه). ومهما كان الأمر، فإن هذه السلسلة في كردستان الجنوبية ليست إلا حاجزا لا يمكن اجتيازه عندما نحاول ذلك من جهة تركيا، فالقمم جد عالية وهي مغطاة بالثلوج في معظم فصول السنة[3].

إذاً، تشكّل الجبال الكردية بين آرارات وجوله ميرك حدوداً لبلاد جد مرتفعة، وهي أرمينيا قياسا لمنطقة أكثر انخفاضاً منها وهي أذربيجان. وفي جنوبي جوله ميرك نجد على العكس سهول فارس التي تحملها الجبال الكردية وتقع فوق سهول آشور. ويتميز حوض بحيرة اورروميه بارتفاعاته الآتية: ميانداواب ١ ٢٨٠ متراً، ساوجبلاغ (مهاباد حاليا) ١ ٣٠٠ متراً، أشنو (شنو) ١ ٤٠٠ متراً، أورروميه[4] ١ ٣٢٠ متراً، بحيرة اورومية ١ ٢٢٠ متراً. والجبال التي تفصل حوض بحيرة وان

(٢) مينورسكي: الكرد (باللغة الروسية).

(٣) كتلة من الصخور البلورية ترتفع لتصل إلى مدى ٤ ٤٠٠ متر نتيجة ارتطامها بغيرها. وتهيمن كردستان على بلاد ما بين النهرين في انحدارات جبالها الوعرة وفي أشكالها الغريبة ومواقعها البعيدة المنال، مع اختلاف متقارب في الارتفاع قريب من ثلاثة آلاف متر. كليرجه، تركيا، ص ١٦ "باللغة الفرنسية".

(٤) أبدل اسمها خلال العهد البهلوي بـ(رضائية) وعاد بعد الثورة الإسلامية إلى ما كان عليه؛ ويطلق عليها الكرد اسم (ورمي) – المترجم.

وأورومیه لیست لها تسمیة مشترکة. وتعرف الجبال الممتدة إلى بلاد ما بین النهرین بإسم (زاغروس) الذي یبدو أنه اسم یوناني یجهله الشرقیون.

والآن إذا رجعنا صوب الاسکندرونة تبین لنا بعد أن نقطع مسافة قلیلة منها کیف تبدأ سلسلة الأنتي طوروس التي تشکل حداً لتوزیع المیاه بین البحر الأسود وبلاد ما بین النهرین. فهذه السلسلة تتجه في مجموعها صوب الشمال الشرقي في فروع ثلاثة: طوروس الشمالي والأوسط والجنوبي الأرمیني.

تنبع المصادر الأساسیة لنهر الفرات من الودیان الواقعة بین تشعّبات طوروس، وتتمثل هذه المنابع في نهرین: الأول (مرادجاي) ویبدأ تقریبا من سفوح آرارات، في ودیان (آلاشکیرت)، والآخر (قره سو) أو الفرات بالقرب من أرضروم وفي سهول بینکول، بین هذین النهرین، تقع منابع نهر آراس الذي یجري شمالا، بینما یتجه کل من مرادجای والفرات صوب الجنوب الغربي في البدایة. وفي مکان ما یجري (مرادجاي) بالقرب من منابع دجلة، ولکنه لا ینجح في شق العقبة القلیلة السُمك التي تفصل بینهما، وبالقرب من خربوت یتخذ قراراه ثم یلتقي بـ (قره سو)، ویشکل النهران معا الفرات، أهم شریان لآسیا القدیمة، ویبلغ طوله ٢٦٧ کیلومتراً. ویبدو أن الفرات کان یرید في البدایة أن یصبّ في البحر الأبیض المتوسط في استمرار جریانه باتجاه الجنوب الغربي، ولکنه اصطدم بجبال طوروس التي إعترضته فاتجه نحو الشرق صوب الخلیج.

وتبدأ السلسلة الثانیة من الجبال من نقطة مسیرتها في جنوبي شرقي الاسکندرونة، وهي تعمل على تطویل جبال سوریا الشمالیة. وتحمل هذه السلسلة تسمیة طوروس وتتجه بوجه خاص نحو الشرق، وعندما تصل بحیرة (وان) یتجه أحد فروعها صوب الشمال، بینما یدور الثاني حول البحیرة في الجنوب. وفي الشرق یلتقي بالحدود الإیرانیة بالقرب من (کوندور)، وفي شرقي بحیرة وان، تفصل هذه السلسلة حوضها من أعالي مجرى الزاب الأعلى. ویتشعّب الفرع الشرقي من طوروس من جدید باتجاه الجنوب ویلتقیان بقبضات جبارة حول حوض أعالي دجلة مجتازین مسالك باتجاه الجنوب الشرقي. ویجتاز نهر دجلة مسافة أقصر بکثیر من الفرات، قبل أن یصل إلى السهول ولکن بالمقابل یستحق الاسم الذي أطلقه علیه الأقدمون(٥) حیث یسقط کالنبال من أعلى القمم التي تغذّي مجراه، وینتصب في الجانب الأیسر من دجلة جبل (الجودي) الذي رست علیه، على ما تذکر الروایات الشرقیة، سفینة نوح(٦).

(٥) الکلمة البابلیة (دکلة) تعني في الحقیقة الشاطئ العالي، لکن الاغریق کانوا یعتقدون أنها مشتقة من الکلمة الفارسیة (تیکرtigra) والتي تحورت إلى (تیك) أي الشاطئ.

(٦) من المحتمل أن الروایة التوراتیة استعارت قصة رسو السفینة على آرارات من الأسطورة الکلدانیة التي تقول أنها توقفت فوق جبال (اورارتو)، بینما تقول الروایات المحلیة من مسیحیة وإسلامیة ویزدیة، انها< رست على جبل (الجودي)، القمة الصخریة الوعرة من (نیقات) التي یمکن رؤیتها بوضوح من جبال أورارتو الشاهقة. ومن المنطقي أن یعتقد أن الطوفان قد استمر في السهل وقد فشلت السفینة في الرسو على سلسلة مرتفعة تقع على زاویة من السهول، بینما یکون رسوّها على قمة عالیة بعیدة کثیرا عن السهول ومنفصلة عنها بسلاسل جبلیة عالیة أکثر احتمالا. لذلك أعتقد أن الروایات المحلیة تحمل جانبا کبیرا من الحقیقة. وعلى قمة الجودي یوجد مزار یزوره في آب من کل سنة، آلاف المسلمین والمسیحیین والیزدیین في احتفال کبیر ویتسلقون بشعور عال قمة تبلغ سبعة آلاف قدم في جو حار خانق لیمجدوا نوحا.الکابتن دیکسن، رحلة في کردستان، مجلة الجمعیة الملکیة الجغرافیة، العددالرابع، ١٩١٠.

أما جبال جوله میرك فإنها أکثر ارتفاعا وهي تحیط بالمصبّ الشمالي لدجلة، نهر الزاب الأعلى (الذي لا یشکل جزءاً من المجرى الأعلى لدجلة، بل یصب في مجراها الأوسط). وقمم هذه الجبال، التي تستخدم کما ذکرنا آنفا، نموذجا في وصف الجبال التي ندرسها هنا، تصل إلى ارتفاع أربعة عشر ألف قدم (ویصل ارتفاع آرارات الکبیر إلى ٠٠٠ ١٧ قدم).

وهکذا یتبیّن لنا الهیکل العام لهذه الجبال التي تبدأ من آرارات من جهة، وتنتهي في الاسکندرونة من الجهة الأخرى. وکما رأینا، تهیمن هذه السلاسل من الشرق على حوض بحیرة أورومیه، وتشکل جنوبا المنحدرات التي تتوقف في نهایتها رحاب الصحاري السوریة-العربیة. وقبل أن نسترسل في دراسة سلاسل جبال زاغروس التي تطیل من إمدادات هذه الجبال صوب الجنوب والجنوب الشرقي، نتوقف هنیهة لعرض بعض المعلومات التي تسمح لنا بالتوجه بصورة أفضل في أعماق هذه الشبکة الجبلیة المعقّدة على النحو الذي نریده.

ثالثاً – خصائص الهضبة الأرمینیة:

في تحدیدنا للهضاب الأرمینیة نتّخذ من بحیرة وان مرکزا لها بوجه عام. فجنوبا تصل حدودها إلى الأطراف الشمالیة للأرض السهلیة لسوریا وبلاد ما بین النهرین، حیث تتقاطع مسالك إرتیاد الکلأ من قبل العرب البدو مع تلك التي یسلکها الکرد الرحّل. ویبدأ هذا الخط من الفرات ویصل جزیرة ابن عمر بعد أن یعبر (سیوه رك) وماردین. ومن الجزیرة تبدأ الحدود الترکیة العراقیة الحالیة في بقعة مأهولة بالکرد فقط، وتستمر على هذا المنوال جنوبا. أما شرقا، فان سلسلة الجبال التي تفصل ترکیا عن ایران تشکل حدودا لها، وهي تکون المحور الطولي للمعین. وفي شمالي آرارات تصل هذه السلسلة إلى الشاطئ الشرقي لبحیرة (کوك جای) (هذه البحیرات الثلاث التي تختلف نسبة ملوحة میاهها وهي کوك جای ووان وأورومیه، وتکشف لنا عن إحدى خصائص هذا البلد الذي نحن بصدده). ان الحدود الشمالیة لأرمینیا مؤشرة بخط تقسیم المیاه بین حوضی (کوره) و(جوروخ) من جهة وحوضی آراس والفرات(٧) من جهة أخرى. ویصعب أکثر تحدید الحدود على الطبیعة غربا لأن المنطقة

(٧) أحد منابع الفرات الرئیسیة – المترجم

تعتبر بمثابة أرض انتقالية جيولوجياً دون علامات واضحة. ومن المناسب أن نتخذ حداً فاصلاً، مجرى نهر الفرات من أرزنجان حتى نصل إلى مجرى الفرات جنوبا.

تتميّز بلاد أرمينيا المحددة فيما سبق بارتفاع مستوى أراضيها عن مستوى سطح البحر. فبينما يصل مستوى ارتفاع المنخفضات والسهول إلى ١٥٠٠ و٠٠٠ ٢ متر، يتجاوز مستوى ارتفاع قمم الجبال ٠٠٠ ٤م [يصل ارتفاع آرارات إلى أكثر من ٠٠٠ ٥ متر أو ٠٠٠ ١٧ قدم كما ذكرنا ذلك سابقا].

ومقارنة بآسيا الصغرى وايران وبلاد ما بين النهرين، تعدّ أرمينيا بمثابة حصن منيع، وسبق أن أشرنا إلى وجود سلسلة جبال عالية في شرقها، وتبرز هذه الخصيصة بصورة أوضح باتجاه البحر الأسود حيث تبدأ الانحدارات السريعة لجبالها، كما هو الحال لدى هبوطها في كل من (كوره) و(ريون). ومع ذلك فإن منظر أرمينيا بالقياس إلى مناظر ايران وآسيا الصغرى أقل ما شبهاً بالسهول. فالعديد من الوديان التي تجري فيها المياه التي تغذّي أنهار آراس والفرات ومرادصو وأكثر جنوبا نهر الفرات نفسه، تقطع في الواقع سهول أرمينيا بحيث أنها لا تتشابه في شئ مع مثيلاتها في ايران وآسيا الصغرى، اللتين تتميزان بأحواضهما الداخلية المسدودة وتكثر فيهما البراري المالحة والمستنقعات السبخة. أما في أرمينيا فلا يوجد إلا القليل من المقاطعات المقفلة التي ليس لها منفذ نهري، وهذا على العكس مما في ايران وآسيا الصغرى اللتين خفّ انعزالهما بوجود الحوض الكبير لبحيرة وان التي تتجه نحوها مجاري العديد من الأنهار. ونظرا لأن التربة في الهضبة الأرمينية سميكة وغليظة، تتكون من شقوق في أعالي الروابي المعشبة الفسيحة. فان سهولا واسعة وخصبة تمتد بين هذه التلال والروابي، وقد تكوّنت بفضل الغرين والطمي أو بفعل العوامل البركانية، كما هو الحال مثلا بالنسبة لسهول أرضروم ووان وكيافير (وفي ايران تشمل سهول أورومیه وسولدوز ولاهيجان).

وبسبب ارتفاع مستوى الأرض، يختلف مناخ أرمينيا عما يتوقع في بلاد بهذه السعة، إذ يتميز بكونه قاريّاً. والفرق بين فصول السنة جد كبير، ففي الشتاء يغطي أرض أرمينيا ثلج كثيف، لكن الوديان والسهول تتعرض لجفاف شديد خلال الصيف[٨] وهناك مناطق من طوروس لا تسقط فيها

(٨) كما يقول (كليرجيه) في مؤلفه "تركيا، الصفحة ٢٥": "يجب تسلق الصخور في كردستان (المقصود هو أرمينيا -المؤلف) حتى نجد مهابط متساوية أو باختلاف متر واحد، ومراعي جميلة، ومنحدرات ما تزال مغطاة بالأشجار وبخاصة أشجار القضبان والجوز والأرز وأصناف من البلوط الذي يثمر العفص والمن. ومع ذلك فإن درجة الحرارة في مجملها جد منخفضة شتاء بسبب النتوءات (فمعدل درجات الحرارة في ديار بكر هو ١٦ م، ٦-م في كانون الثاني بينما تبلغ ٣٠م في تموز، وفي أورفه ١٨م و ٣٠٨م و ٣١/٦م خلال الفترة نفسها). [يلاحظ أن ب. نيكيتين يتحدث عن أرض أرمينيا كما يراها القوميون المتشددون الأرمن، فكثير من المواقع التي يتمثل بها لبيان الجغرافية الطبيعية لهذه البلاد لم تعد اليوم ومنذ زمن >

الأمطار مطلقا. فبمجرد أن يتوقف برد الشتاء وتذوب الثلوج، يبدأ موسم الجفاف. وإذا كان المناخ يبدو متماثلا في أرمينيا خلال الشتاء حيث تغطي الثلوج جميع الأرجاء، فإن الجو يكون على النقيض من ذلك في الصيف بسبب طبيعة البلاد. وفي هذا السياق يمكن ايراد شمالي أرمينيا كمثال واضح على ذلك، حيث تهيمن على سهل (يريفان) جبال آرارات العظيمة. إن جميع المسافرين الذين يأتون إلى السهل من الشمال، يتملّكهم الإعجاب بالمناظر الخلابة التي تتفتّح أمامهم، فتمتد في البداية سهول واسعة، بانحدارات خفيفة، تجف خلال الصيف بسبب قوة أشعة الشمس، وتبدو كفسحة صفراء مائلة إلى اللون الرمادي وعلى نمط واحد ولا يعكس فيها مظهرا من مظاهر الحياة إلا بعض التجمّعات التي تشاهد من بعيد على ضفاف نهر آراس. وأبعد من ذلك بكثير ينبسط السهل الأرميني مع منظر آرارات البديع الذي تغطي الثلوج قممه طوال أيام السنة وتشعّ منها أشعة فضية براقة، بينما تشكل الغيوم الخفيفة في منتصف علوها أكاليل حول هذا الارتفاع الشاهق. إن اختلافا بسيطا في مستوى الارتفاع يبلغ حوالي ٥٠٠ ٤ متر يجمع هنا في فسحة صغيرة مناطق تضم إلى جانب الثلوج والقفار الجليدية في القمم حقولا للرز في منخفضات شبيهة بالمستنقعات حوالي نهر آراس وفي السهول المتوهّجة والمغبرة. إن الجمع بين هذا الاختلاف الكبير في المناخ يؤثر سلبا بطبيعة الحال على السكان الذين يعيشون في مناطق متوسطة الارتفاع. فمنذ بداية الربيع وحتى الصيف، وكذلك منذ بداية الخريف يتلف الجليد الليلي غير المتوقع والبرد، الحبوب والثمار.

وهناك استثناء واحد من هذا الوضع الشامل للسهول الأرمينية، وهو وضع المناطق الجنوبية منها. إن تشعّبات جبال طوروس تأخذ شكل تلول ذات مرتفعات متوسطة الارتفاع مع مناخ معتدل أيضا. وتقل في هذه البقعة الأحواض المليئة والسهول الفسيحة التي تميّز أرمينيا عن غيرها. إن العديد من الوديان ذوات النهيرات في هذا الجزء من طوروس عبارة عن ثغرات تنزل فيها المياه المتساقطة على شكل دكات. ولا يبدو المنظر في سعة أكثر ولا ينكشف للناظر إلا بعد التدنّي من التلال التي تقع في سفوح السلاسل الجبلية.

أن ما يميز أرمينيا، بوجه عام، هو هذا التدرّج في ارتفاع مستوى الأرض الذي ينصح عن تنوع المناظر الطبيعية. فبينما تشبه الأقسام المنخفضة منها في الربيع والخريف قطعة من السجاد الأخضر بأزهار مختلفة، فإنها تتحول خلال الصيف الحار إلى فسح مقفرة، وتتعرّى منحدرات الجبال وقممها من الثلوج لتنمو فيها الزهور. وكما سنتكلم عن الموضوع في حينه، يتم انتقال المواشي بصورة عمودية وليست أفقية، كما هو الحال في المناطق الصحراوية أو التي تشتد فيها ملوحة الأرض. وبفضل كثرة المراعي في أرمينيا، تكون كثافة السكان فيها أكثر قوة وفاعلية مما هي عليه في المناطق الأخرى التي

< بعيد أرضاً أرمينية وإنما هي داخلة ضمن الإطار الجغرافي لكردستان، وان صح إنه بعضها كان يوما ما ضمن نطاق أرمينيا - المترجم].

يعيش فيها البدو والرحّل.

بين سهل أرمينيا وسلسلة جبال زاغروس توجد منطقة صعبة المنال لا يمكن بلوغها حتى من قبل عشيرة هركي أورامر(٨ مكرر) وذلك بسبب اتجاه سلسلة الجبال التي تتوجه من الغرب إلى الشرق حتى تبلغ هذه المنطقة، ولكنها تبدل اتجاه مسارها هنا فجأة. هذه المنطقة تعد بمثابة عقدة يخضع محورها الجبلي لانحناء فجائي صوب الجنوب. إن سفوحها الدوارة المعشوشبة وانحداراتها الملساء التي سبق لنا وصفها، تزول لتحل محلّها صخور جبلية بوديانها ومضائقها العميقة. وتتحول هذه الانثناءات الأرضية إلى مدرجات كثيرة باتجاه سهول بلاد ما بين النهرين ثم تخف وتنزل تدريجيا إلى ارتفاع ٣٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر حتى تزول تماما تقريبا عند مشارف مدينة الموصل.

وقبل أن نبتعد عن السهول الأرمينية، نلاحظ من وجهة النظر الايدروغرافيكية (علم المياه السطحية) أن النهيرات التي تسقي الوديان الفسيحة، تحاول أن تتجمّع مع روافد دجلة الكبرى (الزاب الأعلى والزاب الصغير ونهر بهتان). وتفتح هذه الروافد الكبرى ممراً لها باتجاه الجنوب بعد أن تجتاز أرضاً قليلة المقاومة لها. ولهذه الروافد مجار متعرجة، فهي تجري تارة صوب الشرق في وديان ذوات منحدرات رقيقة، وتتجه أحيانا أخرى بصورة فجائية وسريعة صوب الجنوب في مسالك صخرية تنفتح قليلا داخل السلاسل الجبلية القوية، وأحيانا تحاول البحث عن وديان أكثر عمقا بعد أن تغيّر مجراها غرباً لتأخذ مسارا باتجاه الجنوب وتصب في دجلة. تلك هي وضعية الأنهار الصاخبة التي تجري في مناطق قليلة المأوى في (ناوجيايا) في شمدينان و(أورامر) التي تقع بعدها بقليل و(لولا) و(خرينا) و(هومارو) و(رووبارى شين) وغيرها من النهيرات التي تلتقي أخيرا بالزاب الأعلى. وهكذا الحال بالنسبة للزاب الصغير الذي يحمل في البداية اسم (لافين) ثم اسم (كيالفى) ثم يجري داخل أراضي ايران على امتداد جبال زاغروس نحو جنوبي (شنو) يترك فيما بعد على مقربة من قرية (آلوت) في مقاطعة آلان، الحدود الإيرانية بعد أن يفتح مخرجاً داخل جبال زاغروس وينزل في مساقط قوية ومنحدرات دوارة صوب سهول بلاد ما بين النهرين ليصب في نهر دجلة.

رابعاً – زاغروس، كردستان ايران:

بعد أن تجولنا في سهول أرمينيا والقينا نظرة على المنطقة الانتقالية لهركي أورامر على مقربة من سلسلة جبال زاغروس، بقي علينا أن نلقي نظرة على الوصف الأوروغرافي [وصف الجبال] للجبال الكردية.

بين قمة (كيله شين) التي هي في مستوى ارتفاع (شنو) تقريبا، وممرات (آلان)، تأخذ سلسلة

(٨ مكرر) راجع مقالنا المشار إليه آنفا في مجلة EI حول نتوءات هذه المنطقة، وكذلك الكرّاس الممتاز مع تصاوير وخرائط تحت عنوان (أعالي دجلة)، استانبول عام ١٩٤٩، تحت إشراف الجمعية التركية للجبال.

زاغروس التي تكوّن هنا الحدود العراقية–الإيرانية، سيرا منتظما. انها تتجه في خط مستقيم وقصير نسبيا من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، وهي تكون الظاهرة الأخيرة في الشمال لنظام الانحدارات المتوازية للجبال الجنوبية في إيران، وتستمر في تحولها بين التكوينات غير المنتظمة لآرارات وأرمينيا والسلسلة الرسوبية لـ (زهاو) ولرستان التي تقع أكثر جنوبا.

ويجب أن نلاحظ بصدد النظام الأوروغرافي لجبال ايران بوجه عام أن القمم الرئيسية لا تخرج وحدها قليلا عن خط تقسيم المياه والتي تكون اعتيادية في سلاسل الجبال الكبيرة، بل أنها تقع خارج السهل الإيراني، كما هي الحال بالنسبة إلى جبل (دماوند) الذي يشكّل جزءا من السفوح الخارجية. ان جبال (سبلان) و(سهند) العالية الارتفاع تمثل حلقة اتصال بين الهضاب البركانية لأرمينيا(٩) ونظائرها من جبال البُرز، فتغطّي الثلوج (سهند) و (سبلان) وجبال كردستان منذ بداية شهر تشرين الثاني ثم تسقط في السهول ولا تذوب إلا في شهر مارس (آذار).

وفي غربي الجبال الواقعة بين (كيله شين) و (آلان) باتجاه ما بين النهرين يغدو المنحدران أكثر وعورة. فبينما تقع مدينة أربيل على ارتفاع ٤٣ مترا عن مستوى سطح البحر، يزيد ارتفاع الجوانب الإيرانية عن ألف متر. ويصل مدى ارتفاع الجبال في الغالب ٣ ٢٠٠ متر، وترتفع قمة (كيله شين) بـ ٢ ٨٦٠ متراً عن مستوى سطح البحر.

وعلى مشارف الموصل في نقطة يحسّ فيها المرء بعكس الحالة السابقة في اختلاف مستوى جانبي سلسلة زاغروس، تعبر المياه الإيرانية القمة الرئيسة فيها حتى تدخل الاراضي العراقية. ويصب في نهر الزاب الصغير جزء من مياه (موكريان) – منطقة ساوجبلاغ – و (بانه) ويعبر بعدئذ ممرات (آلان) بالقرب من (سردشت).

تتكوّن قمم الجبال ابتداءً من آرارات وحتى هذه المضايق من صخور بركانية قديمة قليلا أو كثيرا. وبعد (آلان) تنحرف سلسلة جبال زاغروس شيئا فشيئا نحو الجنوب الشرقي وهي تتكوّن من رواسب وطمي بحرية ونهرية. وفي شرقي زاغروس الذي يمثل الانحناء الغربي للسهول الإيرانية، نجد كردستان إيران. ويقسّم الجغرافيون الفرس هذه المنطقة إلى ثلاثة أقسام نستعرضها واحدة بعد أخرى. انهم يسمّون القسم الأول (كردستان موكرى و (كروس) أو بيجار). وتأخذ السلاسل الجبلية لهذا القسم

(٩) يقول ديكسن في المرجع المشار إليه آنفا: "في أعلى السهل يوجد الكثير من الجبال العالية التي كانت براكين فخمدت، كما يؤكد ذلك العينات المقدمة منها. نذكر على سبيل المثال نمرود داغ الذي يتميز بشكله الدائري الذي يبلغ طول محيطه ١٦ ٠٠٠ قدم وبإرتفاع ١٠ ٠٠٠ قدم، وكذلك (سبيان داغ) الذي يبلغ ارتفاعه ١٤ ٠٠٠ قدم، واصطدمت به، على ما تذكر الروايات المحلية، سفينة نوح، فصرخ (سبحان الله) وهي صرخة قد تصدر من رئيس ربابنة أي سفينة للمولى القدير عندما ترتطم سفينته بشيء ما دون أن يصاب بأذى.

مسار زاغروس نفسه، أي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة منها ٣٢٠٠ متر. والجبال المذكورة التي تقع بين مدينة (شنو) وممر (آلان) هي (جياي رش) و (كوه سفيد) و (بيرزن) و (كانى خوله) و (قنديل) و (باكير) و (حاجي إبراهيم). وتمتد إلى الشرق بصورة موازية لها سلاسل (برده سير) و (موكرى) المنفصلة عنها بواسطة وادي نهر (جغتو)، ويخترق السلسلة الأولى نهير (تتهو) ويطلق على الشق الثاني منه اسم (كورته ك) الذي يمتد إلى (ساوجبلاغ) وإلى جنوب بحيرة (أورومیه). وتتجه سلسلة (برده سير) من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي مع ميلان خفيف صوب الشرق، وهي تشكل الحدود الشرقية لكردستان موكري ويستخدم خطاً لتقسيم المياه. وينحدر المنحدر الشرقي الأكثر علواً لهذه السلسلة تدريجيا صوب وادي (جغتو)، بينما يحيط بالطرف الغربي من الزاب الصغير وتحمل قممها الأسماء الآتية: (شوان بريان) و (بالان سر) و (شيرينستان) و (كورتك) و (كوه يعقوب آغا). تقع (كيله شين) التي ينبغي عدم الخلط بينها وبين الجبل الذي يحمل الاسم نفسه ويقع بالقرب من الحدود الإيرانية-العراقية، غير بعيد عن (شنو)، ضمن سلسلة (برده سير). ومن بين تفرعات (برده سير) التي تمر في كل الاتجاهات نجد (تيكيلو) الذي يقسم وديان سقز وهو هنا نهر يصب في جغتو و (جغتو) نفسه و (ونوشه) الواقع بين نهري (خالو) و (تتهو)، ويقع فيه أيضا جبل (بارشان) بينما يقع جبل (سورمينان) شمالي منابع (تتهو). ويتميز النظام الأوروغرافي لكردستان موكري بوجود هضاب منتظمة تتجه من الشمال والشمال الغربي إلى الجنوب والجنوب الشرقي، كما أن التشعّبات الثانوية غير المنتظمة في اتجاهاتها الناتجة عن التأثيرات البركانية لجبل (سهند) المجاور لها، تحاول أن تغيّر اتجاهها من الغرب إلى الشرق.

ينقسم النظام الهايدروغرافي لهذا الجزء من كردستان ايران إلى منخفضين، أحدهما بحيرة أورومیه في الشمال الشرقي والآخر دجلة في الجنوب الغربي. تنبع مياه البحيرة من جبال (برده سير) و (جهل جشمه) التي تكسوها الثلوج خلال الجزء الأكبر من السنة، وبذلك تصرفان كميات هائلة من المياه، كما أن نوعية ترابها الذي تجري عليه ليست سبخة، ولذلك فإن ماءها عذب وسائغ للشرب. ان (جغتو) أو (زيرينه) يقطع من منابعه في (جهل جشمه) حتى البحيرة مسافة ٢٤٠ كيلومتراً من الجنوب إلى الشمال، ويحمل مجراه في الأعلى اسم (خورخوره). ويعتبر نهير سقز من مصابه الرئيسة وينبع من سلسلة (برده سير) مخترقا المنطقة التي تحمل اسمه، ثم يلتحق بـ (جغتو) مكوّنا مصبّا كبيرا. أما فروعه اليمنى فهي في البداية انهار صغيرة تنزل من جبال (كوده) و (سارو) ومن ثم وعلى مقربة من حيث ينصبّ (جغتو) في البحيرة، هناك (ليلان) و (ساروق) اللذان يأتيان من (سهند) وأطراف (صاين قلعه). ولإرتفاع مستوى شواطئ (جغتو) لا يمكن إرواؤها ولا تستخدم وسائل الري الا في منطقة (صاين قلعه). ان رافد (تتهو) أقل طولا وسرعة جريان مياهه أقل بكثير من سرعة جريان (جغتو) ويجري في مضيق عميق فاصلاً (كورتك) عن جبال (برده سير). ان رافده الأيمن هو

(جومي خالو) ورافده الأيسر هو نهر ساوجبلاغ، فضلا عن الجداول العديدة التي تصبّ فيه بالقرب من المصب. وتكثر الأسماك في كل من (جغتو) و (تتهو) ولكن دون أن يستفيد منها القاطنون على شواطئهما.

أما بالنسبة لحوض دجلة في كردستان موكرى، فاننا نعني به الزاب الصغير الذي سبقت الإشارة إليه، وبعد أن يتولد من قمة (ميدان) التي يبلغ ارتفاعها ٢ ١٤٠ ذراعا، يجري حتى يصل إلى جبل (لاكان) الذي يبلغ ارتفاعه ١ ٥٦٠ ذراعا عن مستوى سطح البحر باتجاه الغرب حيث يطلق عليه اسم (هذا الجبل العالي). وبعد أن يدور حوله، يتجه إلى جبل (كيالفى) جنوبا ليصل إلى منطقة (سردشت)، حيث تكون قوة جريانه أسرع (ان اختلاف المستوى هو ٥٦٠ ذراعاً في ١٦ فرسخاً)[١٠]. وبعد (سردشت) يتجه نحو الغرب وينفتح على بلاد ما بين النهرين من ممرات (آلان) ويصبّ في دجلة، أسفل اربيل (هولير في اللغة الكردية). والروافد اليمنى لهذا النهر هي (بيسوى) و (لاون) و (مسين) بالإضافة إلى العديد من الجداول المنحدرة من (زاغروس). أمّا من جهة اليسار فإن الزاب يتسلم بالقرب من (سردشت) رافداً آخر هو (بانه) الذي تصب فيها مياه منطقة تحمل الاسم نفسه. ان المجرى العالي للزاب الصغير الذي يطرق ممراً عبر الصخور يحمل الكثير من الغرين ليودعه فيما بعد على الشواطئ لدى توسع الوادي، وبذلك يجعل من هذه المنطقة من كردستان موكري منطقة جد خصبة.

أورد البروفيسور (مينورسكي) وصفاً دقيقا لنظام جريان الزاب الصغيرة في مقاله المعنون (ساو جبولاغ) في الانسيكلوبيديا الإسلامية.

وتتحدد كردستان كرمنشاه التي نستعرضها الآن كما يلي: في الشمال تفصلها سلسلة من الجبال التي تفصل حوض نهر ديالى من وادي نهر (جاماس). أما شرقا فتحددها جبال (كنكاور) والشاطئ الأيمن لنهر (جاماس). وفي الجنوب تحيط بها الجبال التي تفصل مناطق (كلهور) و (بشتكوه) ويحدها غربا وادي دجلة[١١].

يقوم النظام الأوروغرافي لجبال هذا القسم من كردستان ايران من حيث الأساس على توجهها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وقد تعرضت للهزات الأرضية أقل مما تعرضت لها كردستان موكري. وأهم قممها الرئيسية من الشرق إلى الغرب هي: (ديى لاكاني كه وه) و (كه وه ى بيرو) و

(١٠) يعادل الذراع متراً واحداً و ٤٠ سنتيمتراً أما الفرسخ فيبلغ حوالي ٧٠ كيلو متراً.

(١١) وضح جغرافية هذه المنطقة (ف. ستارك F. Stark) في مؤلفه باللغة الإنكليزية الصادر في نيويورك عام ١٩٣٤ الذي يحمل عنوان The Valleys of the assassins and other persian travels الصفحة ٥١ وما بعدها.

(هولانه) التي تلتحق جنوباً بجبال (سفيد كوه) و (كيله كه وه) و (كوه بور قرمز)، ويأتي بعد هذه المرتفعات الجبلية المتوسطة جبلا (دالهو) و (بهلول) اللذان يرتبط بهما اسم زاغروس أكثر من غيره ويتمتّعان بشهرة واسعة لدى الإغريق والفرس القدماء. ويمر هنا أيضا الطريق الملكي الرئيسي لداريوس والذي مرّ به أيضا الاسكندر الكبير. ويمكننا الإشارة أخيرا إلى جبال أخرى أقل أهمية تقع على الحدود مع بلاد ما بين النهرين مثل (كيالو) و (ينواكولي) و (كوه سنبلي) و (شاه كوه).

وعندما تصبح المسافة بين الجبال أكثر سعة، تكون التربة أكثر خصوبة بفضل مياه نهر (جاماس) و (قره سو). ويعرف سهل (ماهيدشت) الذي تقع فيه أيضا مدينة كرمنشاه بكثافة سكانه، وهم متحضّرون ويعيشون في رغد. أما المناطق الغربية التي يتميز حالها بشدة انحداراتها، فيعيش سكانها حياة غير مستقرة ويعتمدون على الرعي أكثر من وسائل الحياة الأخرى.

بقي أن نعطي فكرة عامة عن أردلان أو كردستان فارس بالمعنى الضيّق للكلمة لأنها المنطقة الوحيدة التي يطلق عليها هذا الاسم في ايران. وتقع هذه المحافظة التي يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب حوالي ٢٠٠ كيلو متر بين مقاطعات (صاين قلا) شمالاً والسليمانية وكركوك ووادي ديالى [بكردستان العراقية – المترجم] جنوبا وإقليم (كروس) وهمدان شرقا.

تتميّز جبالها بانتظامها باستثناء الجزء الشمالي منها، حيث لايزال يشارك جبل (جهل جشمه) في التكوين المضطرب لكردستان موكرى. وإلى الجنوب الغربي تمتد جبال (جهل جشمه) وسلاسل جبال (كرميان) و (داني كجان) و (كيله سر) على نحو مواز من الشرق إلى الغرب. وعند الحدود العراقية في جزئها الذي يقع بين كركوك والسليمانية، تقع جبال (علي داغ) و (قره داغ) و (سكرمه) و (أزمر) التي توازي الواحدة منها الأخرى. ويمتد هذا الأخير جنوبا ليلتحق في تكوينه بالنظام الجبلي السائد في غربي كرمنشاه حيث لا يفصل أحدهما عن الآخر إلا نهر ديالى. وفي شمالي (جهل جشمه) نجد أخيرا سلاسل (تيلكو) التي سبق أن أوردنا ذكرها في كردستان موكري والتي تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وتنحدر بصورة تدريجية في وادي (قزل اوزون).

ينشأ من جبل (جهل جشمه) كل من (جغتو) و(قزل اوزون) وينبع منه العديد من الينابيع المائية في كردستان. وكما يتبين من اسمه الذي يعني (ذا الينابيع الأربعين)، فانه يعد بمثابة مصدر رئيسي للمياه في هذه المنطقة من كردستان.

تحيط بأردلان جبال عالية من كل الجهات باستثناء الشمال الشرقي حيث يمر قزل أوزون. ومركز هذه الفسحة المغلقة منخفض نسبياً. وقد تكونت في هذه المسافات التي تفصل الجبال عن بعضها أراض خصبة بفضل الطمي. كما تجمّع في هذه المنخفضات الوسيطة والوديان الخصبة أغلب السكان في مراكز وتجمّعات سكانية. أما من حيث الارتفاع، فيمكن تقسيم أردلان إلى منطقتين، الأولى في الشمال وهي عبارة عن سهل طيني واسع يجتازه نهر قزل أوزون، ومناخ هذه المنطقة قاريّ جاف وهي

متاخمة لغرب (جهل جشمه) جنوبي جبال (سنه) و (بنجه علي). والحاجز الجبلي الموجود في الجنوب والغرب، اضطرّ قزل أوزون الذي يطلق عليه في قسمه السفلي البعيد اسم (سفيد رود) على اتخاذ وجهة شمالية شرقية. لقد شقت المياه هذا السهل الفسيح بشقوق مجوفة بعد تغطيته بطمي أخصبته. ان المياه التي تنزل في منحدرات شرقي وشمالي جبل (جهل جشمه) وجبال (دربند) و (تاهو خان) الذي يبلغ معدّل ارتفاعه ٤٠٠٠ متر، تفيض لدى تفتّحها على السهل على جميع الوديان التي تصل إليها في أماكنها لتشكل منابع لنهر قزل أوزون، وتتشعّب هذه الفروع بواسطة جبال (تالوانتو) التي لها ارتفاع معتدل إلى فرعين شرقي وغربي. بعد هذا المسير عبر الشواطئ الخصبة والطمي الغرينية، يدخل قزل أوزون في إقليم (كروس) المجاور. أما القسم الثاني من كردستان أردلان، أي القسم الجنوبي منها، فهو جبلي تماما وتكثر فيه المضايق والممّرات الضيقة الوعرة، كما تغطيه الثلوج خلال القسم الأعظم من السنة بوشاح أبيض، ولا تقطع السلاسل الجبلية منه أي نهر قوي، وتعترض المواصلات والزراعة في هذا الجزء من كردستان عوارض طبيعية يصعب التغلّب عليها. ويعيش سكانه شبه الرحل على مصادر الغابات التي تغطّي السفوح الغربية من الجبال.

ونهر (قزل أوزون) هو الذي يحدّد مرتسم النظام الهايدروغرافي في كردستان. ويحمل الفرع الأيسر لمجراه العلوي الأسماء الآتية: (سارال) و (هوبتو) من جهة، و (خرخره) و (قره توره) من جهة أخرى، من قبل الناس الذين يقطنون القرى الواقعة على شواطئه. وبعد عبورها لجبل (تالوانتو) تتوحد هذه النهيرات فيما بينها لتشكل نهر (قزل أوزون). وبعد مسافة قصيرة يصبّ فيه من الجهة اليمنى رافد (ليلى) الذي تنبع روافده من جبل (بنجه علي) شرقي (سنه). ونذكر هنا بأن نهر (سقز) وهو من روافد (جغتو) و (بانه) وهو من روافد الزاب الصغير ينبعان كلاهما من جبل (تليخان) من كردستان فارس، ولكن مسارهما الأساسيين يقعان في كردستان موكري.

أما بالنسبة لكردستان فارس [يقصد به كردستان أردلان – المترجم] فيعتبر نهر (ديالى) بعد نهر (قزل اوزون) العامل الأساسي في هايدروغرافيا المنطقة. إن هذا النهر أي نهر ديالى، الذي يعرف أيضا باسم (كاوه رو) و (سيروان) تنبع مياهه من جبل (شريش خان) غربي (الوند) بالقرب من (اسد آباد) ويجري حتى الحدود العراقية من الشرق إلى الغرب، ثم يتّخذ له مساراً عبر الممّر الموجود في سلسلة الجبال المتوازية في كردستان كرمنشاه وبخاصة سلسلتى (خالو) و (كيله سر) بعد أن يشكّل مضايق ضيقة ومتعرّجة. وبعد خروجه من سلسلة جبل (كيله سر)، ينحرف (ديالى) باتجاه الجنوب الغربي ويعبر آخر سلسلة جبلية حدودية في الاتجاه نفسه إلى أن يصب في دجلة. وتنبع روافده اليمنى كلها من جبال (أردلان)، ويعتبر رافده الأول نُهير سنه أو (ميابو ريوان) الذي يقسّم مدينة سنة إلى شطرين من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ويصب فيه بعد ثلاث كيلو مترات نُهير آخر هو (قشلاخ) قبل أن ينصب في (ديالى). أما الرافد الثاني لنهر (ديالى) فهو نهر (هورامان) الذي

يطلق عليه في مجراه الأعلى اسم (رزاو) وتتجمّع في هذا النهر مياه المنطقة التي يحمل اسمها، ثم تزداد كمية مياهه بعد أن يلتقي به كل من نُهيري (جوانرو) و (مريوان). وهذا الأخير عبارة عن نُهير صغير يخرج من بحيرة (زريبار) التي تبلغ مساحتها حوالي ٥٠ كم٢، ثم يصب هذا النهر بحجمه الكبير في نهر (ديالى). أما روافد (ديالى) التي تجري في أراضي (أردلان) فهي (ليله سو) الذي تنبع مياهه من جبل (شاهو)، و (رنكان) الذي يأتي من جبال دالهو، والنُهير الصغير الذي يسمّى بالزاب أو (جومى زريشك) وينبع هذا الأخير في المنطقة الواقعة بين جبال (دالهو) و (داروجان) ثم يقطع في مسيره سلاسل (آهنكران) و (بزنيان). وعلينا أن لا ننسى أخيرا أنه يوجد بالقرب من حدود كردستان كرمنشاه رافد آخر لنهر (ديالى) يعرف باسم (حلوان) أو (ألوند) وتقع منابعه في جبل (كيررا) الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ١٩٠ ذراعا. وبعد انحدار سريع يسير نهر حلوان هذا في مقاطعة (جلكه ي علي) و (سربل)[١٢] وقصر شيرين ثم يصب في (ديالى).

مناخ كردستان أردلان مناخ قاريّ بصورة واضحة مع شتاء قارص البرد. ويسقط الثلج فيه خلال أربعة أشهر من السنة وتحتفظ القمم العالية، وبخاصة تلك التي لا تتعرض للشمس إلا قليلا، بالثلج طوال أيام السنة. ويغذّي هذا الثلج منابع وشرايين العديد من الأنهار والنُهيرات المهمّة. وفي السهول والأجزاء المنخفضة من الإقليم يبقى الثلج حتى أواسط الربيع، ويبلغ سمكه أحياناً ذراعين تقريباً. ونجد هذا المناخ القاسي بوجه خاص في القسم الغربي من أردلان (هورامان) حيث لا يكتشف المسافر في الغالب خلال فصل الشتاء الأماكن المسكونة التي يغطّيها الثلج إلا بواسطة الدخان الذي يصعد منها، وبذلك تكون المواصلات بين أجزاء المنطقة جد صعبة أو متقطعة في أحسن الأحوال. لذلك فإن الهم الرئيسي لسكانها هو التزود بالمواد الغذائية الكافية لموسم الشتاء وكذلك الكساء والوقود، لأن الوضع يستمر غالبا بهذه الصورة. ويكفي أن يحصل عجز في غلة أحد هذه الأماكن النائية حتى تسوده المجاعة والهلاك بسبب الانعزال عن المحيط، ويصحّ ذلك بوجه خاص بالنسبة لسكان القرى المستقريّن. أما السكان الرحّل، فنظرا لتعوّدهم على التنقل بين المصايف والمشاتي، يكونون في العادة أفضل تجهيزا وأكثر مقاومة لبرد الشتاء القارص وحر الصيف اللاهب. وبوجه عام فان الهضاب العالية والسفوح الجبلية أكثر تعرضا لتقلبات المناخ، بينما تكون الوديان، وبخاصة في القسمين الأوسط والجنوبي الشرقي اللذين يكونان أردلان الحقيقي، بمأمن، ويتمتعان بمناخ أكثر اعتدالا ويكونان أكثر صلاحا للزراعة لتوفّر الرطوبة. يعرف مناخ كردستان أردلان نوعين من النظام. في بعض الأجزاء (في السهول وسفوح الجبال الواسعة والوديان) يكون المناخ قاريا جافا وتتأرجح درجات الحرارة بين ٣٢م و٢٢م، بينما يكون الهواء في الوديان الأفضل وقاية وتحرزا، أكثر جفافا، والخضراوات أوفر، كما توفر الغابات الوقود أيضا، بيد أن هذا التقسيم ينبغي أن لا يؤخذ بالمعنى الضيّق للكلمة، لأن لكل مقاطعة تقريبا وجهتها الخاصة بها. كما تتميز التربة والمياه الجوفية فيها بنظام مناخي خاص

(١٢) هذه هي التسمية الفارسية، أما الأكراد سكان المنطقة فيقولون (سه ربيل) - المترجم.

بها. وهكذا فإن منطقة مدينة (سنه) التي تتعرض للشمس خلال السنة أكثر من غيرها، لها مناخ أكثر اعتدالا من مناطق (هورامان) أو (مريوان). وبوجه عام إن السفوح الشرقية لجبال (زاغروس) أفضل مناخا من سفوحها الغربية[١٣].

خامساً - منطقة السكنى الحالية للكرد:

نعتذر للقارئ عن دخولنا في تفاصيل الجغرافيا الطبيعية لكردستان، ولكن ليس أمامنا خيار آخر إذا ما أردنا أن نصور له بصورة حية ملامح هذه البلاد التي رغم أنها مقسّمة بحدود سياسية، لكنها متجانسة بسبب طابعها الجبلي، على اختلافها من حيث طبيعة جبالها والمياه الجوفية الموجودة فيها. وضمن هذا الإطار الطبيعي الذي يضم قمما عالية وسهولا مرتفعة ومضايق وممرات ووديانا عميقة واسعة ،تأتي الواحدة منها تلو الأخرى، اتخذ الشعب الكردي منذ بداية تكوّنه موطنه المفضل لديه. فإذا كان المجرى الأعلى لنهر الفرات وحوض بحيرة وان (أي بلاد الاورارتو ثم أرمينيا) هي المناطق التي استقر فيها الكرد بصورة مبكّرة [راجع الفصل الأول من هذا الكتاب]، إلا أنّ من الضروري البحث عن موطنهم الأصلي في حقبة تاريخية في الفروع الجنوبية لسلسلة جبال طوروس وفي البلاد الجبلية الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة (على امتداد أنهار بوتان والخابور والزاب الأعلى). وإذا ما عدنا أكثر إلى فجر التاريخ، وجدنا أن الوطن الأول لهذا الشعب يقع في مكان أبعد من ذلك شرقا وجنوبا. ويقابل هذه المراتب الثلاث لأسلاف الكرد من حيث الزمان، ثلاث مناطق استقروا فيها من حيث المكان وهي الهضبة العليا لأرمينيا وكردستان تركيا وجبال ايران الغربية.

وباختصار، انتشر الكرد من الجنوب إلى الشمال في موجة واسعة على رقعة كبيرة تشمل الحدود العراقية الايرانية ابتداء من مدينة (مندلي) شرقي بغداد، ويشمل فيما بعد الخط الذي يفصل بين ايران وتركيا حتى جبل آرارات وحتى الحواشي الجنوبية للقفقاس (أرمينيا وأذربيجان السوفياتيتين). وكان الكرد يعيشون حتى الحرب العالمية الأولى في الهضاب الأرمينية مختلطين مع الأرمن[١٤]، إلا

(١٣) رابينو، في تقريره عن كردستان عام ١٩١٢، الذي يوضّح فيه جغرافية كردستان أردلان.

(١٤) نعرف أنه خلال الحرب العالمية الأولى أبعد الأتراك الأرمن من أرمينيا، وهم الآن لا يوجدون تقريبا في تلك البلاد وعلى الأقل في القرى. ولكن الكرد أيضا تعرضوا بعد انتهاء الحرب إلى التهجير الإجباري صوب الغرب، وهذا مالا يعرفه الكثيرون. فخلال شتاء ١٩٢٦-١٩٢٧ وبخاصة بعد قمع ثورة الشيخ سعيد بيران، أبعدت السلطات العسكرية الكمالية حوالي مليون رجل وامرأة وطفل كردي باتجاه غربي الأناضول بعد تعرضهم لهجمات شرسة، على غرار تلك التي تعرض لها الأرمن المهجرون خلال الحرب. وقد نشرت اللجنة الوطنية الكردية المسماة (خويبون) قوائم بأسماء القرى المهدمة مع ذكر عدد الضحايا في كراس يحمل عنوان (مسألة كردستان تركيا) باللغة الإنكليزية. ويتكون الكراس من سبع صفحات ١٨ إنج وفي مايس ١٩٣٢ نشر في تركيا قانون بخصوص تهجير الكرد أدى إلى ظهور مقاومة >

أن الخط الموازي لأرضروم يعتبر حدهم الشمالي في تركيا. أما جنوبا فقد نزل الكرد إلى سهول بلاد ما بين النهرين. ومن جهة الغرب يمكن تحديد وجودهم بوجه عام بنهر الفرات (وبصورة أوضح نهر قره سو). إلا أنهم يمتدون أعمق من ذلك في آسيا الصغرى ويقطنون المنطقة الجنوبية الشرقية من (سيواس) وينتشرون أيضا كمجموعات متفرقة قرب (قونيه) و (سيليسي) واصلين تقريبا إلى البحر الأبيض المتوسط. ومن جهة الشرق، توجد عناصر متناثرة من الكرد في خراسان (أبعدهم إلى هناك الشاه عباس الصفوي)، وبالقرب من قزوين وإقليم فارس (بالقرب من كيالون - اندو، أبعدهم نادرشاه ١٧٣٦ - ١٧٤٧) وكذلك في مازندران.

ويمكننا بوجه عام التأكيد على أن الكرد والجبل لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وحيثما يبدأ السهل يخلي الكرد المكان للعرب أو الترك أو الفرس. وعلى ضفاف بحيرة وان ينسحبون جنوبا أمام الأرمن[١٥].

في قطعة شعرية وردت في كتاب (شرفنامه)[١٦] حدّدت لنا حدود كردستان على النحو التالي: "هل تريد أن تعرف أيّها الكردي ما هي الأماكن التي يقطنها أقرباؤك؟ استمع إلي أذكرها لك: تمتد حدود كردستان غربا إلى الاسكندرونة وجبال طوروس صوب البحر الأسود، وشمالاً أردهان وآراس، وشرقا من جبال الوند حتى آراس، وفي الجنوب من الأهواز حتى الفرات. إن الحدود الجنوبية تمتد إلى جبال حمرين وسنجار وطريق نصيبين".

فإذا ما تذكّرنا هذه الشبكة من الجبال والأنهار التي حاولنا وصفها، أمكننا رسم لوحة للمناطق التي يقطنها الكرد بموجب مبادئ الجغرافية السياسية والإدارية.

في تركيا[١٧] يعيش الكرد في مجموعات مكثّفة في القسم الجبلي من ولاية الموصل (التي تشكل

< مسلحة لدى محاولة تنفيذه من قبل السلطات التركية. (ويمارس النظام الحالي نفس السياسة بشكل أكثر قساوة منذ أواسط الثمانينات تهدف تطهير المنطقة من الكرد وهو ما فعله النظام البعثي في العراق منذ أواسط ١٩٦٣ - المترجم).

(١٥) ورد في نص كردي أورده (روندو) في كتابه (قبائل جبلية) باللغة الفرنسية: "هذه ليست بلادي، انها أعراف وقوانين البلاد المنخفضة، ولكن البلاد العليا تظل القلعة العزيزة على قلبي".

(١٦) الصفحة ٥٨٧-٥٨٨ من طبعة القاهرة للناشر فرج الله زكي الكردي (الحقيقة أن هذه القطعة الشعرية التي أضافها الناشر إلى الكتاب ناسبا إياها إلى الشاعر الكردي المعروف حاجي قادري كوي المتوفى في عام ١٨٩٧ هي لشاعر كردي أكثر حداثة هو عبد الخالق أثيري الكركوكي المتوفى في عام ١٩٦٢. وقد بنى محتواها لا على معلومات جغرافية أكيدة وانما على معلوماته العامة ومسموعاته الممزوجة بقدر كبير من العواطف القومية المجردة - المترجم.

(١٧) الولايات التركية المذكورة أعلاه تمثل المعلومات الجغرافية الإدارية القديمة للإمبراطورية العثمانية. أما في ظل النظام التركي الحالي فقد زادوا عدد الولايات مع تصغير حجم كل منها. والولايات التي يشكل >

حاليا جزءا من العراق)[١٨]، على امتداد جبال زاغروس وتشعّباتها. وفي ولايتي (وان) و(تبليس) لا يشكل الأرمن الأغلبية إلا في محيط البحيرة، ولكنهم يشكّلون الغالبية الساحقة في سنجق (هكاري) القريب من الحدود الايرانية وكذلك في المناطق الجبلية من ولايتي (وان) و (بدليس). وكان النساطرة يشكلون قبل الحرب العالمية الأولى حوالى ٩٠٪ من سكان (جوله مرك) جنوبي (هكارى) وقد أجبروا منذ ذلك الوقت على ترك ديارهم والنزوح إلى سوريا للاستقرار في إحدى مناطق الجزيرة. وفي ولايتى (ديار بكر) و (خربوط) يشكّل الكرد الغالبية من السكان. وتقع مدينة (الجزيرة) الصغيرة في ولاية (ديار بكر) على نهر دجلة وتعدّ مركزاً لمنطقة (بوهتان) التي يطلق عليها في الخرائط القديمة (إمبراطورية بوهتان) باللغة اللاتينية وتعتبر بمثابة المهد للعرق الكردي، وبدأت من هناك جميع التحركات الكردية المشهورة. وفي ولاية (خربوط) ينبغي الإشارة إلى أن الكثافة السكانية لمقاطعة (درسيم) الواقعة بين الفرعين الأعليين لنهر الفرات تبلغ بالنسبة للكرد ثمانية أضعاف العناصر الأخرى. ويتكلّم هؤلاء الكرد بلهجة خاصة تسمى لهجة (زازا) ويدينون بمعتقد خاص هو (علي اللهي)[١٩]. ولكن ذلك لا يعني وجوب عدم اعتبارهم كرداً. وفي ولاية حلب (التي يقع

< الكرد غالبية سكانها أو أكثريتهم الساحقة هي (أرضروم) وفيها سبعة أقضية بـ ٦٧٢,١٤٢ نسمة، و (ارزنخان)، بخمسة أقضية وفيها ١٥٨,٣٨٣ نسمة، وسيواس وفيها عشرة أقضية نفوسها ٤٣٥,٦٢٩ نسمة، و (قارص) بتسعة اقضيه وفيها ٣٠٦ ٤٤٤ نسمة، و (آكرى) بخمسة اقضية وفيها ١٠٦ ٧٢٩ نسمة، و (وان) بتسعة أقضية وفيها ٦٧٢,١٤٢ نسمة، و (موش) بتسعة اقضية وفيها ١٤٣ ٥٢٧ نسمة، و (سعرت) بسبعة اقضية وفيها ١٢٧ ٧٢٨ نسمة، و (ديار بكر) بخمسة اقضية وفيها ٢١٤ ٨٧١ نسمة، و (ماردين) بسبعة اقضية وفيها ٢٢٦ ٠٣٠ نسمة، و (أورفه) بسبعة اقضية وفيها ٢٢٩,٢٠١ نسمة و (العزيز) بعشرة اقضية وفيها ٢٥٣ ٦٩٣ نسمة (وخربوط واحد من اقضية هذه الولاية). [هذا الإحصاء السكاني الذي اعتمده المؤلف، يعتبر اليوم قديما،ولم تعد الأرقام التي أوردها تمثل حقيقة الوضع السكاني لهذه الولايات الكردية في الوقت الحاضر - المترجم]. راجع بهذا الشأن العدد ١٠ للسنة الأولى من مجلة (هاوار) الكردية الصادر في تشرين الأول ١٩٣٢ في دمشق.

(١٨) أحصت النشرة الرسمية (دليل العراق لسنة ١٩٣٦) نفوس الكرد في العراق بـ ٦٤٠,٠٠٠ نسمة أي ١٦٪ من نفوس العراق البالغة أربعة ملايين نسمة يعيشون بصورة أساسية في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد، أي ألوية الموصل وأربيل وكركوك والسليمانية. وقد أوردت النشرة المشار إليها أسماء عدد من العشائر الكردية: هورامان، بلباس، داوده، دزه يي، هموند، جاف، بشدر، بروارى بالا، بروارى زيري، بارزان، هركي، سورجي، سندي، كللي. ويعيش في بغداد حوالي خمسة آلاف كردي (يبلغ عددهم اليوم قرابة نصف مليون - المترجم). أما في أطرافها، فهم منتشرون بين السكان العرب. ويعيش بعض العشائرالأخرى (زنكنه، دلو ..الخ) في شرقي الطريق التي تربط بغداد بإيران (إن أسماء العشائر التي أوردها المؤلف لا تشمل جميع العشائر الكردية في كردستان العراق - المترجم).

(١٩) إن كتاب (تاريخ كردستان، درسيم) باللغة الكردية، الذي يحوي معلومات كاملة عن تاريخ المنطقة، لا>

قسم منها حاليا ضمن حدود سوريا) انسحب الكرد لحساب العرب، ولكنهم يشغلون مع ذلك حوالي ألف قرية يبلغ تعداد سكانها ١٢٥,٠٠٠ نسمة. ويشكل الكرد الأقلّية في ولاية (سيواس) حيث يبلغ عددهم ٣٠,٠٠٠ نسمة منتشرين في اقضية (كانكەل) و (كوج حصار) و (زازا) و (ديفريك). وكان الكرد يكوّنون في القسم الشرقي من ولاية (أرضروم) الأغلبية السكانية (٣٠٠,٠٠٠ كردي و ٢٠٠,٠٠٠ أرمني و ٢١٠ تركي)، لكننا نجهل التناسب الحالي للسكان فيها. وفي سنجق (بايزيد) يشكل الكرد خمسة أضعاف القوميات الأخرى (وسوف نعود إلى ذكر بايزيد عند الكلام عن الأدب الكردي). وتوجد في سوريا تجمّعات كردية متفرقة، وهناك في دمشق حي خاص بالكرد.

أما في إيران فان الكرد يمثلّون الأكثرية المطلقة في ولايتى (كرمنشاه) و (كردستان) [سنه]، وكذلك في مقاطعة (كروس) وبعض أجزاء أذربيجان وبخاصة في مقاطعة (ساوجبلاغ) [كردستان موكري]، في جنوبي بحيرة أورروميه وغربي (تهتو)، وفي منطقة طويلة نسبيا وبعرض ٢٠ إلى ٤٠ كيلو مترا على الحدود الإيرانية – التركية في غربي بحيرة أورروميه (رضائية حاليا)[٢٠]، وسلماس وخوي وماكو. إن المنطقة الوحيدة التي يقطع فيها الترك الوجود السكاني للكرد هي المنطقة التي تعيش فيها عشيرة (آيروملى). وفي الجنوب يسكن الكرد وطن أجدادهم [راجع الفصل الأول من الكتاب] ويسكنون الجانب الغربي من الدائرة التي تشكل وطن الميديين. فهل يمكن اعتبار الكرد أحفادهم المباشرين؟ ويختلف الكرد الذين يعيشون في الجنوب الشرقي من المنطقة عن الجماهير الأساسية المتجانسة مع بني قومهم، سواء من حيث اللغة أو من حيث الدين إلى حد ما لكونهم من الشيعة أو من جماعة (العلي اللهيّة) ولكنهم ينتمون للعرق نفسه الذي ينتمي إليه أولئك.

بالنسبة إلى شمالي إيران كـ (سلماس) مثلا، كان في بداية القرن الأول الميلادي مايزال يعتبر ضمن المنطقة الحدودية المستقلة تقريبا التي كان الأرمن يطلقون عليها اسم كورجييا (Kortchea) أي كردستان. وبالمقابل ففي عهد أقرب نسبيّاً كان الكرد تجاوزوا جنوبي بحيرة أورروميه. وإلى يومنا هذا يلاحظ بقاء آثار الأسماء التركية واضحة في أطراف ساوجبلاغ، علماً بأن الموسوعة التاريخية الكردية (شرفنامه) تذكر صراحة أن عشيرة موكري (التي تربطها صلة قربى بأسرة بابان في السليمانية)[٢١] لم تظهر إلا خلال حكم مملكة القره قوينلو والآق قوينلو (الخروف الأسود والخروف الأبيض) أي في حوالي القرن الخامس عشر. ونظرا لحدوث هجرات متأخرة من الغرب إلى الشرق بكثرة، فقد اختلطت الأنساب فيما بين القبائل المهاجرة.

‹ يشير إلى (علي اللهي) بل يذكر اسم العلوي أو القز لباش (ص ٢٥ و ٢٦) "وقد أخبرني درويش من أهل الحق في تركيا أنهم يدعوننا بالعلويين"، مينورسكي، ملاحظات حول أهل الحق (بالفرنسية).

(٢٠) عاد الاسم كما كان فيما مضى فصار (أورروميه) من جديد بعد الثورة الإسلامية في ايران – المترجم.

(٢١) تشير بعض المصادر (مثلا: بندر) في كتابه "رحلة إلى كردستان"، ١٨٨٧، إلى كردستان تركيا [الأصح العثمانية – المترجم] ويحددها بالمنطقة الجبلية الجنوبية الشرقية إلى الشمالية الغربية التي تقع بين ›

وأخيرا نجد الكرد في روسيا في أجزاء عديدة من حكومة (يريفان – أرمينيا – السوفياتية سابقا [المترجم]) في جوار آرارات في مقاطعات (أردهان) و (كاكيزمان) من أعمال (قارص) التي أعيدت فيما بعد من قبل السلطة السوفياتية إلى تركيا، وفي مقاطعات (زنكزور) و (جوانشير) – حاليا (كنجه) – في أذربيجان السوفياتية (سابقا – المترجم).

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار وجود مليون وسبعمائة ألف كردي في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى وجود مليون آخر في ايران، أمكننا تقدير نفوس الشعب الكردي بصورة إجمالية بين مليونين ونصف المليون إلى ثلاثة ملايين كردي. ويقدّر الكتاب الكرد عدد نفوس شعبهم عام ١٩٣٠ (كما يظهر من حواشي كتاب شرفنامه، طبعة القاهرة، ١٩٣٠) كما يلي:

في ايران ١,٥٠٠,٠٠٠
في الاتحاد السوفياتي ٢٥٠,٠٠٠
في تركيا ٤,٥٠٠,٠٠٠
في العراق ٥٠٠,٠٠٠
في سوريا ٢٥٠,٠٠٠
المجموع ٧,٠٠٠,٠٠٠

ومن وجهة نظرنا أن تقدير نفوس الكرد في تركيا بأربعة ملايين ونصف، فيه الكثير من المبالغة، وينبغي إنقاص هذا العدد إلى النصف، وبذلك يصل مجموع نفوس الكرد إلى خمسة ملايين كردي في جميع هذه الأقطار. وهذا التقدير مماثل للتقدير الذي ذكرته بعض الأوساط الكردية (في النشرة السابقة الذكر The case of Kurdistan) وهو: ٢,٩٨٧,٩٦٠ مليون في تركيا، و٢٨٩,٩٤٠ ألف في سوريا و٧٤٩,٣٨٠ ألف في العراق و١,٣٠٠,٠٠٠ مليون في ايران، و٦٠٠,٠٠٠ ألف في

‹ خطوط العرض الشمالية ٣٢ إلى ٤٠ و ٣٩ إلى ٤٦ من خطوط الطول الشرقية (ص ١٤٥). ثم يقول: "ان جميع الأراضي الواقعة على الحدود الإيرانية – التركية [الأصدق: العثمانية – المترجم] والتي تحدها في الشمال والغرب والجنوب ولايات أرضروم وسيواس وحلب، كانت تحمل في السابق اسم (أرمينيا) ويطلق عليها الأتراك العثمانيون اليوم اسم (كردستان) [ص ١٥٢].

ولتحديد خارطة كردستان، يمكن الرجوع إلى المراجع القديمة القيمة مثل كتاب (بورتر) المعنون (بغداد – طوروس) وكتاب (لايارد) المعنون (الموصل – رواندوز – شمدينان) أو المؤلف الأقرب إلينا تورو دانجين) في كتابه المعنون (علاقة الحملة الثانية لسرجون ٧١٤ ق.م)، وكذلك التقرير المقدم في تموز ١٩٢٥ إلى عصبة الأمم من قبل لجنة تحديد الحدود التركية – العراقية. وأشير أيضا إلى بحثي المعنون (وسائل المواصلات في كردستان) المنشور في مجلة (الجغرافية) الجزئين الخامس والسادس ١٩٣٥. وقد فتح فيما بعد طريق للسيارات من الموصل إلى ايران [يقصد المؤلف طريق أربيل – رواندوز (الحدود الإيرانية) المعروف بـ (طريق هاملتون) نسبة إلى المهندس البريطاني الذي أشرف على شقه – [المترجم].

أرمينيا. وبذلك يصل المجموع ٥ ,٣٨٧ ,٢٨٠ مليون نسمة. وينبغي القول أن الأرقام الواردة هنا تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى(٢٢)، ولكن الخسائر في الأرواح التي تعرّض لها هذا الشعب منذ تلك الحرب لم تعوض بالزيادة التي حصلت في نفوسه فيما بعد(٢٣).

(٢٢) ان هذا التقدير الذي يمثّل نفوس الشعب الكردي قبل الحرب العالمية الأولى لا يتناسب مطلقا مع العدد الحالي لنفوسهم، إذ تقدره الأوساط المطّلعة اليوم بحوالي أربعين مليونا في أجزاء كردستان وخارجها – المترجم.

(٢٣) يلاحظ كليرجه (في المرجع المشار إليه سابقا) أنه نظرا للمجاعة ولكثرة الدماء التي أريقت خلال الحرب الأولى وبسبب السيطرة المركزية للحكومة العثمانية، أصبحت أجزاء كبيرة من كردستان خالية من السكان. ومع ذلك فإن المعلومات الحديثة عن هذه البلاد تشير إلى ملء هذه الفراغات وازدياد نفوس السكان فيها. وحسب رأي صديقي الأمير كامران بدرخان، تقدر نفوس الشعب الكردي اليوم بين ٨ إلى ٩ ملايين نسمة (رسالته المؤرخة ٦ شباط ١٩٤٦).

الفصل الثالث

نمط الحياة والمشاغل ولأعراف والعادات

يمكن تقسيم الكرد إلى حضر وأنصاف رحّل، ويتناقص عدد الرحل منهم بصورة مستمرة، لأنهم يتحولون شيئا فشيئا إلى أنصاف رحّل. انهم يقضون الشتاء في السهول في بيوت من الطين، ويبذرون الأرض في الربيع، ثم يصعدون إلى المراعي العالية في الصيف بعد أن يتركوا بعض الرجال في الحقول ليحرسوها. وتكون هذه المراعي أحيانا قريبة من مناطق سكنهم الشتوي، ولكن في أغلب الحالات يرتادون الكلأ سالكين خطوط السير نفسها التي سلكتها الأجيال التي سبقتهم وعلى امتداد مسافات واسعة، كما هو الحال بالنسبة للعشائر التي تشتّي على سفح زاغروس الغربي في بلاد ما بين النهرين، والتي تصعد صيفاً صوب الجبال باتجاه الحدود مع ايران وداخل حدود إيران نفسها.

أولاً – الرحلات الكردية:

يصف لنا الكابتن ديكسن في مقاله المشار إليه آنفا، أرتحال عشيرة (هەركى) التي تشتي في شمال بلاد ما بين النهرين فيقول: "انهم يعبرون نهر الزاب الكبير بالقرب من (زيبار) حيث يقيمون في كل عام جسراً للعبور عليه، وهذا ما يستغرق منهم بعض الوقت. وينبغي عليهم أن تكون علاقاتهم طيّبة مع كرد المنطقة، من أتباع شيوخ بارزان [انظر الفصل الخامس] لأن بإمكان هؤلاء منعهم من اجتياز النهر، ثم يسلكون الطريق العلوي فوق (تەنكى بلندە) وينحرفون شرقا متتبّعين مسالك وادي (شمدينان) – أحد روافد الزاب الكبير – في قافلة طويلة من الرجال والبغال المحمّلة والخيول والمواشي.

ان قطعان الأغنام التي يتكون عدد كل قطيع منها ما يتراوح بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رأس غنم، ترعى على مسافات قريبة منهم على المنحدرات والسفوح، فيما يتولّى حراستها رعاة مسلّحون يترصدون على القمم. وعندما يصلون إلى محاذاة نهر (أورمار)، ينقسمون إلى قسمين، يصعد أحدهما باتجاه وادي (سات)، بينما يتوّغل القسم الثاني منها في وديان (هەركى) و (بيت كار) في سير بطيء ومتعرّج يتم على مراحل عدة حتى يصل إلى أعالي السفوح في شمال (سات داغ). إنّهم يتنقلون بكل حرية وكلّ حسب رغبته دون تقيد بنظام، كأنّهم قبضات نمل رشّت هنا وهناك. وتشاهد بين حين وآخر عائلتان أو ثلاث تنفصل عن الأخريات، مصطحبة معها كل ما لديها من أمتعة وأكياس قمح وخيم وبسط ولباد وملابس.. الخ، محمّلة على الخيول أو غيرها من الدواب. وتشاهد أيضا هنا وهناك نعجة مريضة محمّلة على الأمتعة التي تحملها دابة، والنساء في ثيابهن المهلهة يجرجرن أقدامهن بتعب

ظاهر، وهن يحملن على ظهورهن خليطا عجيبا من الحاجيات تشتمل على أسرّة الأطفال والأواني المنزلية وأوعية الحليب وعدّة الشاي والمغازل، وفوق كل ذلك الطفل الرضيع كملحق لا بد منه. وفي بعض الأماكن تقع العين أحيانا على صندوق ضخم فاقع الألوان يعود (للآغا) أي الرئيس، يحتوي على أجمل ملابسه مع من يقوم بواجب خدمته، ويسير الجميع على أقدامهم باستثناء المرضى، ذلك أن جميع الدواب وسائر الحيوانات من ذوات القرون تنوء بالحمل.

"أما الرجال فكلّهم مدججون بالسلاح من الرأس إلى أخمص القدم، وهم يتولّون الحراسة، وتلحظ ظلالهم تتسلل إلى القرى التي يمرهون بها وهم يتناقشون مع سكانها. ان بعضا من أولئك الرجال المسلحين المتأهبين يسيطرون على النقاط الاستراتيجية القريبة من مواقع السكان، ويبدو الجميع في حالة قلق وتشكّك. وبين فترة وأخرى تدوي طلقات الرصاص مجلجلة ومتقابلة. فقد صادفنا قطعانا من الأغنام في بقعة ساحرة في أعلى قمم الجبل، وطلبت من الراعي الذي كان يصعد صخرة، أن يتمهّل قليلا لألتقط صورة لهذا المشهد الرائع، فإذا به يتدحرج كالأرنب البرّي إلى أسفل وهو يرسل صيحات النجدة ويحرّك بندقيته لتحشيتها، ولم يتوقف إلا بعد أن غدا على بعد ٤٠٠ متر عنا، وعندئذ تهيّأ ليسدّد بندقيته صوبنا. وتبدو قطعان الغنم في هذه الرحلات منهكة القوى، وكثير من الدواب يتساقط على الطريق فتحطّ عليها أسراب النسور والبواشق. انّ هؤلاء الرحّل لا يحطّون الأحمال عن دوابهم أثناء الليل بل يضربون خيمهم إلى جانبها ويلفوّن أنفسهم باللباد الطويل".

لننتقل الآن من أطراف ما بين النهرين إلى كرد القفقاس. وهذه صورة من حياتهم السابقة يصفها لنا أحدهم بعد أن غدا كاتباً. إنه (عرب شمو) الذي يتحدث لنا عن ذكريات شبابه في مؤلفه الموسوم (الراعي الكردي)[1]:

"ما ان تذوب الثلوج وتخضرّ الأرض وتزهر الأشجار، حتى يدّب النشاط في القرية الكردية... ومنذ الصباح الباكر تبدأ الحركة في كل مكان، ويستعد الكرد للانتقال بقطعانهم إلى المكان الذي يسمّونه (دولكا) حيث تضع المواشي الصغيرة ذوات القرون حملانها.. ويعتني الكرد كثيراً بالحملان في الـ (دولكا)، فيقدّمون لها أحسن ما لديهم حتى تنمو بأسرع ما يمكن وتقوى أجسامها بحيث تكون قادرة على تحمّل الانتقال المنهك إلى أعالي الجبال عندما يشتد الحر..

"في مراعي الصيف يتجمّع الكرد في مجموعات خاصة تدعى (أوبا) تتكون من ٤٠ إلى ٨٠ مالكاً ليقوموا برعاية مواشيهم بصورة مشتركة في المراعي الجبلية. ويرأس كل جماعة من (الأوبا)

(١) ألّف عرب شمو كتابه هذا بلغته الكردية في بادئ الأمر، ثم ترجم إلى اللغة الروسية. وقد ترجمه من الروسية إلى الفرنسية. وقد أعيدت ترجمته من الفرنسية إلى الكردية وطبعت في بيروت. [أعيد طبع الكتاب في باريس عام ١٩٨٩ مع النص الكردي وترجمته الفرنسية من قبل المعهد الكردي في باريس – المترجم].

أغنى الأعضاء وأوسعهم نفوذا، ويسمّى (أوباباشى)، وتكون جميع الأمور من اختصاصه، كتوزيع الرسوم على الأعضاء وتعيين أماكن الرعي لهم مع تحديد الفترة الملائمة للانتقال بالمواشي من مرحلة إلى أخرى. ويتم نصب هذا الرئيس عن طريق الانتخاب، وهو منصب شرفي، وعلى الجميع إطاعة أوامره دونما نقاش".

"ويكون (الأوباباشى) في غالب الأحيان رئيس فخذ من العشيرة وأغناهم. ويتوجّب على الرعاة أن يقوموا، إضافة إلى مهامهم المباشرة، بكل عمل يخص المرعى، أو بذل العناية اللازمة لمواشي الأوباباشي بدون أي مقابل، كنقل مواشيه إلى المرعى أو إحصائها مساءً وتقديم تقدير إليه، بالإضافة إلى تنظيف حظائر النعاج المسماة (آغل) ونقل الفضلات والأرواث بعيدا عن مضارب العشيرة".

ثانياً– طقوس حياة الرعاة:

"بعد الوصول إلى الدولكا وبدء موسم الحملان، تستوجب التقاليد المحلية من كل كردي ميسور الحال أن يذبح خروفا ويقيم وليمة يدعو إليها جيرانه ورعاته.ويتولى المضّيف وزوجته خدمة ضيوفهم ويحثونهم على تناول الطعام. وهذه الوليمة التي تقام غالبا في الهواء الطلق، يتبعها انطلاق الشباب في الرقص والأغاني الشعبية. وفي نهاية الحفلة يشكر المدعوون المضيف على حفاوته، ويتمنّون للمضيفة أن تعدّ في الصيف كثيرا من الزبدة والجبن، وأن تكون مواشيهم بعيدة عن الأمراض وينهوا مرعاهم الصيفي بسعادة".

"ويطلق على هذا الاحتفال باللغة الكردية "سەرى بەز" أي بداية نمو المواشي. وقد حضرته لأول مرة في حياتي ودهشت به كل الدهشة. ولكن الأب والأم كانا يبتسمان ويقولان أن "سەرى بەز." ليس بالعيد الكبير، فعّما قريب يحل الـ (برو–دان) أفضل أيام السنة. لذلك كنت أنتظره بفارغ الصبر"

" وبعد أن تنمو الخرفان وتقوى ويزداد ذوبان الثلوج في الجبال، يحدّد (الأوباباشى) يوم (برو–دان) أي يوم الرحيل من الدولكا باتجاه المراعي الجبلية ويكون الاستعداد لهذا اليوم قد بدأ منذ أسبوع، وها قد حل يوم الاحتفال. منذ الصباح الباكر يرتدي الجميع أفضل ملابسهم وتزّين الفتيات اللواتي لبسن ملابسهن الزاهية رؤوسهن بالزهور البرية النضرة ويعلقن بأنوفهن، الخزامة والقطع الذهبية المستديرة ومعها حلقات ذهبية، كأقراط، وتهيئ الموسرات منهن أنوف بناتهن منذ الطفولة لهذه الغاية. كذلك تزين الخراف والنعاج والمعزى بخصل الصوف المذهّبة وتعلّق في رقاب أفضل الكباش الجلاجل النحاسية ثم يتركون النعاج والحملان لتعود إلى القطيع المشترك ثم يحدد موعد السير".

"وعندما تكون الشمس قد تجاوزت الأفق صوب كبد السماء، تكون الاستعدادات قد أوشكت على الانتهاء. وفي مثل هذا النهار الربيعي اذ تكون السماء صافية والهواء منعشاً ومعطّرا بأريج الأزهار البرية التي تفتحت براعمها للتو، تحين ساعة الاحتفال وقد أصبح كل شئ جاهزا. فيعطي

(الأوباباشى) إشارة البدء بالرحيل ويتقدّم موكب (برو–دان) الراعي الرئيس في أحسن ثيابه وفي يده مزماره. انه يقوم بدور القائد ويعطي تعليماته إلى الفتيان في طريقة معاملتهم للحملان أو النعاج التي ترفض إرضاع صغارها. ويأتي خلف الراعي الرئيسي اكبر وأجمل كبش وهو ما يسمى بالكردية (نيري) وقد علّق في رقبته جرس يرسل رنات عالية. وقبل الانطلاق مباشرة، يخاطب كل مالك رعاته بالقول: "أني إذ ائتمنك على قطيعي، أطلب منك أن تؤدّي واجبك بأمانة وشرف".

"وبعد انتهاء هذه المراسم يبدأ الراعي الرئيسي بالعزف على مزماره فيتحرك الموكب، ويسير القطيع بانتظام خلف الراعي الذي يصاحبه الفتيان، بينما يحيط مساعدو الرعاة والصبايا بالجوانب ليحافظوا على سير المسيرة، وأحيانا يلوحون بقضبانهم أو يصفرون بطريقة خاصة ليمنعوا أي خلل في القطيع"

"ورغم انقضاء سنوات عديدة على اليوم الذي رأيت فيه لأول مرة موكب (برو–دان)، ماتزال الصورة عالقة بذهني، وكأنني أرى الآن مشاهد الأطفال المشرقة والشباب والرعاة بملابسهم الزاهية وأغانيهم الشعبية تحت ضوء أشعة الشمس الساطعة، حيث كان الوادي مغطّى بطبقة من الخضرة، بينما كانت الجبال التي تمتد أمام نواظرنا من بعيد ماتزال مكسوة بالثلوج. أما ثغاء الحملان والنعاج وصفير الرعاة وأغانيهم مع الفتيان، فكانت تتجاوب من بعيد في الوادي العميق ويأتي الأهالي من أماكن سكناهم مسرعين لمشاهدة هذا الموكب المبهج"

"لم تكن هذه المواكب تتكرر في السنة إلا مرتين، في الربيع عندما تنتقل القطعان إلى مراعي الصيف، وفي أواخر الخريف عندما تعود إلى القرية. ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن ثروة الكرد تتجلّى في قطعان مواشيهم. ان إيرادا جيدا من الحليب يضمن لهم خلال سنة كاملة ذخيرتهم من الدهن والجبن، بالإضافة إلى بيع الفائض منها في المدينة فضلاً عن الصوف، كما يضمن لهم المواشي المخصصة للذبح من اللحوم. وبذلك يتمكن الكردي من دفع الضرائب المفروضة عليه وتوفير اللوازم التي تحتاج إليها أسرته من المدينة. ولهذا السبب لا نستغرب إعطاء مناسبات خروج قطعان الماشية إلى المراعي صيفا وعودتها خريفا مثل هذه الأهمية في حياة القرية الكردية واعتبار أيام (برو – دان) من أيام السنة المهمة.

"لم تكن الطريق طويلة في المرحلة الأولى من السير. فبعد أن صحبنا الشباب بضجيجهم بضعة كيلو مترات، عادوا إلى بيوتهم من حيث أتوا. بينما استمر الرعاة ومساعدوهم المكلفون بالتموين في سيرهم ببطء. وقد اكتفينا في اليوم الأول بالسير مسافة قصيرة، ثم مدّدت مسافة السير في الأيام التالية. كل ذلك من أجل أن تتعود الخرفان الصغيرة على السير دون كثير إرهاق.

"تتبع قطعان الماشية الواحدة منها الأخرى بمسافات قصيرة. وفي أول توقف لها تترك الدواب لتستريح وترعى من الأعشاب. وخلال هذه الفترة كان والدي بوصفه الراعي الرئيسي، ينهمك في تقسيم المواد التي قدّمها المالكون هدايا للرعاة بصورة متساوية، كالخبز واللحم والـ "هلوا" التي هي

صنف من الحلوى الجوزية، والفواكه المجففة، لقد كان والدي يقوم بمهمة المرشد للطريق والمشرف على نصب الخيام في أول تعسكر لنا لحين وصل أصحاب المواشي، وكان الرعاة يأتون إليه في المساء لتلقّي التعليمات منه، وكانوا يوجّهون اليه العديد من الأسئلة: كم مرة ينبغي أن نتوقف من أجل استراحة الماشية وبخاصة الحملان منها؟ كم مرة نتوقف لسقي الماشية؟ وهل نتوقف خلال النهار لإستراحة النعاج والخراف؟".

"في أول تخييم لنا، لم نبق وحدنا لفترة طويلة، إذا انضم إلينا أصحاب المواشي مع عوائلهم بعد أربعة أيام وانهمكوا في نصب خيامهم السود. ان الخيمة الكبيرة التي تضم أكثر من قسمين تنسج عادة من صوف الماعز وتسمّى (كونى). وخيمة الكردي الميسور الحال تكون عادة كبيرة ومقسمة إلى عدة أجزاء ومفروشة بالبسط واللباد (كوشمه)، ويكون أحد أجزائها الجانبية مخصّصاً للضيوف، وقسم آخر منفصل أيضا يتّخذ مخزنا للمؤونة من منتجات الألبان: الزبد والجبن واللّبن الرائب. أما بالنسبة للأقل يسارا فتكون الخيمة أصغر وتشمل قسما للسكن وقسما آخر مخزنا للمؤن"؟

وكانت الخيم تنصب على انفراد أو في مجموعات صغيرة على منحدر الجبل أو في السفوح أو الممرات ذوات الصخور العالية حيث تجري السيول الصاخبة والجداول النازلة من الجبال. ومن بعيد تبدو مجموعة الخيام هذه وكأنها معسكر للجيش".

ثالثاً – أهمية تربية المواشي:

توفر قطعان الماشية للكرد كل ما يحتاجون إليه من أسباب العيش. وأهم الحيوانات الرئيسة الأليفة لديهم هي الخيل والحمير والماعز والغنم ذوات الألايا والكلاب. أما الجمال والأبقار فهي قليلة لديهم[٢]. وللخيل أهمية خاصة لدى الكرد، وتستخدم للركوب فقط وأحيانا كدابة لنقل الأشياء ويستخدم حليب الفرس في بعض الأحيان كشراب غذائي، ولكن أقل بكثير مما لدى بدو تركستان. أما في أرمينيا فان تربية الخيول تعد من الأمور النادرة. ونظرا لأن بلاد الكرد معرضة دوما لظروف طارئة، كما أن المناطق التي فيها سلطة إدارية تخضع لضرائب كثيرة وتسخر فيها أفضل الدواب الموجودة للأغراض العسكرية، فقد قلّ اهتمام الناس بتربية الخيول. وتربي الخيول بوجه خاص في المناطق التي تقع على الحدود الإيرانية – التركية حيث الطرق مهيأة هناك أحسن مما في غيرها، ولأن العشائر التي تعيش فيها ماتزال تحتفظ باستقلالها النسبي. وقد اشتهر بتربية الخيول الكردية العشائر التي تقطن جبال زاغروس وكذلك أبناء عشيرة (حيدر انالي) التي تقطن منطقة (آلاداغ) بين بحيرة وان وجبال آرارات. إن الهضاب العالية المعشوشبة ذات المساحات المحدودة نسبيا أفضل لتربية

(٢) يبدو أن ما يعنيه المؤلف هو الجواميس التي تربى في بعض مناطق كردستان وليس الجمال التي لا يستخدمها الكرد أبدا – المترجم.

الخيول من الممرات والوديان العميقة في البلاد. وتشبه الخيول الكردية الخيول العربية[٣] إلا أنها أصغر منها حجما واكثر منها قوة بالمقابل. وقد تآلفت الخيول الكردية مع طبيعة البلاد. ولذلك فعندما يجد من يمتطيه صعوبة بالغة في اجتياز موقع ما، فانه يسلك سلوكا هادئا مرنا اكثر مدعاة للاطمئنان والثقة مما في المواقع الأخرى. ويعد الكرد بوجه عام فرسانا مهرة، والرحالة الذين زاروا المناطق الكردية التي تربى فيها الخيول لم يكفّوا عن الإشادة بمآثرهم في الفروسية.

وفيما بين الحكايات الواردة في (شرفنامه) "طبعة القاهرة، ص ٣٧٧"، أن زعيما كرديا في منطقة موكري هو امير بيك بن شيخ حيدر الذي كان في ائتلاف مع الترك، هاجم الفرس في عز الشتاء في منطقة (مراغه) وجلب معه عند عودته كغنائم حرب، جيادا عربية وضعها في مربض لتحسين نسل الخيول للشاه طهماسب كان يقع في (كرج). وتضيف الرواية أن هذه الجياد كانت تسابق الريح بأرجلها وكأنها ولدت من الأرواح الشريرة "ديوزاده"، ولم يمتلك في أي عصر من العصور حاكم مقتدر جيادا مثلها".

ويقتني الكرد، ولكن بدرجة قليلة، الحمير، بينما يقتنيها الأرمن بكثرة. وتوجد الأغنام لدى الكرد بوفرة، وهي تعد مصدرا مهما للابسهم ومأكلهم.. الخ. ويتميّز الغنم الكردي بضخامة جسمه، وله ذنب مزدوج من الشحم (إلية). ويعيش هذا الصنف من الأغنام في مناخ يجمع بين البرودة القاسية والحر الجاف،إذ تمر ثمانية أشهر من البرد والثلج وأربعة أشهر من الحر اللاذع. وقلّما يمرض هذا الصنف من الماشية ذات الصوف الأكثر متانة ونعومة من صوف أغنام العراق وسوريا العطشى. والأصناف الأخرى التي تربي في هضبة أرمينيا بعد تجاوز آسكى شهر – أفيون هي (كره مان الأبيض) أو (آق كره مان). ومع التوغل شرقا وابتداء من أرمينيا القديمة، نجد صنفا آخر من الأغنام طويل الصوف يطلق عليه اسم (آديميس)، ثم يبدأ الغنم القاتم اللون يزداد أكثر فأكثر وهو (كره مان الأحمر) أو (قزل كره مان) وأصناف أخرى سوداء اللون هي (توج، وهيريك، ومور)، بالإضافة إلى (كركس) الخليط من الأحمر والأبيض من (آق) و(قزل كره مان) الموجود أيضا في منطقة الحدود مع سوريا. ويكثر الطلب على هذا الصنف من الصوف الملون من المصانع الغربية، ويهتم به كذلك مربو الأغنام لأن لونه يحميهم من انعكاسات الشمس وآثارها (حمرة الشاة)[٤].

(٣) يلاحظ أن اصل الخيول وخصائصها في الوسط الكردي تعكس تقليدا عربيا ولكن بمستوى أقل، كما أن الشعر الكردي يتضمن إشارة إلى اثنين من أفضل أنواع الخيول، بينما المعروف بين العرب خمسة أنواع. وحسب ما ذكره أحد الكتاب الإيرانيين توجد في منطقة أردلان ما بين ٦٠٠ ٠٠٠ إلى ٧٠٠ ٠٠٠ خيل. ويقول أحد الرحالة الألمان أن استخدام الخيل ليس بالأمر المألوف في كردستان الجنوبية، بينما يذكر ريج أن الكرد في منطقة السليمانية فرسان جريئون ولكنهم سيئون، وهم، بعكس العرب، لا يتلاءمون جيدا مع تربية الخيول ويفسدون العرق الجيد منها في سباقات مجهدة على أرض مليئة بالحجارة، بينما يقول الكولونيل شيل انه رأى بين الكرد في جنوب بحيرة (أورروميه) فرساناً مهرة ذوي خبرة.

(٤) بالزان، الأغنام في تركيا، في دورية Union Ovine عدد شباط – مارس ١٩٤٠.

وتستخدم النساء الكرديات صوف الغنم وشعر الماعز في صنع اللّباد[٥] أو لغزلها لصنع الثياب من خيوطها، أو لصنع الخيام. ويشكل اللبن في مختلف مشتقاته الغذاء الرئيسي لدى الكرد. وخلافا لما قد يتصوره البعض فان اللحم نادر الاستعمال في قوائم مأكولاتهم.ان قطيع الماشية يعد رأسمالاً لدى الرحّل. والغنم اللبون لا تذبح إلا عند الضرورة. أما الخرفان فتقايض بالحبوب، لذلك يقتصر تناول اللحم على المناسبات المهمة. أما المواشي ذوات القرون فان الرحل قلما يربونها لأن الأبقار لا تتحمل الارتحال والتنقل المستمر، بينما يتفق ذلك مع طبيعة الغنم والماعز. وتكثر تربية الأبقار ومثيلاتها لدى أشباه الرحّل الذين يستخدمونها لحرث الأرض[٦].

أما بالنسبة للكلاب فمهمتها الحراسة من الحيوانات الضارية والقادمين غير المعروفين. لذلك ينبغي على المرء أن يأخذ حذره منها. وهي تشبه الذئاب الضخمة ذوات الرقاب الغليظة. آذانها مبتورة وذيولها طويلة وذوات شعر كثيف. ولونها إما أبيض تمام البياض أو أسود. وهذا النموذج هو السائد بصورة مطلقة.

وهكذا نجد أن حياة الكرد حياة منظمة ومهيأة حسب حاجات قطعان مواشيهم. ان ذوبان الثلوج وظهور نباتات الربيع على هضاب أرمينيا يعني اقتراب الموعد الذي يتحرر فيه الرجال وتنطلق فيه الحيوانات من عقال الشتاء. فمع بدء موسم البرد، يدخل الكرد مواشيهم إلى الحظائر غير الصحية بسبب الوخم والمبنية على شكل ممرات متلاصقة مسدودة في النهاية معتمة لا دوران فيها للهواء، طينية موحلة تقطع فجأة جولات مواشيهم الصحية خلال الأشهر المشمسة. وبسبب تكوم الحيوانات في هذه الحظائر فإنها تفقد نصف ما اكتسبته من نعم الصحة بسبب الخدمة التي كانت تقدم لها خلال تلك الأشهر المشمسة، وتقدم لها ألاعشاب المجففة المهيأة لهذه الفترة، بالاضافة الى أوراق أشجار البلوط وأشجار الغابات الكثيفة والأدغال البرية التي تعيق اسنان المعزى الملتهبة من النمو. كما أن الشروط الصحية لهذه الحظائر سيئة للغاية، لذلك يسود الحيوانات التي فيها، فقر الدم وتنتشر الأوبئة في هذه البيئة المختلطة. ان هذه الحظائر الواقعة تحت سطح الأرض يطلق عليها اسم (آغل)، وهي تشبه مثيلاتها في كل من أرمينيا وكردستان ايران، بيد أنها غالبا ما تكون في الأخيرة خارج المناطق

(٥) يصف لنا بلندر في المصدر المشار إليه آنفا كيفية صنع اللباد وغيره، فيقول: لقد اطلعنا على طريقة فريدة لصنع اللباد الطويل والبسط والخيم ومعاطفهم الشتوية. تنشر نفايات الصوف على الأرض ثم تلف حول عصا بطول متر ونصف متر تقريبا ويربط حبل طويل بكل طرف منها وتشد نهاياته بسرج حصان يعدو عبر فسحة ساحباً أسطوانة تحت إشراف ولد صغير.

(٦) لتربية المواشي أهمية تعادل أهمية الزراعة في غربي ايران (كردستان ايران – المترجم) لأسباب ثلاثة، هي: أولا أن هذه الحيوانات تعدمصدرا للسماد الطبيعي. ثانيا – يعد اللبن ومشتقاته مصدرا مهما للغذاء أو لبيعه. ثالثا – يستخدم شعر الماعز لنسج الخيام وصنع الحبال، بينما يستخدم صوف الأغنام لصنع البسط.(لامبتون – المصدر المشار إليه، ص ٣٥٠).

السكينة(٦ مكرر).

وإذا ما تأخر الربيع عن موعده كثيرا، تبدا مؤونة العلف بالانتهاء. وعندئذ يهدّد المواشي خطر الجوع. وبمجرد أن تبدا الثلوج بالذوبان، يترك الكرد، على الأقل في أرمينيا، مساكنهم الواقعة تحت سطح الأرض وينصبون خيمهم على السفوح الجنوبية للتلال المعرضة أكثر للشمس والأكثر جفافاً، رغم برودة الليل. ولا يدوم هذا الفصل الربيعي أكثر من ستة أسابيع تقريبا. وتمتصّ أشعة الشمس رطوبة الأرض بسرعة وتجف التربة وتتيبّس الأعشاب، ويبدا الكرد شيئا فشيئا بالرحيل صوب المراعي العالية، كما سبق بيان ذلك. ويقضي الكرد فصل الصيف في الجبال. ولندع الكلام مرة أخرى للكاتب الكردي عرب شمو:

"بينما كنا نجول مع المواشي في الجبال، كان أصحابها منهمكين في تحويل الحليب إلى منتجات قابلة لحملها والاحتفاظ بها أطول مدة. ويتم ذلك عادة بطرق بدائية. إن إعداد الزبدة لدى الكرد تستلزم عملاً شاقا ومضنيا من قبل النساء، إذ يقمن بصب حليب الأبقار والأغنام والمعزى المجمّع خلال النهار في قدور كبيرة من النحاس (قازان) تتسع لسطلين إلى عشرة سطول، ثم يوضع القدر على النار. وعندما يغلي الحليب يترك حتى يبرد قليلا. وبعد مرور عشر دقائق تقريبا تحدّد زوجة مالك الماشية درجة حرارة الحليب بواسطة أصبعها. وعندما يبرد الحليب إلى الدرجة المطلوبة للاختمار، تضيف السيدة لكل قدر معدّ ملعقة طعام من اللبن الرائب وتغطّى بعناية كل واحد منها بمنسوج صوفي (ايلوب). وفي الصباح يتحول اللبن إلى لبن رائب وتضع السيدة اللبن كلّه في قربة من الجلد (مشكه) تشد جيدا، ثم يبدأ العمل غير السهل، إذ يجب أن تخض القربة تارة إلى الأمام وتارة إلى الوراء مع إضافة الماء البارد إلى اللبن الموجود في القربة بين حين وآخر، طالما ان اللبن لم يغد بعد مخيضاً. وعندما يحين هذا الوقت، وهو لا يتم بسرعة لأنه يستلزم بذل المزيد من الجهد الشاق الممل، تصبّ محتويات القرب في اكياس مخروطية خاصة من الكتان تضغط فيها الزبدة، ثم تستخرج الزبدة المعدّة بهذه الصورة وتغسل بالماء البارد ويضاف إليها الملح في أوعية نظيفة".

"وتستخدم بقايا الزبدة، وتسمّى باللغة الكردية (دو) لتهيئة الجبن الأبيض. فبعد أن تملح، تضاف إليها أعشاب بريّة مختلفة. وعندما تتثبت بصورة تامة، توضع في أكياس من الأقمشة القطنية

(٦ مكرر) إن العناية التي تبذل للمواشي التي ترعى في المراعي، منظمة بموجب ساعات محددة. فبعد مسيرة المساء تترك الحيوانات لنزاعى ساعة أخرى (تلك هي وجبة المساء "شوخور")، ثم تدخل الحظائر خلال الليل في زرائب يطلق عليها اسم (هافيز) حتى الفجر. وبعد الفجر تترك الماشية لمدة ساعتين إلى ثلاث ساعات (بشت خور) حتى يحين موعد سقيها، كل قطيع في المحل المحدد له. وبعد السقي يتم الحلب الصباحي في مكان يطلق عليه (دانيكا)، ثم توضع الماشية من جديد في زرائب تسمى (بشتي روز) حيث تبقى لحين موعد سقيها المسائي. وتبدو هذه التفاصيل مملة، ولكننا لا نخشى ذكرها لنثبت للقارئ كم هي منظمة حياة الكرد فيما يتعلق بالعناية التي يبذلونها لمواشيهم.

ويضغط عليها بالأقدام وتعطى المصالة للعجول. اما الجبن المضغوط فيكبس داخل القرب. ويعتبر الجبن الأبيض غذاءً أساسياً للكرد، ويعدّ الأغنياء منهم واحدة أو اثنتين للعائلة".

"ويعد الجبن أيضا بطريقة بدائية كذلك، اذ تضع النساء في القدور كمية الحليب الذي استحلبنه خلال النهار شرط أن لا يكون الحليب دسما، لأنهم يعتقدون ان تهيئة الجبن من الحليب الدسم خطأ، ثم يغلى الحليب ويختمر بعدئذ بواسطة المشيمة".

"ولهذا الغرض يجمع الكرد المشيمات لدى حدوث حالة الاسقاط لدى الأغنام، وبعد تنظيفها جيدا بواسطة البلور، يتم تجفيفها وتقطع قطعا بحجم القطع النقدية الصغيرة تقريباً لتستخدم في تهيئة الجبن في هذه القدور. ويتم الاختمار بسرعة إذ يتخمّر اللبن خلال ١٥ إلى ٢٠ دقيقة، ثم توضع داخل أكياس صغيرة من القطن أو الكتان مهيأة خصيصا لذلك سلفا وتوضع فوق بلاط من الحجر الناعم الملمس ويوضع فوقها حجر ثقيل بدلاً من عصرها بواسطة المعصرة. ويستخرج الجبن المضغوط على شكل قطع مدوّرة ومسطّحة وتجفف في الهواء الطلق".

"ان ارتحال الكرد صيفا طلبا للكلأ ونقل مواشيهم من مكان إلى آخر لا يتم عرضا. فمع بداية الربيع يبدأ الثلج بالذوبان بصورة سريعة وبدرجة أقل في الجبال بدءا من المنحدرات المنخفضة. وشيئا فشيئا يظهر الكلأ في كل أسبوع في مساحات كانت تغطّيها الثلوج وذلك بفعل الرطوبة وحرارة أشعة الشمس. وهكذا يصعد هؤلاء الرجال مع مواشيهم الجبال شيئا فشيئا في متابعتهم لحركة ذوبان الثلوج. وفي الخريف وخلال النصف الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) تبدأ الرحلة المعكوسة اذ يتساقط الثلج في الجبال ويهطل المطر في الوديان فيضطرهم ذلك إلى الهبوط تدريجيا والابتعاد عن الثلوج، إلى ان ينتهي بهم الأمر للعودة إلى مواطنهم الأصلية، حيث يكون الكلأ قد عاد ينمو في الصيف. وفي نهاية الخريف تنزل الماشية مع أصحابها إلى الوديان حيث لا أثر للثلوج فيها. واذا ما سقط بعض منه فانه يذوب خلال النهار، وأخيراً عندما يبدأ الثلج بالسقوط في الوديان تعود الماشية مع أصحابها إلى مواقع سكناهم الأصلية خلال فصل الشتاء".

ويحتفل الكرد بهذه الرحلة الخريفية لمواشيهم كحدث سعيد، اذ رغم تمتّعهم بنعيم الحرية خلال فترة البحث عن الكلأ صيفاً، إلا أن بعض المخاطر يعترض طريقهم أحيانا، لذا فهم فرحون بعودتهم سالمين مع مواشيهم. ويتشوّق الرعاة أيضا لتسلّم أجورهم لقاء فترة عملهم الصيفي، كما أن أصحاب المواشي أيضا مسرورون بما جنوه من أرباح. ومع ذلك لا يصح مقارنة هذا الاحتفال بعيد (برو-دان) الربيعي، لأنه أقل حيوية وتلقائية منه".

«يؤثر التحول الفصلي تأثيرا كبيرا على الحالة النفسية للكردي، ويتبين ذلك بوضوح عند حلول الخريف بأيامه الحافلة بالنشوة والأمطار والضباب. ويقال أن الحيوانات هي الأخرى تحسّ أيضا بهذا التغير المقبل. وعندما كنت أسوق قطعاني صوب الوديان وقد شبعت من الكلأ وتقوت أجسامها،

كانت تبدو لي حزينة وهي تدني رؤوسها بأسى لإحساسها بأن الحرية التي كانت تتمتّع بها خلال موسم الصيف على وشك الانقضاء، وسوف تبدأ لها فترة السكون الطويل ببقائها في زرائب ضيقة".

"وبطبيعة الحال تأخذ الحياة بمتطلباتها وهمومها مسارا آخر، فتتحدث كل امرأة مع صديقاتها، وهنَّ في طريق العودة، عما إذا كانت الرحلة الصيفية ناجحة، كما يتحدثن عن مقادير الزبدة والجبن الأبيض التي أعددنها خلال تلك الرحلة. ويهتم الرجال بمسألة بيع منتجاتهم من الزبدة والجبن والصوف ليشتروا بأثمانها القمح والشعير. ان الكرد الرحّل الذي يمتهنون الرعي بدرجة أساسية لا يمارسون الزراعة فيضطرون لشراء خبزهم من الغير. ان مسألة أسعار الحبوب تعدّ من الأمور المهمة بالنسبة لهم، كما يتناقشون في موضوع تنظيم المراعي الشتوية لأنهم لا يكلفون أنفسهم بجمع العلف ويخرجون مواشيهم لرعيها خلال فصل الشتاء أيضا(٧). وتتباهى النسوة فيما بينهن بالحاجيات التي اشترينها من الباعة المتجولين، كالمناديل وحلي الزينة والخيوط والأبر والأزرار وغيرها، ويتهامس الشباب والشابات فيما بينهم بالأسرار، من منهم أو منهن اختار خطيبة له أو خطيبا لها، وهل اتفقا نهائيا على الزواج؟ ويتسامر العشاق بأحاديث عن الصيف الماضي الذي انقضى بسعادة ويتذكرون الأماكن التي تلاقوا فيها والينابيع التي شربوا معا من مياهها الصافية الباردة، والليالي المقمرة التي قضوا فيها أسعد أوقاتهم بين الجبال والأزهار البرية، كما يتذكرون الأماكن التي لعبوا وضحكوا ورقصوا وغنّوا أغانيهم المفضلة فيها بعيدين عن أعين الأهل اليقظة. ويتكلّمون أخيرا عن اللحظة الحاسمة التي أقسموا فيها بإسم (خودا) اللّه على أن يبقوا أوفياء مدى الحياة للعهود التي قطعوها على أنفسهم لحبيباتهم".

"وتبرز الشابّات لصديقاتهن هدايا الخطيب أو الحبيب، حلقات من الفضة أو النحاس، مرايا مذّهبة الأطراف أو خرزا من الوان شتّى. ويروي الشباب بدورهم لأصدقائهم عن الهدايا التي تسلّموها منهن: مناديل جيب أو حافظات نقود مطرزة بالحرير الملوّن أو جوارب من الصوف منسوجة يدويا أو قفازات، وحولهم الأعشاب المتيبّسة والأزهار الذابلة والأشجار التي اصفرّت أوراقها؟ وتحت السماء اعابس والرياح الشديدة التي تجعل الإنسان يسرع خطاه".

وهكذا يتقدم الكرد مع عوائلهم ومواشيهم ببطء على طرق مبتلّه بماء المطر الخريفي وهم يعودون إلى منازلهم الشتوية، وتنصرف النسوة هنا أيضا لتهيئة مستلزمات الشتاء بسرعة وترتيب المنتجات التي جلبوها معهم من الجبال وتنظيم البيت وعدّ الدواب".

(٧) وهذا على العكس مما يحدث في الهضاب الأرمينية كما رأينا ذلك. (ان التعميم الذي أورده المؤلّف بشأن إخراج المواشي في كردستان في فصل الشتاء للرعي غير وارد بالنسبة لجميع أرجاء البلاد، إذ يتولّى أصحاب المواشي في مناطق كثيرة من كردستان تهيئة العلف لمواشيهم لفصل الشتاء حيث لا يستطيعون إخراجها للرعي بسبب البرد ولأن الأرض كلها تغطيها الثلوج – المترجم).

"ثم يحلّ يوم (بران بردان) أي إطلاق الخراف الذكور وسط الإناث، وهو يوم يفرح به الرعاة ومساعدوهم كثيرا إذ تنتهي في هذا اليوم مدة خدمتهم ويتسلّمون أجورهم لمدة عملهم الصيفي، وفي يوم (بران بردان) تفصل النعاج في حظائر مسيّجة وتطلق بينها الأكباش النابتة لإخصابها، وكانت هذه الأكباش ترعى خلال الصيف كله في قطيع منعزل. ويتّخذ هذا الإجراء كي تحمل النعاج في موعد قريب من الربيع المقبل، ويأخذ بعض الشباب أحيانا بإطلاق النار في الهواء كأنهّم يحتفلون بزفاف نعاجهم. وتهيأ في هذا اليوم أصناف من الأطعمة اللذيذة مثل (مرتوكا) وهو صنف من الحلوى و (كاتا) وهو نوع من الزلابية الرفيعة المحلاة بالسكر و(قاورمه) أي اللّحم المحّمص، ويدعى الجميع للعشاء ويوزع ما يتبقى منها على الفقراء في صحون خاصة".

وتنزع الفتيات عن رؤوسهن المناديل الحريرية ويربطنها حول أعناق الخراف المحبّبة اليهن، فيتقدم الشباب ويأخذونها تعبيراً عن حبهم لهن ورغبتهم في الزواج منهن، ويراقب الأهل الفتى الذي التقط منديل ابنتهم، وهم يعرفون أن الاتفاق كان قد تم في الصيف. فإذا لم يمانع الأهل عقدت الخطوبة، وبعد وقت قصير يحتفل بالزواج. ويفضّل الأهل عادة خطيبا غنياً لأبنتهم. وكان من النادر في السابق أن يوافق الأغنياء على زواج ابنتهم من أحد الرعاة".

"وبعد الاحتفال بيوم (بران بردان) يقوم أصحاب المواشي بتسوية حساباتهم مع الرعاة، فيتسلم الراعي المبلغ مقابل أتعابه خلال الصيف من ٨ إلى ١٢ رأساً من الخرفان الصغيرة إضافة إلى مساعدة من ٣ إلى ٥ رؤوس. وكانت العادة المحلّية الجارية تقضي بتسلم الراعي خروفا واحدا، من كل ٢٥ رأسا من الخراف التي كان يتولّى رعايتها. فإذا كان صاحب الماشية يملك قطيعا من ٢٠٠ رأس إلى ٢٥٠ رأسا من الخراف، أعطى الراعي من ١٠ رؤوس إلى ١٢ رأسا منها، وكان ذلك يمثل أجرا قليلا نسبيا مقابل العمل الشاق المليء بالمخاطر الذي يقوم به الراعي. وكان بعض أصحاب المواشي يحاولون خداعنا بوسائل أخرى غير مشروعة، كأن يتفق أحدهم مع جار له أقل يسارا منه ليضم قطيعه الى قطيعه مقابل أجر معلوم، دون ان يعطي راعيه شيئا مقابل هذه العملية".

رابعاً – الزراعة والقطاف والصيد:

عرَّفنا القارئ حتى الآن على نمط الحياة التي يعيشها الكرد، الذين يعتمدون بدرجة أساسية على تربية المواشي، ولكننا نجد الكرد يلجاؤن في منحدرات أرمينيا إلى زراعة بعض الحقول بالشعير ربيعا، غير أن الغلّة التي يحصلون عليها قليلة جدا لأن حراثة الأرض تتم بمحراث بدائي خشبي. ويستخدم الشعير في صنع الخبز، كما يقدم أيضا علفا للخيول لعدم زراعة الشوفان في أرمينيا. إلا أن الزراعة أكثر تطورا على منحدرات جبال طوروس الجنوبية باتجاه سهل بلاد ما بين النهرين، حيث تجد المواشي مراعٍ للشتاء أيضا. وليس من الصحيح أبدا أن ننظر إلى الكرد رعاة أو رحّلاً أو أشباه

رحّل، فهناك أكثر من منطقة كردية، في كردستان ايران مثلا، يعيش فيها الكرد حياة متحضّرة ويجيدون الفلاحة والزراعة. وحتى في الأقاصي البعيدة من كردستان الوسطى (هركي-أورامار) نجد زراعة متطورة وتستثمر كل بقعة بعناية في حقول ذات أرصفة منسّقة، مع وسائل ري متقنة ومصانة. وفي بعض الأماكن يعتقد أن أعمال جر المياه تعود إلى حقب قديمة كما لاحظ ذلك مثلا ليرج:

ان الكرد، شأنهم في ذلك شأن قدماء الكلدانيين[٨] ذوو مهارة فائقة، لا يتقاعسون في العمل لشق جداول المياه لري أراضيهم، ولكن اهتمامهم بالزراعة، شأنهم في ذلك شأن جميع سكان الجبال، اهتمام ثانوي. ومع ذلك يعتبرون اكثر من العرب اهتماما بها.انهم يمتهنون الزراعة بالقدر الذي يحتاجون إليه في معيشتهم، ويستخدمون القش علفا لحيواناتهم، ويزرعون على وجه الخصوص الذرة والقمح والشعير والرز، بالإضافة إلى التبغ، إلا أن ثروتهم الأساسية تكمن دائما في مواشيهم[٩]. هناك مثل كردي يقول: "لا العرب يأتلفون مع زرع الكروم، ولا المسيحيون مع تربية الأغنام". ويشار إلى هذا التناقض الصارخ لدى الإشارة إلى الكرد، كأناس مهرة في تربية المواشي[١٠].

ويجمع المؤرخون على تأكيد ان العقبة الرئيسية أمام انتشار الزراعة بين الكرد تكمن في نظام الضرائب الذي يثبط كل عزيمة لديهم. كما أن الأمراض والكوارث التي تصيب أحيانا قطعان المواشي تحملهم مرغمين على الاشتغال بالزراعة. وينبغي أن نشير في الحديث عن اقتصاديات الكرد إلى دور الصيد وجمع بعض منتجات التربة. ففي أرمينيا حيث تندر الغابات[١١] يشكل الاحطاب للوقود اهتماما جديا للناس، إذ لا يجدون في كثير من الأماكن غير صنف شائك من نبات القتاد (الاستراكان) الذي يستعملونه وقودا، وهذا الصنف يجب قلعه من الجذور بواسطة السكاكين. ويحمل

(٨) يعثر الباحث أحيانا على آثار فنية قديمة في كردستان. "فعلى الضفة اليمنى من نهر (بيلاس) يوجد حاجز عمودي مرتفع جدا، وعلى مسافة خمسين مترا منه توجد خرائب حسر مائي قديم ما تزال خمس أو ست قناطر منها باقية. ونتساءل كيف أن أعمالا كهذه تركت بهذه الصورة، وبمبادرة من أقيمت، وإلى أي عصر تعود؟ وتتبادر الى ذهني أجوبة كثيرة عن هذه الأسئلة. ان عدم وجود أي كتابة عن هذه الآثار يجعل من المحال تقريبا التعرف على الملامح التاريخية لهذه البلاد" "بندر، المرجع المشار إليه آنفا، ص ١٨٧".

(٩) ليرج، المرجع المشار إليه آنفا، الجزء الأول، ص ٢٣-٢٤

(١٠) روندو، قبائل جبيلة، (دورية الدراسات الفرنسية) التي كانت تصدر في دمشق باللغة الفرنسية، ١٩٣٦ الجزء السادس، ص ٣.

(١١) وبالعكس ان القسم الغربي من كردستان ايران كثيف الغابات، وفي هذه المناطق يصنع الكرد جميع حاجاتهم المنزلية ومنها مواعين المطبخ من الخشب، وهذه الأدوات انسب وأولى لهم لأنها أخف وزنا وأكثر مقاومة عند الحمل والنقل في مواسم الارتحال إلى المراعي الصيفية. (المرتفعات المنفصلة عن سردشت، ومن ثم من مرتفع كه لي خان الواقع شمالي غربي سنندج وحتى مناطق زاورو، وكاورو، وسوروسور، وجوانرو، ولهون، وهورامان، ومريوان، وبانه، في مساحة بطول حوالي ٣٠٠ كيلو متر).

الكرد هذه المادة التي يستعملونها وقودا، بواسطة الدواب ومن أماكن بعيدة إلى المدن حيث يبيعونها في الأسواق. ويصنع الكرد الفحم من الاحطاب أيضا. وإضافة إلى كل ما ذكر فإن مادة الوقود الأصلية عند الكرد هي فضلات الأبقار التي يمزجون بها التبن والأوراق الجافة والتي يسمّونها (تباله). ومن شوك القتاد يحصلون أيضا على الصمغ بقطعه من الجذور. ومن أشجار البلوط القصيرة النمو يحصل الكرد في جبال طوروس الجنوبية وكذلك في كردستان الجنوبية على العفص الذي يعتبر واحدا من المواد الضرورية جدا للدباغة، كما يحصلون على نوع من (المن) الذي يشبه السكر الأبيض ويستفاد منه في صناعة الحلويات الشرقية. ويجمع الكرد كذلك في الجبال نباتات يستعمل بعض منها مواد غذائية من أمثال (ذكر المؤلف أسماء نباتات لم أجد ما يماثلها في اللغة العربية - المترجم)، وبعض منها تقتل الحشرات. وانطلاقا من الواقع غير الصحي لمنازل الكرد الشتوية فإن هذا النوع الأخير ضروري جدا. والكرد مطّلعون جيدا على خصائص بعض الأعشاب والمواد التي تستعمل للتلوين والصبغ، ويجمعون هذه الأعشاب والنباتات ليستفيدوا منها في صناعة الفرش والسجاجيد. وأخيرا ينبغي أن نشير ضمن المواد التي يجمعها الكرد في الجبال إلى الثلج، الذي يقوم مقام الثلج الصناعي، فينقلونه إلى العمادية والموصل صيفا ليبيعوه لسكان المدينتين المذكورتين.

أما الصيد، فانه ليس موردا مهمّاً وبخاصة في أرمينيا حيث يندر وجوده. وتوجد الأيائل والعنز البري والذئاب والخنازير البرية والثعالب والدببة في جبال طوروس. ولكن نظرا لأن الكرد يستعلمون أسلحتهم بوجه عام لحماية قطعانهم من الحيوانات المفترسة، فقد قلّ عدد هذه الحيوانات إلى حد كبير. ومن المعلوم ان آثار إبادة منظّمة أكثر ضررا من قتل تلك الحيوانات واحداً بعد آخر وبصورة متفرّقة في الصيد(١١ مكرر).

خامساً - الصناعة اليدوية والتجارة:

في دراستنا للصناعات اليدوية المنزلية، ينبغي الإشارة إلى ما تصنعه النساء من أنسجة وفرش، هؤلاء النساء اللائي يبدين كثيرا من الذوق والأناقة فيما يخصّ ملابسهن أو ترتيب وتزيين مساكنهن في الخيام. وهنا ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار درجة استقلالية الكرد عن السلطة ومتطلّباتها وبخاصة فيما يتعلق بالضرائب، فحيثما تمارس هذه السلطة بشكل فعال، ترتفع نسبة الضرائب، ونجد الجماهير الكردية في فقر مدقع، فيظهرون قدرا ضئيلا من المبالاة بالنسبة للصناعات اليدوية والأنسجة الفنية التي يوحي بها إحساس فنّي بدائي، ولكنه فطري لا تعوزه النضارة والبراعة في تنسيق الألوان..الخ. وتشتهر منطقة (سنه) بكردستان إيران بصناعة سجادات الصلاة. كذلك نلاحظ هذا الذوق والأناقة

(١١ مكرر) كان يوجد في قصبة تويله على الحدود العراقية - الإيرانية الشمالية، على الدوام، صنّاع ماهرون يتفنّنون في صنع مختلف أنواع السكاكين والخناجر والأدوات البرونزية وغيرها - المترجم.

على بعض المواد ذات الإستعمال الإعتيادي كالنقوش التي على مقابض الخناجر الكردية المصنوعة من العظم وعقد الأحزمة من الفضة والتطريزات. ويجب أن لا يغيب عن البال أن كردستان ليست بلاد الرحّل والفلاحين حسب، بل فيها العديد من المدن والقصبات الكبيرة التي نشأت فيها منذ القدم صناعات يدوية فنية أصبحت من تقاليدها العريقة. ويكفي ان نذكر على سبيل المثال (وان) وبتليس وأربيل و(سنه) وساوجبلاغ (مهاباد حاليا – المترجم).. الخ التي هي مدن كردية صرفة تطورت فيها الصناعات اليدوية بجميع أشكالها كصناعة الجلود والمعادن والأخشاب[١٢].

ويذكر لنا أسكيسيان في مقال له بعنوان (أبدال خان سيّد بدليس الكردي في القرن السابع عشر وخزائنه) نشر في عدد نيسان – حزيران ١٩٣٧ من (المجلّة الآسيوية) تفاصيل مثيرة عن القطع الفنية والأسلحة والحلي والمخطوطات التي كان يمتلكها هذا الرجل، مما يحملنا بكل تأكيد على الاعتقاد بأنه كان بين الرؤساء الكرد من يهوون جمع التحف الثمينة ويتذوقون الفن ويشجعّون الصناعات اليدوية. ويوجد بوجه خاص في مدينة (سنه) صنّاع ماهرون لصنع علب خاصة بالسكاير وصناديق التحفيات وصناديق الأمتعة والعصيّ الخاصة من القصب وطاولات الشطرنج، بالإضافة إلى الأواني الفخّارية التي تصنع من الطين الغريني[١٣]. ويتمتع صاغة (وان) بشهرة كبيرة في صنع الكؤوس والنارجيلة من الفضة.. الخ "إن صناعة الأواني الخزفية وصلت إلى درجة عالية من الإتقان والدقة، ان قرية (زورك) نصف المهدّمة معروفة بصناعة الخزفيات" (ليرج، المصدر المشار إليه آنفا، ج١، ص٢٤).

وإذا صحّ لنا أن نعتبر الكردي في الحدود التي أسلفنا، صانعا يدويا، فلا يمكننا إطلاقا اعتباره تاجرا مجتهدا لهذه الصناعة. ورغم سيره وراء العيش البسيط، فقد اضطر لأن يجلب من خارج محيطه الحاجيات التي لا يؤمنها له اقتصاده الطبيعي. وتأتي في مقدمة هذه الحاجيات الأسلحة التي يشتريها من تجار الأسلحة الأرمن والفرس. وحتى قبل انتشار الأسلحة النارية، كان الكردي في حاجة لشراء الخيزران[١٤]، لرماحه وللأسلحة البيضاء التي يستعملها.. الخ. وتأتي بعد السلاح الذي يعتبر

(١٢) تصدّر من كردستان ايران سنويا حوالي عشرة آلاف فروة ثعلب وسمور إلى روسيا. كما أن السماميرالمعروفة بالسماميرالسيبيرية موجودة فيها أيضا. وقد أشار ميلينجين في حوالي سنة ١٨٧٠ إلى وجود أعداد كبيرة من النمور في أرمينيا.

(١٣) ويلاحظ روندو الذي عايش كرد سوريا بوجه خاص "أن الصناعات اليدوية متطورة بين النساء الكرديات اللواتي يغزلن وينسجن الصوف، كما بين الأرمن واليهود الذين يعيشون بين العشائر أو يجاورونهم من قرب، يمتهنون الصباغة والدباغة والحدادة".

(١٤) كان يوجد في قصبة (تويله) على الحدود الإيرانية–العراقية الشمالية الشرقية، على الدوام، صنّاع ماهرون يتفنّنون في صنع مختلف أنواع السكاكين والخناجر والأدوات البرونزية وغيرها. وفي مكتبة الأوقاف العامة في السليمانية اليوم آلتا أسطرلاب متقنتا الصنع من البرونز من عمل صانعين ماهرين من هذه القصبة يعود تاريخ كل منهما إلى أكثر من قرن ونصف – المترجم

ضروريا للكردي لتأمين حياته المعرّضة دائما للخطر، بحيث أنه مستعد لكل تضحية في سبيل الحصول عليه ،تأتي حاجات الزينة الفخمة التي يهتم بها كثيرا لأنه يحب الثياب الجميلة ويرتديها بأناقة عريقة في طبعه. وقبل أن تحلّ البنادق ذات الشهرة محل الرماح، كانت الأخيرة تزيّن بريش النعام، وكانت الأتراس الصغيرة التي يستخدمها في حينه عبارة عن أداة فنيّة بألوان زاهية أو مرصعة حسب المادة المصنوعة منها. ويبحث الكردي دائما عن المنسوجات الحريرية الفاخرة لعمامته ونطاقه الكبير. وكما هو الحال بالنسبة للخيل، فإن سلاح الكردي وثيابه توصف وصفا مسهبا في أغاني الكرد وأشعارهم الشعبية. ويلجأ الكرد الرحّل في الغالب إلى مقايضة السلع، فهم يعرضون في السوق إضافة إلى المواشي، الصوف والجلود والزبدة والجبن واللباد والسجاد والعفص وحطب الوقود. ونادرا ما يستعملون النقود في عمليات التبادل[١٥]، إذ أن النساء الكرديات يستخدمنها لتزيين ثيابهن واللفائف التي يلفّفن بها رؤوسهن، وتجري عمليات التبادل هذه في أغلب الأحيان في فصل الخريف وبعد العودة من الرحلة الصيفية، وليس الكردي هو الرابح في هذه المقايضات.

ان أوجه الحياة الاقتصادية الكردية غير مهتم بها من قبل أكثر الباحثين الأجانب، ولا نملك في هذا الصدد إلاّشهادات قليلة تعود في واقع الحال إلى أمد بعيد. وحيث أن اقتصاد كردستان لم يتطور إلا في حدود ضيقة، لذلك باستطاعتنا تبين معالمه العامة[١٦].

وبإمكاننا أن نشير إلى بعض الدلالات التي تثبت وجود بعض المفاهيم الرأسمالية حتى في المناطق المعزولة من كردستان. ان هذه البلاد كانت في الحقيقة مركزا مهمّاً لتموين بغداد والقسطنطينية بالمواشي، كما كانت تصدر الصوف والمنسوجات الصوفية والعسل والعفص والأصباغ المطيّبة وبعض مواد الصباغة. وبالمقابل كانت كردستان تستورد الأسلحة والأنسجة القطنية والحرير والسكّر وبعض الأصناف الاستهلاكية الأخرى. ويمكننا القول أن صادرات كردستان تفوق وارداتها، وان أموالا هائلة تتجمّع لدى الشعب الكردي بضمنهم أهل المدن الذين يعتبرون الزبائن الأساسيين للمواد المستوردة، باستثناء السلاح كالرحّل تماما.

لقد كانت القسطنطينية وحدها تستورد سنويّاً من كردستان ما لا يقل عن مليون ونصف مليون رأس غنم أو بقر تصدّر إليها مشيا على الأقدام من كردستان. ومن المحتمل أن أعداد هذه القطعان كانت أكثر من هذا الرقم بكثير، ولكن وعورة الطرق وطولها كانت تتسبّب في فناء قسم كبير منها أثناء السير، لذلك كان كل قطيع يضم من ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ رأس. وكان الرعاة يتجنبون السير في

(١٥) كانت أخشاب الخيزران تستورد من بلاد الهند بواسطة التجار الفرس، انظر ميلينكنين، حياة بدائية بين الكرد، ص ٢٤٩.

(١٦) الاقتصاد السلعي انما هو من معالم المراحل البدائية في تطور المجتمع. ويمكن القول بثقة انه غدا في حكم الزائل في حياة المجتمع الكردي المعاصر – المترجم.

طرق القوافل، لذلك كان يستلزم ١٧ او ١٨ شهراً لقطع المسافة من (وان) إلى القسطنطينية. ومن المواد التي تصدّر أيضا من كردستان، العفص حيث كان يصدر بما تزيد قيمته عن ٣٥ الف ليرة إسترلينية(١٧). (وهو مبلغ يعدّ كبيراً قياساً إلى قيمة العملة في ذلك الزمن – المترجم). ومن المواد المصدرة ايضا، الحبة الخضراء التي تستخرج منها مادة دهنية تستخدم في صناعة الصابون. وكانت جذور الفوة من المواد الصبغية التي كانت تصدّر إلى خارج كردستان أيضا. كذلك كانت تصدّر من كردستان كميات هائلة من الصوف ومنه (الموهير) الذي يقدّر كثيرا في الخارج، وهو ينتج في منطقة جزيرة. وهذا الصوف الذي يعود لأحد أصناف المعزى يطلق عليه (أنكورا)، يستخدم في صناعة الشالات والمعاطف. وتتميّز هذه الشالات بنعومتها وتنوّع ألوانها الزاهية واختلاف نقوشها التي تشهد بحسن الذوق لدى المرأة الكردية. وتشتهر مدينة ديار بكر(آمد – المترجم) بمنسوجاتها الحريرية التي تشبه مثيلتها في حلب ولكنها أرخص منها بكثير، وهذا ما يضمن لها زبائن كثيرين حتى شواطئ البحر الأسود. كما أنّ كردستان تركيا (الصحيح تركيا العثمانية – المترجم) كانت تصدر في أواسط القرن التاسع عشر بضائع ومنتجات تقدّر قيمتها الإجمالية بأكثر من ٧٠٠ ٠٠٠ جنيه إسترليني. ويخبرنا رحالة آخر من الحقبة التاريخية نفسها بمعلومات عن اقتصاد قضاء جوله ميرك التابع لولاية (وان). ويأتي العفص في مقدّمة المواد المصدّرة من هذا القضاء إلى الموصل وإيران حيث كان يباع منه سنويا حوالي ٣٠ ,٠٠٠ قنطار (يساوي القنطار الواحد ٢٥٠ كيلو غراما تقريبا). وكان ثمن الباطمان الواحد (الذي يساوي ثلاث كيلو غرامات تقريبا) ٥٠ بياستر (عملة فرنسية قديمة – المترجم). ويباع من العسل الذي ينتج محلّياً حوالي ١٥ ٠٠٠ باطمان سنويا بسعر ٢٥ إلى ٣٠ بياستر. ويقدر ثمن الشمع العسلي بـ ٤٠–٥٠ بياستر للباطمان الواحد. والحرير المغزول كان الباطمان الواحد منه يباع بـ ٣٠ بياستر. ومن المواد الصبغية التي تستخرج من شجرة يطلق عليها اسم (آلاجاكري) وهي تحمل ثمارا تعطي لونا أصفر زاهياً تستخدم لصبغ جلد المعز المدبوغ (السختيان) حيث تصدّر كميات كبيرة منه إلى حلب وأيران. أما الصوف فيباع الباطمان الواحد منه بما يتراوح بين ٢٠ إلى ٢٥ بياستر. والمغسول منه بـ ٣٠ بياستر. وتصدّر أعداد كبيرة من المواشي تقدر بـ ١٠ ,٠٠٠ رأس الى الموصل وحلب ودمشق والقيصرية. ويتراوح ثمن رأس الغنم بين ١٠ إلى ٥٠ بياستر. ويستخدم الصوف لصناعة أنسجة الملابس أو لصنع الـ (بلاس) أي السجاد الاعتيادي لغرض البيع.

(١٧) نجد هذه المعالم في مقال (فيلجيفسكي) المنشورة في مجلة (الانتولوجيا السوفياتية) العدد ٤ و٥ عام ١٩٣٦ حول اقتصاد المجتمع الزراعي الكردي. كما يعطي الدكتور كريستوف عام ١٩٣٥ معلومات اقتصادية استعنّا بها في كتابة هذا الفصل. وأخيراً يتحدث مؤلف إيراني هو (علي أصغر–م) شميم همداني في مؤلفه عن كردستان والوضع الاقتصادي في هذه البلاد، ويهاجم، كغيره، اليهود في كردستان لدورهم الاستغلالي لاستحواذهم على الوسائل المالية الكافية التي تجعلهم يحتكرون عمليات التبادل التجاري لصالحهم، كما يمارسون عمليات التهريب أيضا (المصدر المشار إليه آنفاً، ص ٧٩–٨٠).

أما زبدة المواشي فيباع الباطمان الواحد منها بـ ٣٠ إلى ٤٠ بياستر في الموصل أو في (كياور). إن جميع هذه المواد تباع في السوق المحلية لتجّار يأتون من خارج كردستان، لأن الأهالي يخشون رجال الجمارك. وهؤلاء التجار الذين يشترون هذه المنتجات هم من اليهود والأرمن والترك من مناطق تبريز وأوروميه وكاشان الذين يجلبون معهم بضائع مختلفة لمقايضتها بمنتجات كردستان. ويستغل أهالي كردستان، الحديد والرصاص في خفية عن أعين الحكومة التركية، فيصنعون من هذه المعادن الأدوات التي يحتاجون إليها ويبيعون الباقي. ويوجد في منطقة (زرنيخ ميدان) منجم يستخرج منه مادة تَستخدم لتحويل لون التراب الأحمر إلى الأصفر، كما يستخدمها المسلمون مادة لإزالة الشعر، ويصدر منها حوالي ٣٠ ,٠٠٠ قنطار إلى القسطنطينية وبغداد وإلى الهند. ويقع هذا المنجم في منطقة جبلية من الصلصال، وتعود ملكيته إلى الدولة التي تنتفع منه.

من مجموع هذه المعلومات عن الوضع الاقتصادي في كردستان، يخلص فيلجيفسكي إلى القول إن التجارة كانت منتعشة في كردستان في القرن التاسع عشر، وخصوصا في مجال التجارة المحلّية قبل امتداد النفوذ الاستعماري، وهذا ما يسمح لنا بالقول أن اقتصاد كردستان لم يكن اقتصاداً طبيعياً وأن التبادل على أساس النقد كان معروفا منذ زمن بعيد.إن إبداء الرأي حول البنية الاقتصادية في كردستان واستخلاص نتائج منها يستلزم، كما يؤيد ذلك فيلجيفسكي في بداية دراسته، يستلزم توفر مصادر أكثر عمقا، وهي غير متوفرة حاليا بالنسبة لعموم أجزاء كردستان. وفيما يخصّ كردستان تركيا الراهنة، فقد استفاد فيلجيفسكي بقدر ما من النشاط الاقتصادي للنظام الجمهوري لمصطفى كمال، فقد وصلت سكة الحديد في الآونة الأخيرة إلى ديار بكر وأرضروم ووضعت خطط لتوسيعها لتصل إلى الحدود الإيرانية، بالدوران حول بحيرة وان وباتجاه شمالي بلاد ما بين النهرين انطلاقا من ديار بكر. ومن المؤكد ان أثر سكة الحديد سيكون كبيرا في هذه الأقاليم، إذ تكون حركة النقل والتبادل أسهل من ذي قبل. ومن الثروات الأخرى الموجودة في باطن الأرض، النحاس الذي بدئ باستغلاله في (أرغني) في منطقة ديار بكر. ويبدو أن الحكومة التركية الحالية بدأت ترعى أصحاب المواشي الكرد فتوفر لهم الخدمات البيطرية وتساعدهم على تحسين نوعية الصوف، كما يشير إلى ذلك (بلسان) في مقاله المشار إليه آنفا. أن جميع هذه الإجراءات تعتمد بالنسبة لآثارها المفيدة بالنسبة للشعب الكردي على السياسة العامة المتّبعة من قبل السلطة تجاههم، كما سنوضّح ذلك فيما بعد. إن إحدى البديهيات الأوّلية للجغرافية الاقتصادية تعلّمنا أن توفر الثروات الطبيعية التي لا يمكن إنكار وجودها في كردستان، لا يكفي وحده لإزدهار البلاد، بل ينبغي وجود ظرف آخر يعتمد على النظام السياسي وأساليبه".

ويؤكد بادكير في مؤلفه النسطوريون (الجزء الأول، ص ٤٦–٤٧)، ان الكرد في تركيا لو كانوا يعيشون في ظل سلطة عادلة لأصبحوا رعايا مخلصين نافعين. فالكرد الذين يمارسون الزراعة، يشكون

كثيرا من سلطان الباشا. وفي إجابتهم على سؤال لبادكير حول أسباب انتفاضاتهم الكثيرة، أجابوا: ماذا نعمل؟ إذا ما استقررنا في السهول وبدأنا ببناء القرى وغرس الكروم وزراعة الحنطة واستغلال الأراضي البور، فرضت علينا الضرائب الباهظة بحيث لا نستفيد من الجهد والتعب الذي بذلناه. فماذا يبقى أمامنا؟ نترك ديارنا بدون ارادتنا ونلجأ إلى اخواننا في الجبال الذين لا يتعرضون هناك لأي ظلم أو قهر. تلك هي أقدارنا. واللّه رؤوف رحيم" (ليرج، المصدر السابق، ج١، ص٦١).

صحيح أنه منذ أن كتب بادكير مؤلفه عام ١٨٤٠ حدثت تبدلات أشرنا إليها، ولكن الكرد مازالوا حتى اليوم ينظرون بحذر شديد إلى السلطات الحاكمة لأنها لم تقدم على أي خطوة لتبديد مخاوفهم تلك تجاهها.

سادساً- منهج للإصلاحات الاقتصادية:

يصحّ القول نفسه بالنسبة لكردستان ايران. فهناك أيضا، ورغم أن حكم رضا شاه بهلوي أجرى في البلاد كثيرا من التطورات العميقة، كتقوية السلطة المركزية وتنظيم الشؤون المالية بأساليب حديثة وتنشيط عمل المصارف الزراعية ومدّ السكك الحديد وتوسيع شبكات الطرق ومحاولات إسكان الرحّل، فإن هذا العمل الجذري الذي يحتاج لنفس طويل، لم يستطع إخراج كردستان من عزلتها. ونقصد بكردستان ايران، المنطقة الواقعة بين كرمنشاه وبحيرة أورومیه. ومن المفيد أن نذكر في هذا المجال منهاج الإصلاح الذي يتمنّى المؤلف الإيراني علي أصغر شميم الهمداني تحقيقه في كردستان ايران والذي نشير إلى بعض النقاط الواردة فيه:

١- إسكان العشائر الكردية الرحّل في المناطق السهلية وتوجيهها نحو الزراعة مع تعيين مندوبين عن وزارة الزراعة ليكون على رأس كل عشيرة مندوب يسهر على السكان ويرعى أشغالهم الزراعية.

٢- العمل على زيادة المعلّمين بحيث يتناسب عددهم مع أعداد هذه العشائر لتدريس أولادها من الذكور والإناث، على أن تشاد المدارس وتنظم في مناطق محددة وتدرّس المواد باللغة الفارسية[١٨]. مع مراعاة الا تكون المناهج مثقلة، وأن يدرّس تاريخ ايران باختصار[١٩].

٣- فتح مدارس مهنية في كرمنشاه وسنندج أو في أي منطقة أخرى تختارها الحكومة، لتعليم مهن النجارة والحدادة.. الخ.

٤- فتح فرع للمصرف الزراعي في كردستان ليقدّم القروض والسلف نقدا أو عينا، فيتحرر الفلاحون من الضغط الذي يثقله عليهم الملاّكون، وبذلك يرتفع مستوى معيشتهم.

(١٨) وليس بلغتهم الكردية كما تقتضي ذلك أبسط المبادئ التربوية - المترجم.

(١٩) وليس تاريخ الشعب الكردي ولو بصورة مقتضبة - المترجم.

٥- إنشاء بعض معامل السجاد والصبغ تحت إشراف الاختصاصيين، وبذلك تنهض هذه الصناعة وتقوم بتطوير منتجاتها وفقا لمتطلّبات الأسواق الخارجية.

٦- اتّخاذ الإجراءات اللازمة لمنع التهريب الذي يمارس في مناطق (مريوان) و (هورامان) الذي يلحق الاضرار بالتجارة المشروعة.

٧- نظراً لعدم إلمام الأهالي بالوسائل الحديثة لتجفيف الثمار وإعداد المنتجات الزراعية، فإنها رغم جودتها، لا تتلاءم من حيث تجهيزها مع متطلبات الأسواق الحديثة. لذلك ينبغي إنشاء مؤسسات زراعية أو إرسال اختصاصيين إلى كردستان لتعليم الأهالي تلك الوسائل الحديثة.

٨- يقدم الرحّل على قطع الأشجار بطرق اعتباطية تعرض الثروة الخشبية في كردستان ايران إلى الزوال، لذلك ينبغي على الحكومة أن تنظّم جهازا خاصا يتولّى استغلال الغابات وحراستها.

٩- يجب وضع تشريع يحدّد بدقة واجبات وحقوق كل من ملاكي الأراضي والفلاحين، ذلك أن الفلاحين الذين يتعرّضون حاليا للاستغلال من جانب الملاّكين يجب أن يكون لهم الحق في تملك الأرض أيضا.

١٠- تحتاج كردستان إلى طرق معبّدة تربطها بالمناطق المحيطة بها مثل كرمنشاه[٢٠] وأذربيجان والعراق العجمي وبلاد ما بين النهرين.

١١- اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الصحة العامة وتقليل عدد الوفيات بين الرحّل، لأنهم يكوّنون عنصرا منتجا في الأمة الإيرانية[٢١].

سابعاً- ملاحظات حول الاقتصاد الكردي وآفاق تنميته:

إن أسلوب حياة الكرد ومشاغلهم وعاداتهم، كما أتينا على تفاصيلها من وجهة نظرنا وبشكل عام، إنما هي نتيجة حتمية لطبيعة البلاد التي يعيشون فيها. إن الظروف المناخية وطبيعة التربة وتكوينها هي التي جعلت من الكردي منذ قرون خلت مربيّاً للمواشي ويرتحل من مكان لآخر لا فلاحا مستقرا في مكانه. إن هذا الوسط الرعوي هو أهم ما يتميز به الكردي، فهو لا يتحول إلى فلاح إلا إذا أرغم على ذلك كما حصل إبّان الحرب العالمية الأولى عندما فصلت الجبهة الروسية - التركية بين

(٢٠) يتجاهل واضع المشروع أن منطقة كرمنشاه مع الجزء الشرقي من أذربيجان تشكلان جزءا من كردستان ايران. وخلاصة القول أنه يحصر كردستان، في المحافظة التي تطلق عليها الدولة أسم (كردستان) رغم أن كردستان تشمل مناطق شاسعة خارج هذه المحافظة أيضا - المترجم

(٢١) يبدو أن واضع هذا المشروع "الإصلاحي" كغيره من غالبية الكتّاب الإيرانيين يعتبر الشعب الكردي جزءا من الأمة الإيرانية، ناسيا أو متناسيا أن الشعب الكردي في كردستان ايران لا ينتمي لغير الأمة الكردية المجزأة حاليا شعبا وأرضا - المترجم.

بعض العشائر الكردية وبين مناطق الرعي الصيفية، فترتب على ذلك ما ترتب من هلاك أعداد كبيرة من قطعان مواشيهم، فاضطروا إلى تبديل نمط عيشهم.وقد تؤدي الأوبئة التي تصيب الماشية إلى النتيجة نفسها. أما مبادرات السلطات الحكومية من أجل استقرار الرحّل من بين العشائر فإنها تصطدم بذهنية الكردي الجبلية التي تحتقر رجل السهول. ولا تجد هذه المحاولات بعض النجاح إلا إذا كانت مقرونة بالكثير من الدراية والصبر واستعملت معها جميع الوسائل المالية والتكنيكية اللازمة. إن الكردي ينظر حتى الآن بحذر شديد – وهو على حق في ذلك – إلى أي إجراء تتخذه السلطات لأنه يحسّ أنه لا يمكن أن يحمل إليه إلا الشر. فينبغي إذا بذل المزيد من الجهد فيما لو أردنا تحقيق بعض النتائج في هذا السبيل بطرق سلمية. ويجب، قبل كل شئ، العمل على كسب ثقة الرئيس (الآغا) الذي مايزال يتمتع بسلطة فعالة بين الكثير من العشائر. إن أفضل وسيلة ينبغي إتباعها هي التقرب إلى الكرد بواسطة الكرد أنفسهم والعمل ضمن نطاق العشيرة لأنها مألوفة لديهم. اما محاولات استعمال العنف أو اللجوء إلى القوة فإنها تهدّد بخلق مضاعفات خطيرة، لأن من الصعب إخضاع الشخصية الكردية بالعنف والقوة. والواقع أن هذه الملاحظات التي أبديناها ملاحظات عامة وأن الحالة يمكن أن تختلف من مكان إلى آخر. وتستلزم كل حالة دراسة دقيقة لكل جوانب المشكلة. وفي هذا السياق أشير إلى أسلوب العمل المتّزن جدا للمبشّرين الأمريكان في (أورومیه) خلال الحرب العالمية الأولى. فبفضل المساعدة الطبيّة المجانية التي كانوا يقدّمونها للأهلين، استطاعوا تكوين علاقات طيّبة ودائمية مع عدد من رؤساء العشائر، وهذا ما سمح لهم بإنقاذ حياة العديد من الناس عندما أعلنت الحرب المقدّسة (الجهاد) ضد المسيحيين في المنطقة. ثم اتبعوا فيما بعد أسلوبا سياسيا ذكيا في مساعدة اللاجئين الكرد وذلك بإشغالهم في أعمال منظّمة ومفيدة كفتح الطرق وغيرها. وهكذا أسهموا في عمل مثمر أدخل في أذهان الكرد شيئا فشيئا بعض الدراية التي رفعت من مستواهم الحالي. إن فتح المدارس بلغة الأم وإنشاء المستشفيات والمساعدة البيطرية تمثل خطوات يمكن اجتيازها بالتتابع، وتمثل، باستثناء الإسكان الإجباري، المنهاج الذي اقترحه علي أصغر شميم الهمداني، مع النقاط الأخرى من الاقتراحات الجديرة بالاهتمام. ولسنا هنا بصدد بيان الرأي بالنتائج التي توصّلت إليها السياسة السوفياتية إزاء الكرد في قفقاسيا، إننا نجهل الوسائل المتبعة والنتائج التي توصلوا إليها وبخاصة في مجال تربية المواشي. والشي الذي نعرفه بالنسبة لرحّل آسيا الوسطى أن نتائج الإسكان السوفايتي كانت سيئة للغاية(٢٢)، فقد قلّلت عملية تأجير المواشي، المواشي بنسبة مفجعة. فكانت النتائج مماثلة في القفقاس أيضا. أما بالنسبة للشعب الكردي في العراق، فلا تتوفر لدينا

(٢٢) يمكن الرجوع في هذا الباب إلى الملاحظات الموجّهة جدا لليتل باز في كتابه الجدير بالاهتمام بعنوان (البحث عن مناجم الذهب في سيبيريا ١٩٢٨-١٩٣٧) الصفحات ٥١، ٥٧، ٢، ١٠٢، ١٦٨. وسنعود إلى هذا الموضوع في الفصل العاشر من كتابنا هذا ضمن استعراض بعض المنشورات السوفياتية حول الكرد.

معلومات بشأنهم عن حالتهم الاقتصادية. إن حكومة بغداد، شأنها في ذلك شأن حكومتي طهران وأنقره، مارست بشأنهم سياسة إصلاح وتحديث. ولكن هل استفاد منها الكرد حقا؟ إن عدم معرفتنا الأكيدة بأحوالهم تجعلنا نلجأ إلى تمنّي صحة ذلك.

إن المواشي التي يصدرها العراق سنويّاً بكميات هائلة، تأتي نسبة كبيرة منها من المناطق الكردية. كما أن استخراج النفط من منطقة كركوك يتم أيضا بمساعدة الأيدي العاملة الكردية. وقد أكد (سون) قبل الحرب العالمية الأولى، في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه أن الكرد المستقرّين في القسم الجنوبي من زاغروس (كلهر، باجلان، جاف) اثبتوا قابلية طبيعية لممارسة الأعمال الميكانيكية في شركات النفط (شركة النفط الإنكليزية – الإيرانية) التي باشرت أعمال التنقيب في أطراف قصر شيرين. وقد استخدمت الشركة المذكورة العمال الكرد في أعمال حفر آبار النفط وفي الأعمال الميكانيكية، فأثبتوا في ممارستهم لتلك الأعمال مهارة فائقة، حتى أن الشركة المذكورة عندما نقلت نشاطاتها إلى الجنوب الغربي من ايران، طلبت من العديد منهم الانتقال معها إلى المناطق المذكورة. وكما يقول (سون): لقد اثبتوا أنهم اكثر تفهّما واستعدادا لتطوير أنفسهم من العمال الآخرين، وأظهر العديد منهم جدارة ومهارة فائقتين في ميادين العمل التكنيكي. إنهم جد منظمّين وهائلين لا يصيبهم الكلل ويبدون استعدادا عجيبا للعمل، ويمكن القول بحق أن العمال الكرد في كركوك وفّقوا في استخدامهم لاعمال استخراج النفط.

بديهيّ أن هناك بوناً شاسعا بين حالتي الرعي والعيش في الخيام وكون المرء عاملا ميكانيكياً، والكرد مثل بارز لكي تتّضح المسافة الفاصلة بين هاتين الحالتين. وعلى كل حال فإننا ننهي هذا الفصل بالبحث عن الاقتصاد المنزلي عند الكرد، ونأمل أن يبلغ الكرد يوماً ما مستوىً رفيعاً من الرفاه والسعادة المتناسبة مع استعدادهم الذاتي.

الفصل الرابع

فرديّة الكردي وطباعه

"تكمن خصائص كل أمة من الأمم في طبائع وعادات أفرادها أو مواهبهم الرئيسية، بل وحتى في المعايب التي تميز شعبا عن آخر"

فولتير (القاموس الفلسفي)

أولاً– صعوبة رسم صورة عن الحالة النفسية لشعب ما:

عندما نقوم بدراسة عن شعب ما، كما نفعل الآن بخصوص الشعب الكردي، لا يصحّ إغفال الجانب النفسي لهذا الشعب. من المؤكد أن لدى كل شعب هذا الذي يطلق عليه أسم (روحه الوطنية)، أي مجموع الملامح التي تميزه عن الشعوب الأخرى أو تقربه منها. ومع ذلك ودون أن ننكر وجود (ملامح ثابتة) في خصال وطباع شعب ما، هي حصيلة ماضيه وظروف حياته الراهنة، فإنه ينبغي عدم إطلاق التعميمات في هذا المجال، لأنه يكون في أغلب الأحيان غير قائم على أساس ويؤدي إلى وضع صور وعلائم ثابتة يصعب تصحيحها مستقبلا[1]. ان هذه التحديدات التي توصف بكونها نفسية، تمليها في أغلب الأحيان عوامل وانطباعات شخصية. فهذا الشعب الذي نرفعه إلى السماء لسبب ما (غالبا ما يكون سياسيا)، نهبط به غداً إلى الحضيض إذا ما تبدّلت الظروف. تارة نمدح الفردية لدى مقارنتها بالروح الجماعية، وتارة أخرى نحمل على مساوئ الارتجال الفردي في مقارنته بالنتائج التي يحققها النظام الجماعي... الخ. وقد يعتبر الاقتصاد والتروي من الفضائل، ولكنهما يولّدان أحيانا البخل

(١) تعتبر المسألة من الناحية العملية صحيحة. فمن المؤكد أن لأفراد شعب ما قاسماً مشتركاً يجمع بينهم تمتد جذوره في تاريخهم وبيئتهم الطبيعية وفي مجموعة كبيرة من العناصر الاجتماعية والبايولوجية. فإذا اغترب أحد الأفراد إلى وسط آخر استطاع اكتساب صفات أخرى وتكوين شخصية جديدة له، ولكن هذا التبدل يكون طارئا وسطحيا، وسرعان ما يزول عندما يعود هذا الفرد إلى وسطه الأصلي (د. روس، دراسة حول الدور الاجتماعي للعرق في علم الحيوان وعلم البايولوجي، مجلة الأنثروبولوجي، عدد كانون الثاني، مارس ١٩٣٩). وسواء تعلق الأمر بخواص طبيعية أو نفسية للمجتمع، فانها تنمو أو تضمحل تبعا للوسط الذي يعيش فيه الفرد ويتوارثها فيه من يخلفونه. ان النظرية الداروينية تؤكد على الانتقاء الطبيعي الناتج عن الكفاح من أجل البقاء. أما نظرية (النيو لامار كيزم) فإنها تسند الدور الأساسي إلى البيئة التي تحدد ظهور أو اضمحلال الفعل المؤثر. ويبدو أنه في المرحلة الانتقالية الحالية يحاول الباحثون التقريب بين النظريتين (راجع: زينانو، حول انتقال الخصائص المكتسبة). وحول هذه النقطة الأخيرة يبدو أن العلم السوفياتي ممثلا في شخص البروفيسور ليسنكو غير متفق مع العلم الغربي.

والتقاعس لأنهما يضعفان روح المجازفة. وهذا ما يؤدي إلى نتائج سلبية. وهناك من يحاول تفهّم ملامح شعب ما وردود أفعاله عن طريق دراسة "عقليته الريفية" باعتبار أنه أقل تقبلا للمساومات من جاره الذي يملك "عقلية تجارية" ومتعوّد على المصالحات والتسويات بحيث أن المرونة التي يبديها هؤلاء تكون أحيانا غير مقبولة. ويعلّق بعضهم أهمية كبرى على الوضوح والشكل والمنطق. ويرد عليهم البعض الآخر بالقول أن الحياة لا تخضع دائما للمنطق وقابلة للتغير ولا تقبل بالمسلّمات المحددة، وينبغي التوافق واتباع الديناميكية مع الشعور الجازم بالتحول. وباختصار يمكننا قول الكثير في هذا المجال، ولكن الشيء الذي يهمنا قوله هو التذكير بأن نطاق سيكولوجية الشعوب واسع إلى حد كبير ومليء بالعراقيل. إن الروح الوطنية التي تهمنا هنا هي اقل تعقيدا بالنسبة للشعب الكردي مقارنة بالشعوب الأخرى التي كانت موضعا للدراسات والملاحظات التي أشرنا إلى قسم منها. وحتى بالنسبة لحالة الشعب الكردي، تبقى القاعدة العامة صحيحة وبخاصة تلك الأحكام المتسرعة غير الناضجة التي أطلقت في الغالب مصادفة أحيانا عن طريق السماع والنقل.

ولأجل أن نصل إلى نتيجة مرضية ونقدم في هذا المجال عناصر التقدير التي يكمل ويصحّح أحدها الآخر، فإننا نعرض بادئ ذي بدء آراء بعض الأجانب الذين قاموا بدراسات عن الكرد، ثم نتخذ من بعض ما ورد في الأقاصيص الشعبية معيارا لرأي هذا الشعب في نفسه.

ثانياً– نماذج سيكولوجية كردية للدكتور كريستوف:

(١) رُحَّل من رعاة جبال طوروس:

أعمق دراسة قدمت عن طبائع الكرد هي حسب علمنا، دراسة الدكتور هيلموت كريستوف في مؤلفه الذي أتينا على ذكره، مقارنا الكرد بالأرمن. وباستناد المؤلف على اعتبارات سياسية واجتماعية، يصنّف الكرد إلى أربع مجموعات: (أ) رعاة المواشي في الهضبة التركية–الأرمينية العليا والمجرى الأعلى لنهر كور أي أعالي (آراس) ومراد والفرات وحوض بحيرة وان. (ب) رعاة المواشي في منحدر طوروس الجنوبي. (ج) الكرد الرحّل من المقاتلين في المناطق الحدودية. (د) أنصاف الرحّل. ويعتبر كريستوف الكرد في مناطق طوروس الجنوبي الذين يرتادون بادية سوريا وبلاد ما بين النهرين في الشتاء، النموذج الأمثل للكرد، لأحتفاظ هؤلاء باصالتهم أكثر من جميع الفروع الأخرى المشتقة عنه. إن طبائع وصفات هذه المجموعة تكونت خلال صراعها مع الطبيعة ومع العدو. إن تقلبات المناخ هنا تؤثّر كثيرا على الإنسان. ففي هذه المنطقة يتتابع البرد القارص والحر الشديد بفترات قصيرة. الحر في الوديان العميقة لجبال طوروس شديد لا يطاق، بينما الرياح الباردة في الجبال تعصف، ويظل الثلج في بعض الأماكن العالية في مكانه طوال السنة. وفي الشتاء تعصف الأعاصير الثلجية حتى في سفوح الجبال وفي الأراضي البور وتجبر الناس على الاحتماء بمنازلهم أو خيامهم التي لا تقوى على حمايتهم

من البرد، بينما تترك المواشي مراعيها.

وبالإضافة إلى هذه الصعوبات المناخية، هناك وعورة الجبال التي تواجه كل خطوة فيها عقبات وعوائق. فلا يستطيع الكرد الانتقال من مكان إلى آخر إلاّ ببذل جهود منهكة وبخاصة مع مواشيهم في عبورها للصخور العالية الوعرة والسيول الصاخبة التي تتضخّم بوجه خاص في الربيع بفعل ذوبان الثلوج. ان التغلّب على مثل هذه العقبات الطبيعية يفتقر إلى قوة إرادة وقوة احتمال كبرى. وينسب إلى الرحّل بوجه عام تخيلهم الواسع الذي لا يرى في العالم إلا الأشباح والشياطين، ولكن ذلك لا يمنعهم أبداً من التحرك بالصورة التي يرونها مفيدة لهم. فبموجب قانون توافق المضادات، فانهم يكونون شديدي الوعي للواقع. ولكن ليست الطبيعة القاسية وحدها هي التي تصقل أمزجتهم، بل هناك أعداء يحيطون بهم ولابد لهم من شجاعة شخصية للتغلب عليهم. وتعيش العشائر الكردية في جبال طوروس في حالة قتال دائمة. ففي الصيف تتقاتل العشائر المتجاورة للاستيلاء على المراعي الخصبة وحماية مواشيها من السلب، ولكن الكرد يجبرون على القتال مع العرب البدو، بوجه خاص عند حلول الشتاء ونزولهم إلى بادية سوريا والعراق. وككل الرحّل، لا يرى البدو العرب في سرقة المواشي عاراً، كما أنهم يعرفون أن الكرد لا يستطيعون اللّحاق بهم في الاودية التي يجهلونها. وفي حالة المصادمات المسلّحة بين الطرفين، يكون الكرد أشدّ مراسا من البدو من حيث الجرأة وفن القتال بحيث أن البدو يفضلّون الهروب على مباشرة القتال معهم. وكما قال (مولتك): "إن كلا الطرفين يميل إلى السلب، ولكن العرب أكثر ميلاً من الكرد نحو السرقة، والكرد أكثر ميلا من العرب إلى القتال". ان الاحتكاك بين العرب والكرد ظاهرة إتنولوجية يستوجب الاهتمام بها والتوقف عندها بعض الشيء. ونذكر في هذا السياق أولاً رأي الكاتب الفرنسي البارع بيير روندو: "تنحدر سلسلة جبال أرمينيا وكردستان انحدارا شديدا من جهة الجنوب عبر ماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر نحو بادية الجزيرة التي يقطنها البدو العرب. وتعتبر هذه المنطقة حدا فاصلا بين عالمين. فبينما يتعذّر على البدو العرب الذين يعتمدون في معيشتهم على الجمال، ان يصعدوا إلى تلك الجبال المليئة بالحصى، ينظر الكرد باشتهاء إلى أطراف البادية التي تعتبر نسبيا أحسن ارواء وأسهل للزراعة من الجبال حيث بإمكانهم إيجاد المراعي لمواشيهم والاستقرار لممارسة بعض أنواع الزراعة. وعندما يسود الأمن، أي عندما تكون السلطة قوية بحيث تفرض على البدو العرب عدم التعرّض إلى الزراعة، ينزل الكرد إلى السهل. ولكن الأمن لا يسود دوما، كما أن المحصول لا يكون جيدا على الدوام. والمناخ الصحراوي ينهك صحة رجال الجبال ويهلك سهل الكرد، فيكون المد والجزر[٢]". إنني أوافق (روندو) على ملاحظاته حول تأثير المناخ السيئ على صحة الكرد. فخلال الحرب العالمية الأولى عندما كانت جبهة القتال الروسية – التركية تعزل الكرد عن مراعي مواشيهم، تسنّت لي الفرصة لأرى بأم عيني وضع عشيرة (بكزادەى

(٢) روندو، العشائر الجبلية (باللغة الفرنسية)، ص ٩ – ١٠.

بنار) في (مركور) التي أجبرتها تلك الظروف على البقاء في السهول في شمالي بلاد ما بين النهرين وهي في حالة ضعف شديد عندما ظهرت فيما بعد في خطوط قتالنا الروسية. وقد تطرق إلى العلاقة الكردية – البدوية نفسها كل من (بانس) و (سوسين) فيقول بانس: "وهكذا نجد أنفسنا في منطقة الحدود بين العرب والكرد وهي من أهم مناطق الشرق الآسيوي، إذ يصطدم فيها شعبان مهاجران. فالبدو العرب قد صعدوا من الجنوب حيث الصحراء والبوادي التي لا حد لامتداداتها، بينما يهبط الكرد من الشمال حيث يأتي منه الأرمن أيضا والإدارة التركية. ولفهم هذه الظاهرة المهمّة نرجع إلى الخارطة الملحقة. هناك ثلاثة خطوط تشير إلى الحدود الشمالية للمناطق التي تستخدم فيها اللغة العربية، والمناطق التي يسعى إليها العرب البدو صيفا وشتاء طلبا للكلأ. يتبين لنا أن هذه المناطق محاطة بسلاسل جبلية باتجاه الجنوب ولا يعيش العرب إلا في السهول البعيدة بين (تق تق) و (كراجه) و (طور عابدين). ويتوقف العرب في نهايات الجبال والمنحدرات الخفيفة. ويلاحظ أن مناطق ارتياد الكلأ للبدو صيفا تتجاوز في الغالب تلك الحدود الشمالية. اما شتاء فإنهم ينسحبون جنوبا بمسافات واسعة. وهكذا فإنهم يبتعدون، على سبيل المثال، من المنطقة الغنية بالمياه التي تصبّ في نهر خابور".

"ووفقاً لصيرورة التأريخ في الشرق الآسيوي، نجد أنفسنا مضطرين للإقرار بوجه عام بأن شعوب الشمال يتميّزون بالميل إلى التوغل نحو الجنوب أكثر من ميل شعوب الجنوب إلى الصعود نحو الشمال. وفي الحالة الماثلة أمامنا، يعدّ هذا الاتجاه في الحركة ملائما لشعوب الشمال التي تميل مع ذلك إلى حياة التحضّر لأنها اعتادت على العيش في أرض كردستان ذات مياه الأمطار والعيون الغزيرة التي تسمح، كما هو الحال في القسم الأعظم من شمالي بلاد ما بين النهرين، بنشأة زراعة الحبوب دون حاجة لوسائل الرّي الاصطناعية. ويمكننا التأكيد مع ذلك على أن معظم شعوب الشمال قد توقف نزوحها باتجاه الجنوب بمجرّد وصولها إلى المناطق التي لا يمكن الزراعة فيها إلا باستعمال وسائل الرّي الضرورية.

وتمتد فيما وراء هذه المناطق، البادية التي يسود فيها الاقتصاد الرعوي التي يعيش فيها العرب البدو. ومن جهة أخرى لم ينفذ العرب قط إلى الشعاب الجنوبية للجبال الملتوية في أرمينيا، ذلك لأنهم يفتقدون البادية الواسعة المترامية الأطراف والسهول التي لا يستطيعون العيش بعيدا عنها. إن الصورة التي تمنحها إيانا تلك الخريطة تمثل خطوط الحدود الحالية بالشكل الذي يبدو تقريبا في مركز هذا المعترك المتنازع عليه (كتب بانس ذلك في عام ١٩١٣). وخلال السنوات الأخيرة بدأ العمل لأسكان الكرد والأرمن والعرب من قبل الإدارة التركية. إن المشاتي الصغيرة (قشلاغ) التي يعيش فيها بعض السكان، تقاوم بصورة أفضل قطاع الطرق المسلّحين من البدو العرب (ريزو). وتزداد الرحلات تدريجيا بحيث يمكن القول أنها دفعت البدوالعرب إلى تراجع مستمر. وإذا ما وثقنا بشهادة

أثنين من الرحالة، فان الحدود الجنوبية للمناطق التي يعيش فيها الكرد منذ (سيرنيك عام ١٨٧٢) و (نولد عام ١٨٩٣) نزلت من طوز خور ماتو إلى (قرەتبه) التي تفصل بينهما مسافة ٦٠ إلى ٧٠ كيلو مترا (بانس، ص٦٢-٦٤).

اذا ما عدنا إلى أصل الموضوع الذي نحن بصدده، تبين لنا أن الصفة البارزة للكرد هي حبّهم للقتال. إن الحياة الحرة غير المقيدة للرحّل وسعيهم الدائم إلى المراعي الخصبة أو إلى الصيد أو الغزو، قد أوجد لديهم حالة نفسية جعلتهم ينفرون من كل التزام ويثورون ضد كل اكراه. لقد علّمت الحياة الفرد الكردي "أن العالم ملك الشجاع". ان هذه الخصوصية في الطباع ما كانت لتخدمهم لو لم تؤد بهم إلى الصراع مع الفناء، ولو لم يكونوا خاضعين لادارة مدرسة قاسية هي العشيرة التي يتعلّمون فيها السيطرة على النفس والتضحية وأداء الواجب إزاء المجموع. إن وقوع الكردي تحت تأثير هذا العامل المزدوج: الصراع المستمر مع الطبيعة ومع الإنسان والخضوع لأنظمة العشيرة، قد كوّن فيه هذا الخلق النبيل الذي يتجلّى في شعارهم الثلاثي: الشهامة وحسن التصرف والإباء. وكمثال واضح على هذه الخصال الكريمة والثقة الكاملة بالنفس يمكننا ان نذكر حالات قبل فيها رؤساؤهم المستقلّون قرارا صدر من حكم في نزاع فيما بينهم، بمجرد ان ركونهم إلى شعورهم بالعدل وبعدم المحاباة. ويورد لنا (نولد) واقعة من هذا القبيل عندما كان في رحلة في كردستان على رأس قافلة كبيرة، وقد طلب منه أن يكون حكما لحسم ذلك النزاع.

ولكن كما أن الطبيعة لا ترحم الكردي، فإنه لا يرحم بدوره خصمه أيضا. فالأخذ بالثأر والميل إلى الانتقام يسيطران عليه. إن قانون الأخذ بالثأر هو الذي يحكم الصلات بين العشائر. ويروي لنا (رابينو) في الفقرة الخاصة ببلدة (بانه) أنه في أحد أيام سنة ١٨٩١ دعا يونس خان حاكم هذه المدينة عمه حاجي مصطفى مع عائلته لزيارته ثم أقدم على ذبحه مع أحد أبنائه. ولكن ابنه الثاني المدعو عبدالله بيك الذي لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره استطاع، رغم جرحه، الانقضاض على يونس خان وقتله بضربة خنجر ثم قتل ستة من أتباعه قبل أن يستطيعوا النيل منه. وتقول الأمثال الكردية الشائعة إن "عدّو الأب لا يمكن أن يكون صديقا للأبن" و "أن تلوث يديك بالدم أفضل من أن تتخلى عن الأخذ بالثأر". إنّ تعطّش الرحّل الكرد للدم يفوق تعطش غيرهم من الرحّل كما تثبت ذلك المذابح المتكررة للمسيحيين التي يتحدث عنها بعض الرحالة. ويعود هذا الطبع إلى أن مرتكب الجريمة يستطيع بكل سهولة أن يتوارى هاربا بين الجبال دون أن يترك له أثرا في هذا البلد الجبلي الذي يصعب فيه مطاردته. ويؤخذ على الكرد أيضا إفراطهم في كثير من الأشياء حتى في الأكل، وهم يدركون الأضرار التي تلحقهم من جراء هذا الإفراط، لذلك يقول مثلهم "كل شئ ينكسر إذا كان رقيقا، ولكن الإنسان ينكسر إذا تضخم". ويستطيع الكردي مع ذلك أن يضع حدا لإفراطه بدليل علاقاته المعقولة مع الفلاحين الأرمن في المناطق التي يمتلكون فيها الأرض وحدهم. وبموجب قانون

توافق الأضداد أيضاً، يشتهر الكردي غالباً بالطريقة التي يتصرف بها والتي تدهش الغير لمغايرتها لسلوكه المعتاد. ان نفس الكردي الذي يعد في بيئته العشائرية نموذجا للنظام والمروءة، يمكن ان يبدو إزاء الأجنبي جشعا بغير حدود. حتى أن بعض رؤساء العشائر منهم ينسون وقارهم ويستعطفون أمام الرحالة قطعا من السكر أو شيئا آخر يكون مطمح أنظارهم(٣). إن شعور الحقد وغلظة القلب هذا وعدم أخذهم شيئا بنظر الاعتبار ازاء العدو، يمثل نقيضا لصفاتهم المعروفة كعزة النفس والوقار الذي يتميزون به. وبمقدار بسالتهم وشجاعتهم كمقاتلين أشداء، يعدون غير ذوي أهلية لتحقيق مصالحهم الاقتصادية. ان سريرة الكردي المستقيمة تبعده تماما عن عالم التجارة. إن طبيعته المتفتحة الشريفة وطمعه الصبياني وخفة روحه تجعله فريسة سهلة للتجار الأرمن.

وعلى كل حال فإن الخصائص الرئيسية التي تضمن دوام الدولة وتطور الثقافة موجودة لدى الكرد وبدرجة عالية، إنها تضمن لهم استقلالهم السياسي وتسمح لهم بالسيطرة على الفلاحين والتجار الذين يفوقونهم من حيث إمكانياتهم الاقتصادية والفكرية. لذلك يحق لنا التأكيد بأن تكوين طبائع العشائر الكردية في مناطق طوروس يقترب من درجة التفاؤل. وسبب ذلك أن الكفاح اليومي مهما كان قاسيا لا يجعلهم يتقبّلون اجراء ما، بينما تفرض الحياة العشائرية النظام وتضع حدا للغرائز الفطرية. كذلك يفسر انتماؤهم للعرق الشمالي طبائعهم التي تكونت بسبب ظروف المناخ والتربة.

(٢) رعاة من رُحَّل أرمينيا (تماس مع أرمينيا):

نأتي الآن إلى المجموعة الثانية وهم رعاة المواشي في أعالي هضبة أرمينيا الذين يتميزون بوجه خاص بقضائهم فصل الشتاء القارص مع الفلاحين الأرمن في منازلهم تحت الأرض. فبينما يقضي الكرد الذين يعيشون في جبال طوروس هذا الفصل في مقاتلة بدو سوريا وبلاد ما بين النهرين في تنافسهم على المراعي، يكون سكان هضبة أرمينيا مختبئين بسبب قساوة الجو، في منازل مغلقة مدة ستة أشهر تقريبا. وليس بوسع أحد مهما كان شجاعا أو ذا إرادة قوية أن يغير من هذه الحالة القائمة. لذلك ليس من الغريب عليهم أن يعيشوا خلال هذه الفترة حياة أكثر هدوءاً أو أمنا من تلك التي يقضونها خلال الصيف وهم أحرار لا يعرفون القهر والضغط. ويتعرف الكرد أيضا خلال هذه الفترة بصورة أفضل على الأرمن الذين يتنازعون معهم على وسائل العيش. ويحاول هؤلاء لمرونتهم المحافظة عليها بكل الوسائل. إن هذا التعايش يؤثر بطبيعة الحال على طبائع الكرد، لذلك غالبا ما نجد لدى الكرد الرحّل في الهضبة الأرمينية التعود على الخديعة. ومع ذلك يجب أن لا نرى في هذه الخدع

(٣) في إحدى الأماسي أقمت معسكري في قرية تعود لشخص يدعى عبد الرحمن آغا من رؤساء عشيرة (شيرنا كلي). وقد أعجبته بندقيتي ومنظاري المقرب، وقد طلب مني دون جدوى عدداً من الخراطيش، ثم رجاني إعطاءه بعض الديناميت، ثم طلب مني إعطاءه حاجيات أخرى".. (ديكسن في المقال المشار إليه آنفا).

والمخاتلة الغّدارة سبباً للتهجّم عليهم كما يفعل ذلك بعض المبشرين في مؤلفاتهم. ورغم حياتهم المشتركة مع الأرمن خلال فصل الشتاء، يعرف الكرد فيم يختلفون عن الأرمن. واذا ما أضيف إلى ذلك بعض التأثيرات السياسية بالإضافة إلى مزاج الرحّل، فلا نستغرب بعض التناقضات التي تنتهي بتغذية روح البغضاء والكراهية.

وقد تحدّث الكونت (ده شولى) في مؤلفه (أرمينيا، كردستان، وبلاد ما بين النهرين – عام ١٨٩٢، ص١٧٢) عن التصرف التحكيمي لبعض البكوات الكرد الذين كانوا يسلبون من الأرمن أراضيهم ثم يستخدمونهم فلاحين أو عمالا في حقولهم القديمة، كما يشير إلى حالات قطع طرق وسلب ونهب (ص٢٠٤). أما بالنسبة لمذابح الأرمن، فلدينا بالإضافة إلى المصدر السابق. مؤلف كونتينسون المعنون (المسيحيون والمسلمون ١٩١٢) الذي يصف السلطان عبدالحميد، بحق، بالسفاح الأكبر، ويحمّله المسؤولية الكبرى عن تلك المذابح (ص٦٥). وحول جوهر المسألة الأرمينية يمكن الرجوع إلى كتاب البروفيسور ماندیلستام (عصبة الأمم والقوى الكبرى أمام المسألة الأرمينية، ١٩٢٥، باللغة الفرنسية).

(٣) العشائر الحدودية وأنصاف الرحّل:

إذا كانت طبائع الكرد الرحّل متأثرة بعيشهم المشترك مع الفلاحين الأرمن، فإن العشائر التي تقطن المناطق الحدودية، تتميز بميلها إلى القتال وقطع الطريق، وهي تكون المجموعة الثالثة من التصنيف الذي أورده كريستوف. إن خصال هؤلاء وطباعهم متأثرة بأسلوب عيشهم الذي يعتمد بالدرجة الأساسية على القتال فقط، دون أن تكون لهم أية مهنة أخرى منتظمة يعيشون منها، كما يفعل ذلك مثلا الكرد الرحّل والساكنون في القرى والمدن. إنهم يعتمدون على الغنائم واستغلال الغير. ان حياة التهيؤ الأقصى التي يعيشونها بصورة شبه دائمة تقريبا جعلت من طبائعهم قاسية جدا. إن طبيعتهم المتغطرسة تطورت إلى الرغبة المفرطة في الاستحواذ دون أن تأخذ طبيعة العادة المزمنة. إن جميع المتناقضات التي تمازج نفسية الكردي التي أشرنا إليها سابقا تبلغ عند هؤلاء حدها الأقصى. وسوف نرى فيما بعد أن معظم الكرد الذين يعيشون في المدن الكردية يعود أصلهم إلى هذه الفئة.

وأخيرا، تأتي المجموعة الرابعة وهي أنصاف الرحّل الذين ابتعدوا أكثر ما يمكن عن الطبع الكردي الأصيل، كما رأينا ذلك بالنسبة للرحّل في جبال طوروس. ونلاحظ لدى هذه الفئة الرابعة ليس التجاوز أو التضخيم المفرط لبعض الخصال أو الطباع التي تعدّ مشتركة، بل ضمور وفناء هذه الخصال، وذلك لأنعدام فرص استخدامها. فالصراع ضد العدو فقد لديهم أهميته إلى حد كبير، وحبّ التسلّط بل وحتى الشجاعة الشخصية قد هبطا إلى أدنى مستوى ليحّل محلّهما اللامبّالاة والجمود. كما أن زوال النظام العشائري الصارم أبرز كل ما في النفوس من ميل إلى الطمع. وبدلاً من السيطرة على النفس، ظهر لديهم طمع مفرط في المال. كما ان خضوعهم للسلطة السياسية قتل في نفوسهم

حب الحرية. وبأختصار، ورغم أن الكرد أشباه الرحّل لا يمكن تشبيهم بعد بالفلاحين، إلا أن طباعهم تتطور، بدون أدنى شك، في هذا الاتجاه(٤).

ولئن كانت وجهة نظر الدكتور كريستوف قابلة للمناقشة في بعض الأمور الواردة فيها – وسوف نشير اليها في مواضعها فيما بعد – إلا أنها تعد على كل حال محاولة مفيدة جدا تصلح أن تكون أساساً للجغرافية الإنسانية للشعب الكردي. إن تصنيفه للكرد إلى أربع فئات حسب طريقة معيشتهم التي تحدد بدورها طباعهم، تسمح بالنظر إلى الكرد نظرة أكثر عدلا وإنصافا من الآراء المتناقضة في الظاهر التي أبداها تجاههم العديد من الرحالة. فنحن أمام أربع فئات ذات طباع خاصة بها، ولسنا أمام نموذج كردي واحد، بحيث أن تنوّع المجتمع الكردي من بعض الوجوه واضح للعيان، حتى انه يصحّ ايراد حكم غير مماثل للآخر بشأن كل منها. ومن الضروري أن نلاحظ بشأن التصنيف الذي أورده كريستوف أن الحالة الديموغرافية الحالية لأرمينيا قد تغيرت لخلوها من الفلاحين الأرمن منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، مما اضطر الكرد في أعالي الهضبة إلى ممارسة الزراعة بأنفسهم وخزن العلف. وبذلك اقتربت هذه الفئة الواردة ضمن تصنيفه مع فئة أشباه الرحّل، فتقلّصت الفئات التي صنفها إلى ثلاث بدلاً من أربع.

وكما لاحظنا في الفصل السابق، يوجد بجانب الكرد الرحّل وأشباه الرحّل، الكرد المستقرّون، لذلك خصص لهم كريستوف ضمن مؤلفه فقرة خاصة نشير إليها الآن.

---

(٤) إن المؤلف الممتاز لـ(مس لامبثون) المشار إليه سابقا (١٩٥٣ باللغة الإنكليزية)، يؤكد لنا هذه الملاحظة. ونقرأ في الصفحة ٢٨٣ منه مايلي: " إن معظم العشائر هي شبه رحّل، وأحيانا مستقرة دون أن تفقد إلى حد ما تنظيمها العشائري. وارتياد الكلأ من قبل هذه العشائر يختلف كثيرا حسب المسافة والاتجاه الذي تسلكه العشيرة المعنية. وفي أغلب الأحيان يبقى عدد من أفراد العشيرة في الخلف (قشلاق) أي المقر الشتوي عندما يتم الانتقال باتجاه (بيلاق) أي المقر الصيفي، وذلك لحراسة المحاصيل فيه. وأحيانا تبقى عناصر بصورة دائمية أو شبه دائمية ولكن بإعداد قليلة في (بيلاق). إن رؤساء العشائر يملكون غالبا أراضي صالحة للزراعة في (قشلاق) وأحيانا في (بيلاق) أيضا. أما المناطق التي يرتادونها، فقد تعود لرؤساء العشائر أولا تعود لهم. وإذا كانت مراحل انتقالهم عديدة بسبب طول المسافة، فانهم يعبرون أراضي تعود لعشائر أخرى. وتسلك العشائر بموجب الأعراف السائدة طريقا خاصا بكل منها أثناء إرتحالها. ويحق لكل فرع (تيره) من العشيرة أن يعبر حسب تقاليده أراضي معلومة. وهذا العبور لا يتعدى كونه أمرا عرفيا. ويدعون أحيانا ان عبورهم يتم بموجب اتفاق سابق أو إجازة سابقة ماتزال سارية المفعول. أما بالنسبة للخسائر التي يمكن أن تنجم عن هذا العبور عبر حقول الزراعة إذا لم يستطع الرؤساء منعها، فإنها تعوض جزئيا عن طريق المنافع التي يحصل عليها الفلاحون من الرحل، كأن يشتروا منهم اللحوم ومنتجات الحليب بأسعار مغرية نسبيا. وتتحدث مس لامبثون أيضا بدقة عن النظام السائد في الزراعة لدى السكان الكرد المستقرين. وسوف نشير إلى تلك المعلومات في حينها.

(٤) العناصر الكردية المدنية:

كانت الحكومتان العثمانية والإيرانية تعهدان إلى رؤساء العشائر الكردية الموجودة في مناطق الحدود بمهام الحكام، فكان هؤلاء يصبحون بمثابة نوع من الحرس لحدود الدولة، الأمر الذي كان يصرفهم عن أعمالهم التقليدية. وكان يحيط بهؤلاء الحكام – الرؤساء مجموعة من الرجال المسلّحين تنحصر مهمّتهم في تنفيذ المهام العسكرية، وبذلك كانوا يقتربون من الحياة الحضرية. وكانت المراكز المدنية لهؤلاء تقام عادة في الأماكن الواقعة على تقاطع خطوط المواصلات، فيسهل عليهم وضع البلاد تحت سيطرتهم. إن اتخاذ ضيعة محلّاً للسكنى تتوفر فيه وسائل الراحة أحسن من معسكر للخيم. وبذلك كان الحاكم يتجنّب جعل مقر إقامته الشتوية في قرية منعزلة بعيدة عن وسائل الراحة، فكان يجب عليه البقاء في المدينة شتاءً، إن لم يكن يريد أن تكون سلطته معرّضة للخطر. وهكذا كان هؤلاء المقاتلون يتبعونه ويستقرون معه في المدينة. ان هذا التحول إلى الاستقرار تم بوجه خاص في الأقاليم الحدودية، وكانت الدولة العثمانية تعهد للأمراء الكرد بتولي الإدارة في أرمينيا والولايات الأخرى أيضا. لأنهم كانوا يتمتّعون بالإضافة إلى السلطات التي تمنحهم إياها السلطة المركزية، بتأييد العشائر الكردية ومساندتها. وغالبا ما كانت وظيفة الـ (باشا) متوارثة في اسر الأمراء الكرد، وهذا ما كان يفسح المجال أمام هذه الإمارات للقيام بثورات وانتفاضات يتكلّم عنها مؤلف كردي هو (شرفنامه) الذي ألّفه في القرن السادس عشر أمير بدليس آنذاك. ان سلطات هؤلاء السادة الكرد أصبحت مزدوجة، فمن جهة كانوا رؤساء لعشائرهم الرحّل المستقلّة، وكانوا من جهة أخرى موظفين وجنودا للسلطان. كما كان سلوكهم السياسي مزدوجاً. فعندما تكون الحكومة قوية، يمارسون وظائفهم بصورة جيدة. وإذا ما ضعفت السلطة أستبدّ بهم الشعور بالأستقلال، فيتصرّفون كأمراء مستقلّين وفق رغباتهم. وكانت الحكومة العثمانية تدخل معهم في معارك طويلة لهذا السبب.

كان الأمراء الكرد يعيشون في قلاع منيعة أو على الأقل في قصور محصّنة[٥]، وكانوا يقضون أوقات فراغهم في الصيد أو القتال، فيقاتلون رعاياهم المتمردين ومعظمهم من الرحل الذين ينتسبون لعشائر غريبة عنهم، أو مع جيرانهم فيما لو أراد أحدهم أن يصبح (باشا) مثله من قبل السلطان، أو

(٥) أطلال القلاع الحصينة في كردستان كثيرة. وقد ورد في شرفنامه (طبعة القاهرة، ص ٤٤١-٤٤٢) أن قلعة بدليس بنيت بأمر من الاسكندر الأكبر من قبل خادمه الذي كان يدعى (بدليس)، وقد غدت القلعة منيعة على الاسكندر نفسه وقاومته عند عودته من بلاد فارس، فتخلى عنها. وفي بداية حصارها تقدم بدليس نفسه "لابسا كفنه والسيف على رقبته" وشرح لسيده أنه تصرف وفقا لأوامره هو، فصفح عنه وحملت المدينة اسمه. ونجد لدى (باندر) في مؤلفه المشار إليه آنفا (ص ١٢٣-١٢٧) وصفا دقيقا لقلعة (محمودية) الحصينة الواقعة على مقربة من (وان). كما أن قلعة (دمدم) الواقعة في منطقة أورروميه أمست مثار إلهام لإحدى روائع الشعر الكردي. ويعطي (مولتكه) في كتابه آنفا الذكر (ص ٢٦٤) تفاصيل عن قلعة (سيد بك).

مع قطّاع الطرق، رغم أنهم أنفسهم كانوا يمارسون تلك الأعمال أحيانا. وفي جو كهذا، كانت السجايا البارزة للطبائع الحربية تجد الارتقاء، وكان هؤلاء الكرد الذين يعيشون حياة النبلاء أو المقاتلين في مدن أرمينيا يعتبرون عناصر معادية للتمدّن ويسمّونهم بالـ (أنتى سارت)[٦]. ويقصد كريستوف بهذا المصطلح الرجال الذين يكسبون معيشتهم بوسائل غير الزراعة والتجارة. وبقدر ما كانت صفات المقاتلين نامية لديهم، كانوا يفتقرون لأدنى استعداد لممارسة الأعمال الاقتصادية، لذلك كانوا يلجأون في جميع أعمالهم المالية والتجارية إلى الأرمن. فاذا كان مطمح الكردي الأعلى أن يصبح (باشا)، فان مطمح الأرميني الأقصى هو أن يصبح مصرفيا لهذا الـ (باشا)!. وهكذا كان أحدهما يكمل الآخر. ولكن الوضع في هذه المدن الواقعة في الأقاليم كان يختلف عما هو عليه في المدن التجارية الكبرى. فكان من النادر أن نجد رئيسا كرديا يتقبّل الرشوة من الأرمن، كما كان يحدث في حالات أخرى. ذلك ان الكردي لم يكن يعتبر نفسه موظفا بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل رئيسا مستقلا في صراع دائم من أجل المحافظة على وضعه الراهن. وكان يدير بنفسه العمليات الحربية، وفي الصيف يترك المدينة ليسكن خيمته في أعالي الجبال. إن طبائع هؤلاء الكرد لم تكن سوى صورة متطورة لمزاج المقاتل الذي يميل إلى الغزو من رعاة المواشي الذين سبق أن أشرنا إليهم. إن العناصر الكردية المستقرة في المدن هم في الغالب من بين أنصاف الرحّل الذين فقدوا إلى حد كبير استقلالهم الاقتصادي وازدادت حالتهم فقرا بسبب استقرارهم في المدينة. إن أبناء العشائر الرحّل غير المقيدين بشيء يسلفون المال على قسم من الغلة العائدة للأرمن وأشباه الرحّل من الكرد أيضاً. وبذلك يكون الفلاح نصف الراحل ملزماً بتلبية مطاليب الرحل والملاك (ومعظمهم من الفلاحين) ومسؤولي الضرائب، وينتهي الأمر بترك الريف والإقامة في المدينة لكسب متطلبات العيش. وهكذا تزداد طبقة الشغيلة في هذه المدن. إن طبائعهم المتأثرة بالزراعة التي كانوا يمتهنونها من قبل، تتطور شيئا فشيئا باتجاه العقلية الحضرية مع احتفاظهم بطبيعة الحال بذكرياتهم ذات الأصل الرحلي. وكثيرا ما نجد في مدن آسيا الصغرى هذا الصنف من الشغيلة من اصل ينتمي إلى الرحل وأشباه الرحل يتكون من الكرد والبدو العرب والتركمان.. الخ. "إن أولادهم تحولوا إلى حضريين حقيقيين. وهذا الصنف الخليط من سكان المدن يتميزون بدورهم في كيفية تكوين طبائعهم الجماعية". انهم يقومون بإسهاماتهم الجديدة بصورة مستمرة في سكان المدن الذين يتأثرون بطبائع وعادات لا تتماثل مع طبائعهم[٧].

(٦) تعني كلمة (سارت) بين شعوب آسيا الوسطى الروسية العنصر الحضري او الريفي المضاد للقرغيز، والتركمان الرحّل.

(٧) يذكر (روندو) في مؤلفه المشار إليه آنفا (ص ٤٠) أن للكرد مزاجا خاصا تجاه المدينة، ومع هذا، فهناك مدن تأسست من قبل الكرد وحدهم كمدينة (أخلاط) مثلا.

ثالثاً- انطباعات عدد من المستشرقين عن الكرد (سون، بيندر، ميلينكن، لوك، ويكرام، مينورسكي):

من باب تفسير هذه المبادئ العامة التي أوردها كريستوف، نرى من المفيد أن نقدم الآن بعض الأسئلة عن خصال وطبائع الكرد الواردة في المؤلفات المكرسّة لكردستان(٨).

يقول سون الذي عاش بين الكرد وتكلّم لغتهم ما يلي: "إذا أردنا ان نكون عدولاً في أحكامنا على الكرد، وجب علينا أن نقارن بين كردستان وأوروبا قبل ٦٠٠ سنة. وحتّى بالنسبة لأيامنا هذه، فإن المقارنة بين الأوروبي والكردي لا تسيء إلى الأخير فيما لو جعلنا من القيم المثالية وقواعد الأخلاق معيارا للمقارنة. اننا نجد بين ألف كردي من أي فئة كانوا وكيفما جمعوا، مجرمين خلقيين أقل بكثير مما نعثر عيه في مثل هذا العدد من الأوروبيين الذين يجمعون بالصورة نفسها"

«غير أن من الصعوبة بمكان للباحث إعطاء حكم عام شامل على الأمة الكردية، لأن طبائع وخصال عشائرها البعيدة كل واحدة منها عن الأخرى تختلف فيما بينها كل الاختلاف». وبذلك يؤكد (سون) ما سبق أن ذكره (كريستوف) في هذا المجال.

إن العقلية الإقطاعية الحقيقية هي السائدة بين الكرد. ويلاحظ فرايزر وهو أحد رحالة القرن التاسع عشر، أن هناك تشابهاً قوياً بين الكرد اليوم وقبائل (هايلاندرس) الاسكوتلندية منذ بضعة قرون".

"يمتاز الكردي باستقامته التي لا تتزعزع وبحفاظه على العهد وعطفه النبيل على أقاربه وسلوكه الإنساني (وبخاصة كرد الجنوب والوسط) تجاه المرأة أكثر من المسلمين الآخرين، وإحساسه الشاعري وحبه للأدب والشعر وتسارعه إلى التضحية من أجل عشيرته، واعتزازه العميق ببلاده وقوميته. ما أعمق تفاخر الكردي بأصله، إذ هو ينهض ويعلن بلغته القومية "أز كرمانجم" أو "من كوردم" أي "إنني كردي".

"يتّصف الكردي أيضا بحدة طبعه وفورانه المفاجئ، وتلك صفة ناتجة عن حياته المضطربة المليئة بالمفاجآت، ولكنه في الوقت نفسه يتمتّع بروح المرح والدعابة إلى أقصى الحدود، وهو على استعداد لأن يروي لك المفاجآت عن طبعه الحاد".

"كان هناك (خان) من عشيرة (هركي) في (أورامار) عضته نعرة، فأخذ يحكّ مكان العضة. وبعد خمس دقائق أحسّ بأثر العضة فحك مكانها من جديد. وظل على هذه الحالة برهة من الزمن، فما كان منه الاّ أن تناول مسدسه ولعن أبا النعرة وأطلق النار على إصبعه فقطعها!".

(٨) يمكن الرجوع أيضا إلى مؤلفات (هى) و (هاملتون) المشار إليهما في جريدة (روزا نو - اليوم الجديد) الصادرة في بيروت، أعداد أيلول وتشرين الأول ١٩٤٥.

"اختلف كرديّان بشأن تحديد المكان الذي تظهر فيه نجمة الدب الأكبر (سيروس)، هذه النجمة التي يعني ظهورها انتهاء موسم الحر من السنة. ودون أن يطول الجدال بين الجانبين، انقضّ أحدهما على الآخر، ولم يفترقا إلا وقد فارق أحدهما الحياة!" ويقول أحد الرحالة الفرنسيين وكان قد سافر في حوالي السنة ١٨٨٧ ما يلي:

"رغم قساوة الكرد، إنهم يتمتعون باعتزاز كبير بالنفس ويتقيّدون كلّياً بعهودهم. فإذا ما وعدك أحدهم بأنه سيوصلك سالما إلى مكان ما، فاطمئن إليه دونما تردد. ولكن إذا ما صادفك في الغد بعد وفائه بعهده، فإنه لا يتردد في معاملتك معاملة قاسية إذا اقتضى الأمر".

ويردّد باندر (في الصفحة ١٠٩-١١٠ من مؤلفه المشار إليه آنفا) الأسطورة التي تقول أن عددا من الصليبيين التائهين اختلطوا بالكرد. علماً بأنه يسند الأصل والمنشأ نفسه إلى الخيوسوريين، وهم عشيرة من القفقاس ما يزالون يرتدون زيّاً يعود إلى القرون الوسطى. إن القرابة اللغوية التي يعتقد باندر بوجودها بين الكردية والفرنسية ليست لها علاقة بالصليبيين وإنما تعود إلى ان اللغتين تنتميان إلى عائلة اللغات الهندو أوروبية.

ويشير (سون) إلى باندر دون أن يذكر اسمه صراحة، في التأكيد على أن الكرد أفضل من شعوب أخرى متحضرة فيما يتعلق ببعض طباعهم.

أما الضابط ميللينكن فيشير في كتابه المؤلف عام ١٨٧٠ إلى أنه رغم عدم إلمامه باللغة الكردية، تعرّف على الشعب الكردي في وضعه الطبيعي إبّان وجوده في إحدى الفرق العثمانية في أرمينيا. ثم يقول: "إن تمازج الصفات السيئة والحسنة الذي نجده في طبائع الكرد، صفة مشتركة بين الرحل كافة سواء كانوا من العرب أو الكرد أو القرغيز أو غيرهم، بيد أن الكردي يأتي بعد العربي البدوي في فروسيته. [وهذا عكس مايراه (مولتكه) الذي سبقت الاشارة اليه]. إن الكردي، حسب آراء معظم الباحثين، يحترم حق الضيافة ويحمي من يلجأ إليه. والكردي خؤون فلا يحس بأي تأنيب للضمير إذا ما لطّخ يده بدم من التجأ إليه ليحميه".

ويذكر ميللينكن بعض الأمثلة عن المذابح التي اقترفها الكرد، ومنها حادثة قتل العالم الألماني (شولتز) عام ١٨٣٠. ويلاحظ هذا الباحث الإنكليزي أن الكرد يفتقدون صفة العرفان بالجميل ويتّصفون بالكذب والدسيسة وقطع الطريق. وقد سلب الكرد سواء عن طريق هجومهم على القوافل أو بموجب خطط الانقضاض المسلّح، العديد من القرى الأرمينية.

لقد ذكرنا آراء بعض الباحثين المتحاملين على الكرد كرأي ميللينكن مثلا، والآن نريد دراسة هذا الشعب وفهمه كما هو في الواقع وليس تصوره على نحو مثالي. ويجب أن لا ننسى أن ميللينكن كان في خدمة الترك العثمانيين وان الكرد تعاملوا معه بحذر لما كانوا يلاقونه من أذى من السلطات العثمانية.

وهناك باحث آخر أقرب إلينا زمنيا هو المبشّر ويكرام الذي يبدو بدوره متحاملاً على الكرد في كتابه (تاريخ الكنيسة الآثورية. عام ١٩١٠)، إذ يقول: "ليس التعصب من طباع الكرد. إنهم لا يظهرون أي اندفاع خاص تجاه أي شئ كان باستثناء السطو. لذلك لا يمكننا وصفهم بأنهم جد نشطين حتى في ممارستهم لأعمال الغزو". ويعبّر المؤلف نفسه عن رأيه في الكرد في كتاب آخر ألفه فيما بعد فيقول: "لم تتغير طبائع الكرد في الفترة ما بين الألف قبل الميلاد والعام ١٩٠٠. إنهم شعب قوي وموهوب وحسن المعاملة في كثير من الحالات، حتى إن عددا من الموظفين الإنكليز استطاعوا كسب صداقتهم. ومع ذلك فهم بسبب طبيعتهم الجبلية الأصلية أو لسبب يعود إلى نشأتهم الأولية ينقصهم شئ. إنهم لم يستطيعوا التخلّص من وسطهم وتفكيرهم العشيري لحد الآن". (ويكرام: الآثوريون وجيرانهم، باللغة الإنكليزية، ص٧).

أن الملاحظة التي أبداها ويكرام جديرة بالاهتمام، وينبغي تقريبها مع آراء كريستوف الذي يسند للعشيرة دورا مؤثرا في الحياة السياسية والثقافية الكردية. ويلاحظ ويكرام أيضا أنه إذا لم يتجاوز الكرد هذه المرحلة، فإن العشيرة تبقى عائقاً أمام تطورهم نحو حياة اجتماعية أفضل.

ومن أجل إكمال عرضنا لمختلف الآراء، لابد لنا من أن نذكر (ليرج) الذي يبدأ دراسته بعرض آراء كاتب أرميني هو آبو ڤيان الذي يقول:

"نستطيع أن نطلق على الكرد لقب (فرسان الشرق) بكل ما في هذه الكلمة من مدلول، فيما لو عاشوا حياة أكثر تحضرا، ذلك أن الصفات والخصائص المشتركة لهذا الشعب تتلخّص في استعدادهم الدائم للقتال واستقامتهم وأدبهم واخلاصهم المطلق لأمرائهم والتزامهم الدقيق بكلامهم وحسن ضيافتهم والثأر للدم المهدور والعداوة القبلية التي تنشب حتى بين أقرب الأقرباء والصبر على السلب وقطع الطريق واحترامهم غير المحدود للنساء". ولست أعرف ما إذا كان آو ڤيان توفرت له الفرصة للتعرف على العشائر الكردية في شرقي كردستان، اللرية، وبخاصة على العشائر الكردية العديدة. غير أني أجد هذه المزايا والصفات التي أطلقها على الكرد تكاد تكون متطابقة مع آراء معظم الرحالة الذين عاشوا بين الكرد. وهذا ما جعلني لا أتردد في إيراد انطباعاته عنهم. إن جميع الرحالة الذين عاشوا فترة طويلة مع الكرد يؤكدون على حسن ضيافتهم (ريج، أنيسورث، راولنسون، لابارد، برنت.. الخ). ويرى ريج أن لدى هذا الشعب بوجه عام الكثير من الفضائل الاجتماعية. ويقول (في الفصل الأول، ص ١٠٤، من مؤلفه باللغة الإنكليزية) مايلي: "يبدو لي الكرد شعبا مبتهجا اجتماعيا كثيرا ودون غرور أو تعصب ولا يحسد الواحد منهم الآخر، ولم اسمع كرديا يتكلّم عن كردي آخر بسوء مهما اختلفوا في تنازع أو مصلحة". إن السلب وقطع الطريق لا يعدّان في مفهوم الكرد من الجرائم، بل من علائم الرجولة، وهما غير مرتبطين لدى أي شعب آخر كالشعب الكردي بسلوكه وطريقة

عيشه وتقاليده. ومع ذلك فهنالك إجماع شبه كامل في الشرق على أن الكرد لا يعاملون أسراهم تلك المعاملة القاسية التي يلقاها الأسرى لدى التتار والتركمان والبدو العرب. ويرتبط بهذه الروحية القتالية لدى الكرد حبهم الشديد للحرية وتمسكهم القوي بكرامتهم. "فقد حدث أن أسر أحد البيكات الكرد ولم يكن قد تعدّى الثلاثين من عمره، أثناء حملة حافظ باشا عام ١٨٣٧، وكان يتميز بوسامة بادية. فما كان منه إلا أن رفض جميع العروض المغرية التي قدمت له ليكشف لهم عن عدد الثوار ومواقعهم. وكان يرد على مغريات الأعداء بقوله: "إنني بيك كردي ولا أطمح في أن أكون رئيسا لقوم آخرين" ولم تنفع معه كل أساليب التنكيل والتعذيب التي استخدمت معه طوال يومين، وحتى عندما كان يتعرض للضرب المبرح، كان يدخن غليونه بهدوء. وفي اليوم الثالث رماه الباشا في قدر من الزيت المغلي، فلبث محافظا على رباطة جأشه حتى فارق الحياة" (ليرج، ج١، ص ٢٩-٣١).

ويتحدث مينورسكي أيضا عن تاريخ حافل ومتميز للكرد[٩] نختتم به هذا الفصل:" في بداية هذا القرن تقريبا، كان يعيش في منطقة (جهريق) في (سلماس) جعفر آغا وهو رئيس لعشيرة (شكاك) التي لم تكن على وئام مع السلطات الفارسية. فكان ينزل من الجبال إلى السهول لغرض السلب. ولكن تبين لي فيما بعد أنه كان للناس الفقراء وجهة نظر طيبة تجاه هذا الرجل، لأنه كان يوزع قسما من الغنائم التي كان يستولي عليها في غزواته، على الفقراء. فالتجأت الحكومة إلى الطريقة القديمة المجرّبة وهي تنصيبه رئيسا للمنطقة الحدودية، فانزوى لفترة ما بسبب منصبه الجديد، ليعود بعد حين إلى ممارسة عادته القديمة. وقد تسنّت لي الفرصة لأطّلع على المكاتبات الحربية التي تبودلت بين جعفر آغا وممثلي السلطة الفارسية في المنطقة. ولم يكن لجعفر آغا كاتب يجيد اللغة الفارسية، فكان يدعو إليه ليلا شاعرا فارسيا مسنّا ليكتب له رسائله إلى حاكم المنطقة، وكان هذا الميرزا (أي الكاتب باللغة الفارسية) يحرر لجعفر آغا ليلا أجوبة كاملة على الرسائل التي كان يتلقاها من السلطات الإيرانية، ثم يبيّضها نهارا ويوقعّها بختم الحاكم ويبعث بها إلى السلطات الإيرانية. وأخيرا استطاع حاكم المنطقة بعد أن حلف له بأغلظ الايمان وأرسل له قرآنا مختوما من قبله، أن يقنعه بالاستجابة لدعوته والمثول عنده في تبريز. وكان الأفراد المسلّحون من الكرد الذين رافقوه في سفره يحيطون به ولا يرفعون أعينهم لحظة واحدة عنه، مع احتفاظهم الكامل بهدوئهم ورباطة جأشهم. ومع ذلك فإنهم لم ينجحوا في حمايته، إذ اغتيل غدرا على الدرج الذي كان يؤدي إلى غرفة الحاكم وهو في طريقه إليه حيث دعاه إليها لعقد جلسة قبل توديعه. وبعد أن تبين لرجال جعفر آغا أن زعيمهم اغتيل بطلقة في صدره، بدأوا بفتح النار بكل هدوء ورباطة جأش وتوجهوا ليس إلى خارج البناية بل إلى الداخل

(٩) الكرد، ملاحظات وانطباعات، باللغة الروسية، بتروكراد، ١٩١٥، الفصل الثاني عشر (ترجم الكتاب إلى اللغة العربية من قبل الدكتور معروف خزندار عام ١٩٦٨، ومنها ترجم إلى اللغة الكردية من قبل السيد حمه سعيد حمه كريم ١٩٨٤ - المترجم).

معيدين إلى الوراء الجمع المرتعب من رجال الحاكم وحاشيته. وانفصل عنهم بعض منهم وتوجهوا نحو سرداب البناية، إلا أن وابلاً من الرصاص أخذ ينهال عليهم، ومع ذلك فقد تمكنوا من النجاة بأنفسهم والالتحاق بالآخرين. وفي هذه الفوضى الضاربة أطنابها، كاد هؤلاء أن يظفروا بالحاكم نفسه ويقضوا عليه، ثم توجهوا إلى داخل غرفة فارغة والاستمروا في إطلاق النار حتى الصباح. وعندما تبين لهم وهم في داخل الغرفة، أن هناك كوة في سقف الغرفة تستخدم شتاء لإخراج أنبوب المدفأة منها، أخذوا يرتقون إليها صعودا على الأكتاف حتى وصل بعضهم إلى السطح حاملين معهم أيضا جريحا منهم. ومن هناك أخذوا يدلون الحبال إلى الأسفل لجر البقية وإنقاذهم. ومن السطح بدأوا ينتقلون من سطح إلى سطح ومن جدار إلى جدار حتى بلغوا أزقّة المدينة وبساتينها دون أن يلاحظهم أعداؤهم الذين كانوا يحاصرونهم داخل البناية. وفي نهاية المطاف، تمكنّ المسلّحون الكرد من مغادرة تبريز. وفي الصباح، عندما رأى رجال الحاكم أن رفاق جعفر آغا غادروا البناية، أرسلوا في إثرهم فرسانا يتعقبونهم لعلّهم يظفرون بهم. وعندما رأى المنسحبون الكرد هؤلاء يعدون خلفهم، ترصدوا لهم في مكامن، وما أن رأوهم ينزلون عن خيولهم لتعقبهم، جروهم بمناوشات ذكية إلى الأطراف ثم عادوا بأنفسهم إلى خيول متعقبيهم، فامتطوها وفروا بها. وهكذا تمكن ستة من أصل ثمانية من الوصول سالمين إلى جهريق، أما الاثنان الآخران وكانا قد قتلا في المصادمات التي دارت بين الفريقين، فقد علقت جثتهما إلى جانب جثة جعفر آغا أمام دار الحكومة ليكونوا عبرة لمن يعتبر. وقد أثنت الصحيفة المحلية على نجاح هذه الخطة الحكيمة (!) التي استخدمها الحاكم (مضى على هذه الحادثة خمسون عاما – باسيلي نيكيتين).

رابعاً– كيف يرى الكرد أنفسهم؟

لقد عرفنا حتى الآن وجهة نظر الأجانب في الكرد، ولنر الآن كيف ينظر الكرد إلى أنفسهم؟

لنبدأ بهذه القصة القصيرة التي توضح لنا إلى أي حد يغار الكردي على سمعته في الشجاعة.

تدور القصة حول مأثرة أحد اللصوص واسمه (مام رزكو)، وكان مشهورا في منطقة ديار بكر، وقد روى القصة أحد أتباعه فقال: "كانت العصابة متربّصة في كمين قرب إحدى الطرق عندما برز شاب يحمل على كتفه بندقية (مارتيني) ويتمنطق بنطاقين من الخراطيش. كان ينتعل حذاء من صنع ديار بكر ويرتدي (بستكا)[١٠] من لباد (قره موسى) – وهي قرية معروفة بصنع هذا النوع من اللبس – على بدلته الكردية المصنوعة في (ديهي)، مع شال من الموصل يعصب به رأسه، وكان يضع كفه على

(١٠) الـ (بستك) سترة غليظة تصنع من عدة قطع عمودية وهي بدون أردان، وتصنع عادة من اللباد وتلبس شتاء وتجلب للابسها من الدفئ القدر الكثير – المترجم.

أذنه ويغنّي بصوت عال. ومع أنه كان مسلّحا، لم يبد أي مقاومة أمام واحد من رجال (مام رزكو) الذين سلبوا أمتعته. وبعد فترة قصيرة ظهر على الطريق رجل عجوز ضئيل الجسم يتلفّع بعباءة مهلهة، ولكنه يقبض بشدة على سيفه ومجنه وينهر حماره ليسرع في سيره، فأصدر مام رزكو أمراً بسلب عابرالسبيل هذا، فتصدّى له أحد رجاله وصاح به: "هو لوبي.. لولي"، وردّ العجوز وكان اسمه (مام خال) على صياحه بالقول أيضا "هو لولي.. لوبي"، ثم راح يشتمه بأقذع الشتائم ويقول له: " ماذا يفعل هناك كالكلب؟". وعندما نهره الغلام وأمره بأن يسلّمه كل ما يملك، غضب مام خال وصاح به في شتيمة أخرى أشدّ وقعا. فما كان من الغلام إلا أن اعدّ بندقيته وصوّبها نحو العجوز. غير أن هذا انقضّ عليه بسيفه، ففر الغلام أمامه، فلحقه العجوز إلى حيث مركز العصابة والتقى برئيسها. وبعد محادثة قصيرة مع (مام رزكو)، قبل العجوز ضيافته وأكل معه الكباب. وقبل أن يغادر العجوز مقر العصابة، أهداه رئيسها الأمتعة التي سلبت من الشاب وزاد عليها خنجراً وقال له: "خذ هذا، فأنت أهل لأن تحمله".

وتبين لنا رواية الصراع بين (عبدو) و(عزيز) أن طبيعة الكرد الحادة الثائرة تسير جنبا إلى جنب مع شجاعتهم وبسالتهم. لم يكن بطلا هذه القصة ينتميان فقط لعشيرة واحدة هي (مزوري زور) ويسكنان قرية واحدة هي (آراكو) حسب، بل كانا كذلك قريبين. كان عبدو من وجوه أحد فروع تلك العشيرة، أما عزيز فكان أحد الرجال البارزين فيها. وفي سنة من السنين تمكنّت الحكومة العثمانية من فرض ضريبة كبيرة على العشائر بعد أن ساقت لقهرها قوات كبيرة، فحدث تذمّر عام بين الكرد الذين أخذوا يتحدثون عن إسقاط رؤسائهم باعتبار أنهم مسؤولون عمّا جرى لهم. فغضب عبدو مهدّدا أولئك الذين كانوا يفكرون باستبدال غيره به. فأجابه عزيز بجواب فيه تحد، قائلا: سأسقطك عن منصبك وافعل ما تشاء. ومرت بضعة أيام التقى بعدها عبدو، وهو متسلح ببندقية، بعزيز الذي لم يكن يحمل معه إلا خنجراً، ولم يحيه التحية المعتادة. فصاح عزيز: لقد فقد هذا الكلب ماء وجهه، فأطلق عبدو عليه النار وأصابه، إلا أن عزيزا انقضّ عليه بخنجره، ومايزال جرحه ساخنا ينزف دماً، وسدد إليه طعنتين، ثم مد يده إلى جرحه يشده دون أن ينبس بكلمة واحدة. أما عبدو فأخذ يصيح طالبا النجدة، فاقترب منه أخوه أحمد وشاهد الدم ينزف من كليهما، غير أن عزيزا كان صامتا فظنّ أن الرصاصة لم تصب منه مقتلا، فراح يشتمه لأنه اقدم على قتل قريب لهما كليهما. وعندما فرغ من شتائمه، قال له عزيز: "عوضاً عن أن تشتمني، انزع الرصاصة من جنبي". ففك أحمد ثياب أخيه، وما أن شاهد الجرح حتى استلّ خنجره وهّم بأن يجهز على عبدو، فناداه عزيز قائلا له: "تعال يا أخي. فأنا قضيت عليه. احملني على ظهرك إلى المنزل". ونقل الاثنان إلى منزليهما، وعند المساء لفظا روحيهما. إن هذه الأقصوصة القاسية والساذجة في آن واحد تعطينا صورة واضحة عن الكرد. فعزيز الذي كان على

وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة يقول لأخيه "لا تتعب نفسك في الإجهاز على عبدو، فقد صفيت حسابه"(١١).

لا يعلق الكردي، بوجه عام، أهمية كبيرة على الحياة. كان أحد الكرد يسير في غابة، فشاهد كرديا آخر يقتطف العفص من على شجرة بلوط، ولاحظ شيئا بارزا تحت سترته، فظن أنه كيس دراهم، فصوب إليه بندقيته واسقطه من فوق الشجرة. وعندما فتشه لم يعثر إلا على بعض رؤوس البصل، فعاد خائبا إلى منزله، وقصّ على والدته ما حدث له، فقالت له: "لا تبتئس يابني! سوف نأكل البصل مع الخبز". ويبدو أن الكردي مثل الألباني الذي يشبهه في كثير من الأمور، يجد لذة في مشاهدة أثر الرصاصة التي يطلقها من بندقيته، فتردي رجلا سليم الجسم معافى(١٢). ولأسباب مماثلة يمكن تفسير الحادث المؤسف الذي وقع في لجنة تحديد الحدود العثمانية-الإيرانية عام ١٩١٤ عندما أطلقت النار دونما سبب معلوم على السكرتير الإنكليزي لتلك اللجنة (هوبارد).

وتبرز شجاعة الكردي واستبساله في صيد الحيوانات أيضا، إذ نادرا ما تخطئ رصاصته الوعل الجبلي(١٣). وقد سمعت أقاصيص كثيرة عن مهارة الكرد وشجاعتهم في هذا المضمار. ويروى أن صيادا كرديا اسمه سليمان بايزيد من عشيرة (مزوري زور) أنجد ذات يوم دبّاً كان قد فاجأه فهد وكاد يتغلب عليه، وحفظ الدب هذا المعروف للكردي وتعلّق به وكان يصاحبه أينما ذهب. وأخيرا، وكما جاء في إحدى أقاصيص الكاتب الفرنسي (لافونتين)، قتل الدب صديقه عندما كان نائما ذات يوم، اذ رماه بحجر كبير ليدفع عن وجهه الذباب!.

ويروق للكردي أيضا أن يروي قصصا أبطالها من اللصوص الماهرين. فالمغامرات إذاً لا تعدّ من الصفات التي يزدريها الكرد. وقد سبق لي أن كتبت في إحدى المجلاّت عن قصة سليمان الذي سرق

(١١) حوادث عديدة كهذه وقعت وماتزال تقع بسبب الجهل ووجود السلاح في أيدي أناس من الجهلة المرتزقة. فقد حدث ان معلّما كان مع شقيقته المعلّمة أيضا في مدرسة قرية قريبة من الطريق العام بين أربيل وكويسنجق ينتظران سيارة يستقلانها للعودة إلى مدينتهما كويسنجق في ربيع عام ١٩٨٦، وكان أحد المرتزقة المسلحين الموجودين في ربيئة عسكرية قريبة من الطريق العام يراهن زميلا له على إصابة رأس الواقية المطرية التي يحتمي تحتها الشابان من المطر. وبعد لحظات وقع الشاب مضرجا بدمائه بين يدى شقيقته قتيلا، حيث إصابته طلقة مميتة في صدره، ولم ينل القاتل جزاءه إذ اعتبر الحادث قضاء وقدرا! - المترجم.

(١٢) من حقنا أن نستغرب اتخاذ المؤلف هذه الأقصوصة مثالا يصل منه إلى استنتاجات عامة بشان طباع شعب باسره!- المترجم.

(١٣) حول مهارة الكرد في الرماية، أنظر الصفحة ٢٢٠ من كتاب المؤلف الألماني ويستارب المعنون: (تحت ضوء القمر والشمس) الذي يروي فيه كيف ان راميا كرديا أصاب خرطوشة فارغة وضعها كهدف له على بعد أربعين خطوة منه وثقبها.

كنز أحد معابد بغداد، بعد أن تزيا بزي رجل تقي. كما أن قصة السارق (كەمو) من قرية (شاكول ورده) في منطقة (كياوەر) الذي كان يعرف بين الناس بـ (سارق النحل) مشهورة أيضا. لقد صنع هذا الرجل من أجل إخفاء سرقاته، عددا من كوارات النحل ووضع فيها خلايا العسل المسروقة وبعض الزنابير. وحدث ذات مرة أن قبض عليه أحد أصحاب الكوارات المسروقة في أحدى الليالي وهو يأخذ العسل من كوارة لهذا الرجل، فبرر له (كەمو) فعلته بأن قال له: جرت العادة في كردستان أنه عندما يريد أحد إنشاء كوارة جديدة له، لابد له من ثلاث نحلات، يشتري واحدة منها، ويستأجر الثانية، أما الثالثة فيسرقها. وقد كانت أوضاع (كەمو) تسير على ما يرام حتى جاء جابي الضرائب ذات يوم إلى القرية ليستوفي الضرائب فيها عن العسل. فحار (كەمو) في ما عليه أن يفعل: ان صرح لمأمور الضرائب بأنه يملك عددا قليلا من النحل، فكيف يبرر كميات العسل الكبيرة التي كان يبيعها؟ وان صرّح له بأنه يملك عددا كبيرا منه وقام المأمور بالكشف عن الكوارات ووجد فيها زنابير لا غير، فكيف يبرر عدم وجود النحل لديه؟ فما كان منه إلا أن أحرق ما عنده من الكوارات.

إلا أنه ينبغي أن لا نعتقد أن الكردي يعجب بحالات العنف والقتل والسلب ويتباهى بها دون غيرها. بل يجب التذكير بأنه يعجب كذلك برواية الأقاصيص والحكايات عن نماذج التروّي والتعقّل والذكاء لدى الأشخاص. كما حدث مثلا لـ(عيسو) من قرية (ديلان) التي تقع على مجرى نهر الزاب الكبير. كان (عيسو) هذا مستشاراً لإبراهيم باشا والي كردستان الذي كان يقيم في مدينة (آميدى)(١٤). وحدث ذات يوم أن الباشا كان يستريح من عناء الصيد وقد جلس إلى جانبه عيسو وحيدا يبعد عنه الذباب. وفجأة لاحظ عيسو عقرباً يقترب من الباشا فأستلّ خنجره ليقتل العقرب، إلا أن العقرب اختفى بين الحجارة. وفي هذه الأثناء استفاق الباشا ليرى عيسو والخنجر في يده، فسأله عما جرى، فاكتفى عيسو بأن اجاب "لقد اختفى" ولم يشأ أن يوضحّ أكثر من ذلك لأنه أدرك أن الظنون تساور الباشا. وبعد فترة قصيرة ترك عيسو زوجته وابنه عليّاً وغاب عن الأنظار. وقد ساءت أمور الباشا بعد غياب مستشاره الذكي فاستدعى عليا وطلب منه أن يذهب إلى والده ويسأله النصح، فقام بالمهمّة. وعندما وصل علي إلى والده قال له هذا: تعال معي إلى البستان وغداً سأجيب على استشارتك. وذهبا معا إلى البستان حيث شاهد علي والده يقلع الأغراس القوية الصالحة من جذورها من الأرض ويترك الفسائل الضعيفة التي لم تتقو بعد. فجزع الأبن على البستان وقال لوالده: سوف تقضي على بستانك يا أبي. فأجابه عيسو: كلا، يا ولدي إني سأحصل بهذه الطريقة على ثمار أفضل. وفي الصباح طلب عيسو من ابنه أن يذهب إلى الباشا ويروي له ما رأى ويقول له: لقد ذهب ولكنه عاد. ورجع علي إلى الباشا وقصّ عليه كل ماجرى. فصاح الباشا قائلا: انه جواب عظيم.

(١٤) آميدى: العمادية - المترجم.

واستدعى فورا جميع زعماء الكرد المعروفين بقتاليتهم وحيلهم ودسائسهم إلى اجتماع طارئ، وأمر بقتلهم جمعيا، وعيّن مكانهم أشخاصا معروفين بطيبتهم وعفّتهم، فعاد النظام والأمن إلى البلاد، وبعث الباشا يستدعي عيسو إليه ورفع منزلته. وعند ذاك قص عيسو على الباشا قصة العقرب وقال: عندما اختفى العقرب، اختفت معه جميع شواهدي، ولكنه عندما عاد، عادت الطمأنينة إلى نفسي.

ولابد أن نذكر في هذا السياق قصة حسن بيك، أمير منطقة (هكاري) الذي اشتهرت حكمته في كل أرجاء كردستان. لقد كان كل كلمة ينطق بها هذا الأمير تعتبر نصيحة وتذهب مثلا. وفي أحد أيام الشتاء دار الحديث بحضرته عن الأمانة والوفاء وعن الأصدقاء المخلصين والأصدقاء الخائنين. فقال حسن بيك: من استطاع منكم أن يبشّرني قبل غيره بظهور الطيور، كافأته. فاعتقد الجميع أنه يعني الطيور التي تظهر مع مقدم الربيع مبشرة بحلوله. فراح كل واحد منهم يذكر اسم طائر من تلك التي تظهر مع حلول هذا الموسم، ولكنه لم يكافئ أحداً منهم. وأخيرا ظهر رجل يسمّى (مام تال)، الذي رأى طائرالنقارعلى حائط منزل واخذ يقرع طبله، فاشار للطير وقال للناس إنه الطير الذي يسأل عنه الأمير. وعندئذ شرح الأمير حقيقة هذا الجواب وقال: بينما لا تعيش طيور الربيع إلا في الأيام الجميلة الرخية، يلبث طائر النقار معنا أمينا على صداقته لنا ويعيش بيننا في كل الفصول، ومنح مام تال المكافأة التي قررها لصاحب الجواب الصحيح.

وكثيرا ما تكون الحيلة مرادفة للذكاء. حدث ذات مرة أن ثلاثة رجال وصلوا مع دوابهم المحّملة إلى مكان قريب من بستان، وكانت الدواب تتكون من حصان وبغل وحمار. وأراد الرجال أن يستريحوا قليلا، ولكن البستاني اعترض على ما أرادوا وعبثا حاول صرفهم. فقرر أن يلجأ إلى الحيلة، فهمس في أذن صاحبى الحصان والبغل قائلا: ساعداني على إبعاد هذا الحمّار، أهيئ لكما غذاء طيبا، وأعطى كلاً منهما قطعة نقود. وتكاتف الثلاثة على طرد الحمّار. ثم تظاهر البستاني الحيّال بالتعرف على صاحب الحصان مدعيا أنه أحد أبناء صديق له، وتعاون معه على إخراج البغّال أيضا بعيدا عن البستان. وإذ لم يبق سوى صاحب الحصان، لم يجد البستاني مشقة في طرده هو الآخر.. إن هذه المحادثة التي دارت بين البستاني والدخلاء الثلاثة كثيرا ما يرددها الكرد فيما بينهم بلغة لا تخلو من الفكاهة والطرافة.

ونصل الآن إلى القصص الفكاهية التي يتندر بها الكرد ويعرفون منها الكثير. قرر أحد صغار التجّار من مدينة (ئاكرى)[١٥] أن بامكانه تكوين ثروة كبيرة له إذا ما تجول بين القرى الكردية، فتبضع كمية من الأقمشة، واتجه إلى قرية (گەردي)، لأن المثل الكردي القديم يقول: "بع المحتاجين واشتر منهم". وعندما وصل أطراف القرية شاهد امرأة تخضّ قرب منزلها اللبن في قربة لتستخرج منه الزبدة. وكانت المرأة رثة الثياب ليس عليها إلا خرق بالية. فاغتبط البائع المتجول وقال في نفسه:

(١٥) ئاكرى: عقره – المترجم.

حسنا فعلت بمجيئي إلى هذه القرية التي برح بها العوز، فما أن أعرض فيها بضاعتي حتى تنفد. فسالته المرأة: من أنت، ومن أين أتيت، وإلى أين تذهب؟ فأجابها: أنا بائع من ئاكرى، أحمل معي مجموعة من الأقمشة، فهلا اشتريت مني بعضا منها؟ أشاحت المرأة بوجهها عنه، وعادت تخضّ قربة لبنها وهي تقول: اذهب من هنا، فلدينا وللّه الحمد، كل ما نحتاج إليه في البيت. ربما تجد من هم بحاجة إليك في المنازل الأخرى. فدهش البائع وقال في نفسه: إذا كان مثل هؤلاء لا يحتاجون إلى بضاعتي، فكيف يكون شأن المحتاجين إليها منهم؟ وأدار ظهره بسرعة وكرَّ راجعاً إلى مدينته حيث باع بضاعته بنصف سعرها.

ويسخر الكرد فيما بينهم من البلهاء. ومن بين القصص التي يروونها في هذا المقام، أن أحد الآغوات من قرية (هه سنيكان) في منطقة (زيبار) وكان يدعى مام بابير، كان رجلا غنيا إلا أنه كان أحمق. طلب هذا الآغا ذات يوم من إمام مسجد القرية الذي يدفع له مرتبا شهريا، ان يذكر أسمه في خطبة صلاة الجمعة، عوضاً عن اسم السلطان، ووعده بأن يعطيه لقاء ذلك ثلاثين معزة حلوباً مكافأة له إن نفذ له طلبه. وحلّ يوم الجمعة، وتوافد أهل القرية على الجامع لإقامة الصلاة. وكان من بين المصلّين ملا القرية المجاورة الذي كان يجهل الاتفاق المبرم بين الآغا مام بابير والإمام. وعندما حان الوقت لذكر اسم السلطان في الخطبة، قال الإمام بالعربية التي كان يجهلها أهل القرية قاطبة: أيها المام بابير! إنك لدب كبير، مأواك جهنم وبئس المصير. وعندما سمع ملاّ القرية المجاورة هذه الكلمات ظن أن الإمام أخطأ، فصاح به: لا، لا. إلا أن الإمام حافظ على هدوئه ورباطة جأشه وتابع قوله بالعربية، موجها الخطاب إلى هذا الملا: اسكت، أسكتان، أسكتون. المعز ثلاثون، لك منها عشر ولي عشرون. ففهم الملا وسكت. وطار جنان الآغا من شدة الفرح وطلب من رعاة مواشيه أن يختاروا منها أفضل ثلاثين معزة ويعطوها للإمام[١٦].

(١٦) لم يعد شائعا في أيامنا هذه حق جباية قسم من الغلال لحساب رجال الدين في معظم المناطق باستثناء المناطق الشرقية من كردستان إيران. ولكن هناك أناس جوالون يظهرون بمظهر ديني ويتابعون موسم الحصاد في القرى للحصول على ما استطاعوا من المحصول. ويطلق على هؤلاء اسم (مفته خور) أي الذين يأكلون من دون تعب (باسيلى نيكيتين). وهؤلاء في الغالب مستجدون يلبسون ثياب رجال الدين ويستغلون مشاعر الفلاحين الدينية استغلالا سيئا. ويوجد عادة في كل قرية كبيرة نسبيا في كردستان رجل دين (ملا) يدفع له مالك القرية ما بين خروار واحد إلى خمسة، كما يعطيه في عيدي الفطر والأضحى هدية تعرف باسم (خلات). [لامبتونن المصدر السابق، ص ٣٤٨-٣٤٩] ويدفع له الفلاح أيضا ما بين ٥ – ٢٠ مَنْ تبريز من الغلال باسم الزكاة [مَنْ وحدة وزن تنسب إلى مدينة تبريز، شائعة الاستعمال في أذربيجان وكردستان الإيرانية – المترجم]. وإذا كان في القرية مسجد فان مالك القرية هو الذي يقدم له الحطب للوقود في الشتاء، ويكرس أحيانا دخل طاحونة القرية لهذه الغاية. ففي قرية (حەسەناوا) القريبة من سنندج بكردستان إيران، خصصت واردات طاحونة ونصف لهذا الغرض. (المصدر السابق).

وهناك إلى جانب النوادر الفكاهية العامة، نوع آخر منها يدور حول بعض القرى أو العشائر. فمثلا أن أهالي قرية (تيل) الواقعة بين (زيبار) و (ريكاني) بكردستان العراق، وهم من عشيرة مزوري، عرضة لدعابات ساخرة. فيروى أن بعضهم جاءوا مرة إلى أحد عقلاء القرية وهو المدعو (كاك شاسوار) ليشكوا له سوء حالهم بسبب قلة الملح، وهم يرسلون القوافل إلى (اوروميه) أو إلى الموصل من أجل الحصول على هذه المادة، فتتعب الدواب في الطريق وتدمى حوافرها. فتصبح غير صالحة للعمل، وطلبوا منه المشورة في ما يجب عليهم أن يفعلوه. فأجابهم قائلا: المسألة سهلة جدا. ليزرع كل واحد منكم في هذا الربيع كمّية من الملح في أرضه. ففعل أهل القرية ما وصاهم به حكيمهم هذا. وبعد مدة من الزمن ذهب أحدهم إلى الحقل ليشاهد نمو الملح، ولما لم يجد له أثرا، أخذ يحفر في التربة وينبش فيها، ففوجئ تحت كتلة من التراب بشيء ما ينتصب وكان ذلك شوكة عقرب، فقال في نفسه: لا ريب إن هذه نبتة ملح، ولكن لابد لي من أن الحسها لأتأكد من طعمها! ففعل، ولسعه العقرب في لسانه، فراح المسكين يصرخ من الألم وعاد إلى داره يروي بلسانه المنتفخ لذويه ولجيرانه حكاية نمو الملح المزروع، وكيف أن الملح النابت ملح حاد يقرص اللسان!

ويروى أيضا أن رجال عشيرة (مزوري) لا يأكلون الية الخروف، ويقال في هذا الشأن (مزوري ناخوا كله خوري) أي: المزوري لا يأكل الذنب الصوفي ويقصدون به الآلية. والسبب في ذلك أن إسماعيل باشا أمير (آميدي) استاء من رجال هذه العشيرة الذين كانوا قد حملوا إليه خروفا بدلاً من أن يقدموا له هدية اثمن، كما تقضي بذلك العادة، لدى زيارتهم له، فما كان منه إلا أن أمر بتقديم القمح المسلوق لهم (ساوەر = البرغل) وعليه قطع من لحم الخروف تتوسطها قطعة من الشحم، وهو طعام اعتيادي لا يليق بمقامهم. فاستبدّ بهم غضب شديد من جراء هذه المعاملة وتطور الأمر إلى شجار أدّى إلى نشوب معركة بين الطرفين بالخناجر انتهت بمقتل تسعة وعشرين شخصا من اصل ثلاثين من رجال عشيرة المزوري ومائة وخمسين من خدم الباشا. وما أن وصل الناجي الوحيد من بين رجال عشيرة مزوري إلى عشيرته، حتى عنَّفوه على جبنه وكيف أنه لم يقاتل حتى يقتل شأن زملائه، فاستلّ خنجره وقتل نفسه. إن هذه القصة تعود إلى أكثر من قرن من الزمن ولكن يوصى بعدم إعادتها على مسامع أحد من أبناء عشيرة مزروي حتى لا تعود به الذاكرة إلى تلكم الأيام ويتألّم من جديد.

آمل من هذه الطرائف التي انتقيتها من هنا وهناك وسجّلتها لدي في حينه، أن تعطي القارئ فكرة عن بعض ملامح الكرد في حياتهم، فهم يجمعون بين القساوة والشجاعة والسذاجة والكرم، كما إنهم لا يفتقرون للذكاء ولا للفطرة الطيبة. ودون أن أحاول تزيين صفات الكرد، فقد اضطررت إلى الاختصار أحيانا أو التخفيف من شدة بعض التعابير. إن اللغة الشعبية بعيدة تماما عن التكلف. وسوف نرى في الفصل الخاص بالأدب الكردي أن الكرد يرتقون في تراثهم الخاص بالشعر الغنائي أو الحماسي إلى مستوى يحسدون عليه ويعبر عن إحساس رقيق لا يتوقع وجوده لدى شعب يعيش حياة

قاسية منذ قرون عديدة، ولم يتمتع قط برعاية حكومة مستنيرة.

إنني أحاول أن أبذل جهدي في هذا الكتاب كلّما كان ذلك بالإمكان، لفسح المجال أمام الكرد ليتكلّموا بأنفسهم ويعبّروا عن كل ما ذكرته هنا. وقد حاورت في باريس منذ بضع سنوات صديقي المرحوم الأمير ثريا بدرخان من أسرة (عزيزان بوتان) النبيلة التي حكمت فيما مضى قسماً كبيراً من كردستان في منطقة (جزيرة بن عمر) على نهر دجلة. إن ما أورده هو لي يكمل ملاحظاتنا حول طبائع الكرد. ولا ينكر الأمير وجود بعض حالات اللصوصية في كردستان. ولكنه يؤكد على أن اللصوص عوقبوا دائما بشدة، وإذا كان هناك من لصوص قتلة، فإنهم كانوا يدانون على ذلك بحرقهم أحياء، وفي هذا السياق ذكر لي الأمير الحادثة التالية: "في فترة من الزمن استطاع أحد قطّاع الطرق وكان يدعى (آلو) أن يعبث بالأمن والاستقرار في إمارة بوتان، وبعد حين ألقي القبض عليه، ولثبوت إرتكابه عدة أعمال قتل، حكم عليه بالموت حرقا. وقد صعد بنفسه المحرقة بشجاعة خارقة. وكان الأمير حاضرا وقت تنفيذ الحكم بحقه، وقد استجوبه مستفسرا منه:

– هل تعرف يا آلو إنك في أسوء وضع يمكن للمرء أن يجد نفسه فيه؟

اتّجه آلو نحو الأمير وقال له: لا، يا أميري! هناك وضع أسوا من هذا بكثير، وهو أن يبعث لك اللّه ضيفا كريما ولا تجد شيئا لتقدّمه له، فتنظر مع زوجتك إلى أرجلكما خافضي الرأس!

عندما سمع الأمير هذا الجواب من آلو، عفا عن الرجال الذين كانوا معه، ولكن آلو لم يستطع البقاء بسبب الحروق التي أصابت جسمه (بيدار، قواعد اللغة الكردية [باللغة الفرنسية] ص١٨–١٩).

وكان كل ضحية من ضحايا العصابات يعوّض من قبل الدولة: "يروي أ احد الرعاة حضر أمام الأمير في (جزيرة) وقال له:

عندما كنت أعبر حدود إمارتكم مساء البارحة، مطمئنّاً من عدلكم ومن الأمن الذي يسود ربوع دياركم، نمت بالقرب من قطيعي، وعندما استيقظت وجدت خمسة من غنمي وقد افترستها الذئاب، ولديَّ جلودها، فأطلب منك العدالة والتعويض.

نصحه الأمير بالعودة إليه غدا.

كانت القصة صحيحة، حيث كانت هناك جثث خمسة من الذئاب بجانب جثث خمسة من الخراف.

قال الأمير للراعي: هذه خمسة خراف تعويضا عن الخسارة التي أصابتك. أما بالنسبة للذئاب التي أكلت خرافك، فإنها نالت جزاءها.

الفصل الخامس

العائلة الكردية: مسكنها، أزياؤها، غذاؤها، دور المرأة، طقوسها العائلية

أولاً– المسكن، القرية، الخيمة:

تختلف نوعية السكن الكردي تبعا لشروط المناخ وارتفاع المنطقة عن مستوى سطح البحر. ففي الأماكن التي يبلغ ارتفاعها بالنسبة لمستوى سطح البحر ٩٠٠ متر (الهضبة الأرمينية) أو ١٠٠٠ متر (جنوبي جبال طوروس)، نجد المنازل مبنية باللبن أو بالحجارة. أما في المرتفعات التي يتراوح علوها بين ١٠٠٠ و ٢٥٠٠ متر، فتصبح المنازل تحت الأرض. وفي المرتفعات التي يتراوح علوها بين ٢٥٠٠ متر و ٤٠٠٠ متر فلا نعثر إلا على خيام الرحّل صيفا. إلا أن هذا التصنيف ليس حدياً، فقد رأينا منازل كردية مبنية على الأرض في مرتفعات تتجاوز الألف متر في منطقة (أورامار). ولا يتم بناء المنازل تحت الأرض في أرمينيا لأسباب مناخية فقط، بل لاعتبارات أمنية أيضا، لأن ذلك يسهل حمايتها من الأعداء. يقول (باندر) في وصفه لتلك القرى: "تشكّل القرية بمجموعها سطحاً طينيا بسقف واحد بطول أربعين أو خمسين متراً، بحيث يتعذر على المرء أن يميزها عن الأرض إن لم ينبّه إليها. أما في الداخل فهناك تيه من الممرات والغرف المتشابكة التي يعيش فيها البشر ومواشيهم مختلطين عيشة واحدة[١]. وتكون المنازل شديدة التلاصق بعضها ببعض في المناطق المعرّضة للخطر. أما في المناطق التي يتعذر الوصول إليها بحكم موقعها، كما هو الحال في بعض المضايق العميقة أو الوديان التي تمنحها الطبيعة نفسها الحماية الكافية، فإن المنازل تكون أكثر تفردا وتباعدا. وقد نعثر أحيانا على منازل منفصلة إحداها عن الأخرى تماما، ومنها ما تكون معزولة عن غيرها وتتعلق بسفوح الجبال الصخرية. وفي مناطق أخرى، في إقليم أردلان مثلا (في كردستان إيران – المترجم)، يحدد عامل الخصب تجمّع البيوت أو تفرقها، فتكون القرى متقاربة فيما بينها في الوديان الخصبة، فيما تتناثر في الجبال الجرداء أو المشجرة. ويمكن اعتبار المنازل في منطقة (أورامار) من أكثر منازل القرى الكردية تطوراً، فهي مشيّدة بالأحجار مع الكلس الذي لا يلاحظه المرء إلا نادرا، كما أن أطر الأبواب والشبابيك تكون من الأحجار الجاهزة ذوات المحيطات المقوسة الصلدة. إن هذه المنازل التي يكون نصفها في الغالب مغروزا في الجبل مؤلفة من طابق واحد علوي. أما القسم السفلي فيستخدم زرائب

(١) باندر: المرجع السابق، ص ١٥٧.

أو مخازن أو مطبخا. وتكون الغرف معتمة، حيث تقوم الكوى الضيّقة مقام الشبابيك. وتكون واجهة المنزل عادة باتجاه الجنوب، وهي تتخذ مخزنا للحبوب شتاء ومساكن صيفاً. إن سقوف هذه المنازل تتألف من سوق أشجار الحور غير المعدلة وغير المقشرة حيث يوضع طرفاها على الجدران وتوضع فوقها الأغصان ثم الأوراق والأعشاب، ثم الطين الذي يسوى فوقها ثم يفرش بالتراب ويعدّل بواسطة حادلة حجرية. إن هذه السطوح تكون جد قوية وتعد في كثير من الأحيان بمثابة المكان المسطح الوحيد الذي يمكن استخدامه لحاجات كثيرة، من بينها ندف الصوف. وعندما يسافر المرء في كردستان، لا يجد مكانا ملائما لينصب فوقه خيمته في فصل الصيف إلا سطوح المنازل هذه، وهي تعد من أكثر الأماكن نظافة في القرية. وعلى كل حال فإن القرى الكردية في الجبال أحسن بكثير من قرى هضبة أرمينيا العالية، المظلمة القذرة العديمة الضياء والهواء، الأشبه بجحور الفئران.

في هذه الوديان العميقة تكون الليالي شديدة الحرارة صيفا. لذلك يرحل سكانها عادة إلى المرتفعات حيث يقضون فصل الحر. ومع ذلك فان قسما منهم يبقون في القرية لحراسة الكروم وسقي حقول الذرة والشلب والتبغ والدخن المرتبة على شكل مدرجات ترابية. إنهم يصنعون ما يشبه المصاطب العالية (هرزال) التي يبلغ ارتفاعها أحيانا عشرين مترا ليقضوا عليها لياليهم. ولهذه المشيدات العالية فوائد عديدة، فهي تقي ساكنيها بعوض الملاريا والوحوش المفترسة، ويكون الهواء فيها أكثر نقاء، كما أنها تصلح مراكز للمراقبة. ليس الترتيب الداخلي للمنازل الكردية متشابها في كل مكان. إن الوصف الذي نقدمه الآن يمثل أحد المنازل المتوسطة الشائعة. يضم المنزل بوجه عام جناحين أساسيين يتكون الأول منهما ويسمى (كولان)[٢]، من بيت للمؤونة يحفظ فيه الماء والوقود وأدوات التنظيف... الخ. ويستخدم أيضا مخزنا لذخيرة الصيف. أما الجناح الثاني فيستخدم للسكن ويوجد في وسطه (تنور) وهو موقد مدفون في الأرض ذو شكل أسطواني. وإلى يمين مدخل المنزل توجد مصطبة من الطين على طول الحائط تغطيها البسط أو الفرش (دوشكي رونيشتني). وفي مواجهة المدخل ينتصب رف واسع مصنوع من ألواح الخشب الموضوعة فوق حمالات خشبية ومغطاة بالحصران. وتوضع فوق هذا الرف الفرش والألحفة والمخدات المغطاة بشراشف. أما تحته فتخبأ فيه مربى المخيض والزبدة والكوز التي تحفظ فيها (القاورمة) أي اللحم المقلي المجفف والجبن و (كاتيك) وهو الجبن الجاف. ويجلس الرجال عادة إلى اليمين على (الدوشك) بينما تجلس النساء والأطفال إلى جانب الموقد حيث يكون قدر الطعام موضوعا على قاعدة حديدية مثلثة ذات ثلاث قوائم (سى كوجكه). وتمد ربة البيت يدها بالمغرفة (هيسكو [أو أسكوي – المترجم]) إلى القدر وتوزع الطعام على الجميع. وفي

(٢) كولان: تعني في الأصل الطرق الواقعة بين المنازل في القرى أو المدن. وإذا كان يطلق في بعض المناطق على هذه الأجنحة من المنازل التي تحدث عنها المؤلف، فإنما هو تجوز لأن هذه الأجنحة ممرات إلى الغرف الخلفية في تلك المنازل – المترجم.

ليالي الشتاء يوضع فوق الموقد كرسي خشبي يغطى بلحاف، فينام الجميع تحته حول الموقد.

أما بالنسبة لخيم الرحّل، فهي بيوت خفيفة الوزن يسهل نقلها على ظهور الدواب، وهذا ما يتلاءم مع حياة الترحل. ففي الربيع والخريف إذ يكون الطقس رطبا والليالي باردة، تنصب الخيام على المنحدرات الجنوبية باتجاه الرياح الجافة. وتقام المخيمات في أغلب الأحيان عند الأطراف السفلى للمراعي. وهذا يعني أنه في الصيف والربيع إذ تبدأ حرارة الشمس بتيبيس الأعشاب وتتجه المواشي في صعودها إلى الأماكن التي ذابت فيها الثلوج، تظل الخيم خلال هذه الفترات قائمة في المناطق المنخفضة، حيث يوجد المزيد من الحرارة. وبالعكس من ذلك في الخريف، فعندما تبدأ قطعان الماشية بالنزول نحو الوديان تسبقها المخيمات.

وتشبه خيم الكرد خيم البدو العرب في شمالي المنطقة العربية. وتتألف هذه الخيم من لفائف طويلة سوداء، ولذلك يطلق عليها بالكردية اسم (رشمال) أي البيت الأسود. وهي مصنوعة من نسيج شعر الماعز مخيّطة فيما بينها. وتثبّت الخيمة بواسطة تسعة إلى خمسة عشر عمودا ذات أطوال مختلفة مثبتة في الأرض ومربوطة بالحبال بأوتاد مغروزة. إن هذا النسيج جد متين ومتماسك بحيث لا يمكن للمطر أن يتسرب من خلاله. ولا تتّصل الخيمة بالأرض. وتسد هذه الفتحة المتروكة بواسطة حواجز خاصة لحماية الخيم من الرياح والأمطار.

وفي داخل الخيمة تغطى الأرض بالبسط وأنواع السجاد. ويبلغ أثاث بعض خيم الأغنياء درجة من الترف تدهش الزائر. ويمكن القول ان أثاث الخيمة يعكس الحالة المادية لأصحابها ويدل على وجود تمييز اجتماعي لا يمكن إنكاره. وكما أن أثاث الخيمة يختلف بالنسبة لحالة أصحابها المادية، فإن مساحاتها تختلف كذلك تبعا للأساس نفسه. فقد شاهد بعض الرحالة (ماكينتوش مثلا) بالقرب من (بايزيد) خيمة بطول خمسين قدما وبعرض خمسة وعشرين قدما. كما صادف رحالة أخرى هو (كيسلنك) في شمالي بلاد ما بين النهرين خيمة زعيم كردي طولها ١٠٠ قدم وعرضها ٥٠ قدما. ولكن سعة معظم الخيم بوجه عام أقل من ذلك بكثير. وتكون الخيمة الكبيرة مقسمة في الغالب إلى عدة أقسام، وهناك قسم خاص بالنساء. وكما يقول (لايارد) في مؤلفه (نينوى وبابل) "يوجد في القسم الخاص بالنساء جانب مخصّص لرئيس العائلة وزوجاته. ويكون القسم الآخر من القسم النسائي (الحريم) مليئا بالسجاد والبسط والأدوات المنزلية وأدوات المطبخ، بالإضافة إلى الزبدة والمواد الأخرى الضرورية للبيت. ويهيئ الخدم في هذا القسم من الخيمة وجبات الطعام للضيوف وغيرهم".

وحواجز الخيمة مصنوعة عادة من قصبات الخيزران المتشابكة مع الخيوط الملوّنة الصوفية أو الحريرية. وترتب هذه الخيوط بشكل منسق يشبه إلى حد كبير رسوم السجاجيد. ويمكن رفع هذه الحواجز بسهولة، وهي لا تحد من جريان حركة الهواء ولكنها تخفف من شدة الريح وتمنع المطر من التسرب إلى الخيمة. وتختلف أبعادها تبعا للغاية التي وضعت من أجلها: هل هي لتكملة الغطاء

الخارجي أو لتزيين القسم الداخلي من الخيمة؟ ويشتمل أثاث الخيمة أحيانا على بعض الأرائك وعدد من الوسائد الحريرية وأنواع من السجاد الفاخر... الخ. ولا يتعدى عدد الخيم في كل مخيم من المخيمات عشراً أو خمس عشرة. ويتناسب هذا العدد مع أهمية القطيع الذي لا يمكن أن يتجاوز عدده العدد المحدد لكل بقعة من بقاع المراعي. ويصادف وجود مخيمات أكثر سعة وأهمية في الوديان الكبيرة المطلّة على المراعي الواسعة، ولكننا لا نصادف أبداً وجود خيمة منعزلة لوحدها للأسباب الأمنية التي سبق ذكرها. ومن الجدير بالذكر أن الخيمة الكردية ليست سوى مسكن صيفي. وحتى في سلسلة جبال طوروس الجنوبية، للكرد منازل شتوية دائمية. وقد تبين من وصف الخيمة الكردية ومقارنتها بخيمة الرحّل من القرغيز المتكونة من عدة طبقات من اللباد مثبتة على عمود دائري، أنها لا تتحمل برودة الشتاء القاسية. وبجانب هذا النموذج المألوف من الخيمة الكردية نشاهد أحيانا أكواخا ذوات سقوف منحدرة من الجانبين تحمل أسماء مختلفة (كبروك، زومه... الخ[٣].

ثانياً- الزي الكردي:

(١) أزياء الرجال:

الزي الكردي، مثله مثل المسكن الكردي، متأثر بالوسط الطبيعي الذي يعيش فيه الكرد. يقول ديكسون: يلبس الكرد الذين يعيشون في الهضبة الأرمينية العليا، ملابس مفتوحة الأكمام لا تزيد سعتها عن حاجة الجسم، وسروالا كذلك أيضا، ويشدون حول بطونهم أحزمة عالية. ولا يكاد الكردي ينزل عن صهوة جواده. وهو مسلّح دائما بالبندقية وحزام الخرطوش مع خنجر صغير. هؤلاء الكرد هم أنفسهم الذين جنّد منهم السلطان العثماني عبدالحميد فوجاً من الخيالة في سرايا غير نظامية أطلق عليهم اسم (الفرسان الحميدية) مقلّدا في ذلك القوقاز الروس. ويكمل هؤلاء لباسهم بقبّعة من اللباد الأبيض مخروطية الشكل يحيط بها منديل أسود من الشال الكشميري تنزل أهدابها من كل الجوانب.

أما في كردستان الجنوبية، فان الخيول تبدو عديمة الجدوى، ولذا فهي غير موجودة لديهم بكثرة. إن الزي السابق الذي أشرنا إليه حلّت محلّه ملابس واسعة أكثر ملائمة للتسلق. فالسروال واسع وفضفاض من أعلاه من الخلف، والسترة قصيرة وهي من القماش الأبيض السميك. وغطاء الرأس عبارة عن قبعة بيضاء مخروطية الشكل، مصنوعة من اللباد ويحيط بها منديل ذو لونين أبيض وأزرق في شكل (عين عصفور). ويشد الكردي على بطنه في وسطه حزاما ملونا طويلا ولكن بأناقة. ويكمل الخنجر الكبير ذو القبضة الفضية هذه اللوحة الجميلة. أما الرحل الحقيقيون من الكرد فإنهم يقلدون العرب البدو في ملابسهم دون أن ينسوا الخنجر الكردي الذي يرون وجوده ضروريا. إن وصف ملابسهم يبدو لنا أمرا صعبا.

---

(٣) راجع (مولتكه) في وصفه للخيمة الكردية، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

والحقيقة أن الزي الكردي للرجال، بقدر ما هو مرتبط في خطوطه الرئيسية بمتطلبات طريقة عيشهم، فإنه ينم أيضا عن ذوق غزير التعبير. وفيما يلي نماذج من الأزياء الكردية التي وصفها لنا بعض الرحالة، وهي نماذج وإن كانت قديمة، إلا أنها ما تزال موجودة. "أمامنا كردي مديد القامة، صلب التقاطيع، يمتطي فرسا صغيرا منهكا ويرتدي زياً مبرقشاً يتلاءم والذوق الكردي. والعمامة الطويلة الغريبة التي يضعها على رأسه، يكاد يغرق بسبب من امتدادها، بين ثناياها الفارس وفرسه! وتبرز من بين هذه الكتلة من الأقمشة المتعددة الألوان قبعة مخروطية من اللباد الأبيض، ويبدو الفرس النحيل بهذا الحمل وكأنه مترجرج على وشك السقوط من الإعياء، ويتهدل على جانبيه وشاح متعدد الألوان بحيث يكاد يلامس من طرفيه الطريق. ويتألق هذا التنوع من الألوان الأحمر والأصُّفر وغيرها على سترته المطرزة ومعطفه وحزامه، كما أنه يحمل العديد من الأسلحة ذوات الأشكال الغريبة".

ثم يصف لنا الزي الكردي في شمالي منطقة موكري جنوبي بحيرة أورروميه ويقول:

"إنهم يغطّون رؤوسهم بشال من الحرير المخطّط بالأحمر والأبيض والأزرق، معقود بأناة وفي طيات كثيرة على قلنسوة حمراء. إن ثناياها الواسعة مربوطة بوشاح من صنف خاص، كما أن أهدابها الطويلة تنزل بشكل غير مرتب وغريب. إن لهم ملامح فرسان القرون الوسطى وتلمع عيونهم السوداء ببريق عجيب تحت هذه القبعات المزركشة ويرتدون زيّاً هو عبارة عن صدرية واسعة مع رداء ذي أكمام فضفاضة مزركشة على النمط التركي، يلبسون فوقه سترة مبطنة بالفرو حسب الإمكانيات المادية لصاحبها. أما الناس الذين ليست لديهم إمكانيات مادية جيدة، فيرتدون سراويل واسعة مسترسلة تحدث صوتاً لدى السير، ويضعون لأجل الرشاقة بدلاً من شال واحد، حزاما مشدودا بعديد من التشابكات، في وسطه خنجر مزين بمواد نفيسة حسب إمكانيات صاحبه. ويضع الكردي في وسط حزامه ليس فقط خنجره الكردي، بل زوجا أيضا من المسدسات الكبيرة المصنوعة من النحاس، وقد تكون مرصّعة بالفضة. وإلى جانب ذلك كله عدد من أوعية البارود وأمشاط الرصاص والخراطيش.. الخ. ويلبسون فوق ذلك كله معطفا أو عباءة من وبر الجمال، بيضاء أو سوداء أو مخطّطة باللون الأسود والأبيض والقهوائي على صدرها أزرار، وتنتفخ من الخلف بشكل غريب".

ويقول سون:

"إن الزي الذي وصفناه هنا ما يزال كما كان منذ قرن من الزمان ولم يتغير منه شئ إلا فيما يتعلق بالمسدسات الكبيرة التي حلت محلها مسدسات صغيرة مع بندقية صغيرة تعلق على الكتف. ويتمنطق الفارس بأربعة أو خمسة صفوف من الاجربة لخراطيشه يضع الواحد منها فوق الآخر".

ويصف لنا (ريج) رجلا من الجنوب، من السليمانية من عشيرة الجاف، على النحو الآتي: "يتكون زيه من قماش من النسيج الهندي أضيفت إلى خيوطه الأصلية خيوط مذهّبة مطرزة بنقوش الأزهار، ويضع على رأسه شالا كشميريا فاخراً بأهداب مذهّبة أنسدلت على جوانب رأسه، كما يلبس سترة

طويلة مفتوحة أو معطفاً من النسيج بلون العليق وبرسوم ذهبية كثيرة... يلبس الجاف قباء بطول قامتهم، مع سروال خفيف وحذاء من جلد غير مدبوغ. وهذا ما يساعد على حفظ أقدامهم، ويضعون على رؤوسهم قبعة مخروطية من اللباد".

ويلبس الكردي في منطقتي موكري وروانduz قبعة خضراء اللون من النسيج ليست طويلة وتنتصب في نهايتها خصلات صلدة وذلك بدلا من القبعة البيضاء ذات النهاية الحادة. وتكون العمامة التي يلفونها حول رؤوسهم صغيرة الحجم، الا أن طريقة لفها تؤدي إلى تغطيتها لجانبي وجوههم. وقد أخذوا من الفرس (الكاب) وهو قميص قصير لا يبلغ الركبة، ويغطي كل ذلك سترة طويلة منثنية مصنوعة من المخمل الملوّن اللّماع يسمى (سرداري). وكلما انحدرنا نحو الجنوب صار الزي الذي يلبسه الكرد أكثر شبها بالزي العربي[٤]. إن الزي الشمالي (يقصد شمالي كردستان – المترجم) هو زي العمل، لأن الرجل في الشمال يكون دوما متهيئا للعمل. أما الزي السائد في جنوبي كردستان، فيتكون من قميص طويل يلبس فوق ثوب ابيض ذي أكمام كأكمام الجبة تصل الأرض. ويرتدي الرجال أيضا ما يدعى (سلته) وهو نوع من الستر (أشبه بالسترة التي يرتديها الجنود في الجزائر)، تخاط من النسيج الغامق اللون وتطرز بنقوش ذهبية. وتختلف العمامة باختلاف العشائر، وهي تشد على كمة (كلاو) من القطن المطرز. ولتكملة هذا الزي، يرتدي أفراد كل عشيرة من العشائر الكردية في الجنوب صدرية خاصة بدون اكمام من اللباد الغليظ. ولا حاجة بنا للقول أن جميع هذه الأزياء الجميلة الزاهية لا يرتديها إلا الرؤساء ورجالهم المسّلحون. أما الزي العادي الذي يرتديه معظم الناس في وسط كردستان، فيتألف من سروال واسع وسترة من الصوف المنسوج في المنزل، وصدري من اللباد بدون أكمام يدعى (بستك) وقبعة مخروطية (كولوس، كوم) من اللباد أيضا. وتشمل الملابس التحتانية قميصا (كراس) وسروالا (درجي) من القطن. أما الحذاء (بيلاو) فيكون إما من الشعر المنسوج (ريجيك، زير كال) أو من الجلد غير المدبوغ (كالك) ويلبس شتاء من أجل السير على الجليد نوع من المضارب (ليبان) واسع وقصير[٥].

(٢) أزياء النساء:

والزي النسائي غير المتأثر كثيرا بالأزياء الأجنبية، وخاصة بأزياء العرب البدو، يختلف هو الآخر من منطقة لأخرى. ففي الشمال يكون الزي بسيطا إذ يشتمل على قميص ملون طويل وسروال واسع أو (تنورة) واسعة، يضاف إليه في موسم البرد قميص آخر وأحيانا لباد. وتضع النساء كذلك على رؤوسهن عمرة (عمامة). هكذا يصف (سون) زي النسوة الكرديات. أما (ديسكن) فيقول: إن من

(٤) بانسن، المرجع السابق، ص ٨٨.

(٥) بالنسبة لسوريا، أنظر اللوحة رقم (٣) في دراسة (روندو) المشار إليها آنفا.

الصعوبة بمكان وصف الزي النسائي، وهو يشتمل على سروال في شكل كيس وفوقه قميص طويل ملوّن، إضافة إلى صدرية واسعة.

وتلف النساء شعرهن على شكل جدائل صغيرة يغطّينها بقبّعة مستديرة صغيرة محلاة بحلي زجاجية يحيط بها منديل (محرمة). ويضاف إلى هذا الزي في المناسبات الخاصة عقد من الفضة والزجاج والأساور أو السلاسل الذهبية أو الفضية التي تحيط بالرأس.

أما في جنوب كردستان ووسطها، فيصبح الزي النسوي أكثر تعقيدا حسب ما وصفه لنا (سون)، إن نساء منطقتي (موكري) و (سنه) مشهورات بكبر عمائمهن التي تضم مجموعة من المناديل الحريرية الملونة المعقدة في أحد الجانبين. والأقراط المعلّقة في الأذنين والأساور وصفوف القطع الذهبية المعلّقة على الجبين تعد بصورة اعتيادية من توابع أزيائهن. وغالبا ما تلبس نساء منطقة موكري ما يسمّى (سرداري) أو (جاروكه) وهي كسوة ثقيلة توضع على الكتف. إن النساء الكرديات لا يعرفن الحجاب على الإطلاق ولا يخفين وجوههن أبداً.

وبالرغم من أن الزي النسائي في منطقة السليمانية له طابع كردي، إلا أن آثار التأثير العربي يبدو باديا عليه. فالملابس التحتانية تشمل ثوبا قصيراً أو سروالا في شكل كيس يخاط القسم العلوي منه من نسيج قطني أبيض. والقسم السفلي منه من نسيج مخطط. ويلبسن فوق ذلك ثوبا طويلا يبلغ القدمين، مع أكمام صغيرة وواسعة من نسيج قطني أبيض قصّ بشكل هلالي لدى الرقبة. ويلبسن فوق ذلك ما يسمى القباء (كوا) وهو قفطان طويل يبلغ القدمين دون أزرار ومفتوح من الأمام، ويخاط عادة من نسيج ثقيل ذا أكمام طويلة واسعة من جهة اليدين ببضع سنتيمترات. وتضع المرأة الكردية على رأسها كمّة صغيرة مزخرفة فوقها يشماغ (جامانه)، وهو منديل ملوّن تنزل نهاياته إلى خلف الرأس لتحيط مرة أخرى بالرقبة. ويستعمل هناك بدلا من العمامة الكردية، حبل طويل سميك حيكت بداخله قطع من النسيج الأسود يذكرنا بالبواء. إن هذا الحبل الذي يلف يسمى (بوشين) يشد على الرأس من تحت اليشماغ، ويبدو الزي بكامله ذا طابع أنيق وذوق رفيع، وبخاصة إذا ما ارتدي من قبل امرأة ممشوقة القامة كما هو الحال بالنسبة لمعظم نساء مدينة السليمانية.

ونعود الآن إلى وصف الزي المدني للنساء الموسرات في مدينة ساوجبلاغ (مهاباد اليوم – المترجم)، حيث أهدين زوجتي بدلة نسوية كاملة أثناء إقامتنا في هذه المدينة التي تقع في منطقة موكري. انه زي بديع يشتمل على ثوب أبيض مع سروال واسع من النسيج الذي تضاف إلى خيوطه خيوط من الحرير أو الذهب، ويلبسن فوقه ثوب طويل آخر من الحرير أيضا ذو أكمام طويلة تصل الكفين على شكل لسان صغير يبدو للناظر وكأنه من أزياء القرون الوسطى، وينتعلن حذاء من بغداد مصنوعا من جلد المعز المدبوغ، أحمر اللون مع باقة من الخيوط المستديرة الشكل وقد ثبت في نهايتها منديل حريري مبقّع. وربما يسر القارئ الفرنسي فيما لو علم أن جميع هذه المنسوجات الحريرية الناعمة مصدرها مدينة (ليون) الفرنسية.

(٣) تصنيف الملابس:

لا يمكن تصنيف كل التفاصيل التي أوردناها بشأن الملابس الكردية تصنيفا دقيقا بحيث يستطيع باحث اتنوغرافي أن يستخرج منها نماذج ثابتة حتى وان كانت محلية، إذ يبدو أن الاختلاف موجود بشأن جميع ما ذكرناه بشان الكرد. وهذا يعود بطبيعة الحال إلى أنهم يقطنون مساحات شاسعة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق، وأن طريقة عيشهم ومشاغلهم تختلف من منطقة إلى أخرى، وأن الكرد لم يبقوا منغلقين على أنفسهم أو معزولين عن الآخرين خلال حقب تاريخهم الطويل، بل بالعكس كانت لديهم صلات وعلاقات عديدة مع جيرانهم. وهذا ما يفسر الموقف المتردد للدكتور كريستوف، الذي تناول موضوع الزي الكردي بشكل لا يتفق مع الأسلوب العلمي التنسيقي لهذا المؤلّف الذي حرص على إعطائنا أمثلة دقيقة وواضحة في هذا السياق. انه يقول لنا بوجه خاص إن من المحال تحديد ما إذا كان هذا النوع من الملابس يعد أصيلا أو ذا صفات خاصة نشأت بتأثير من طريقة العيش أو البيئة الجغرافية، وما هو تأثير التجارة والصلات التي نشأت بين الكرد والشعوب الأخرى على أزيائهم. ففي الشمال يبدو دور الشعوب القفقاسية واضحا، وفي الشرق دور الفرس، وفي الغرب التأثير التركي، وفي الجنوب التأثير العربي. وقد بدت هذه التأثيرات واضحة على الأرمن. أما الكرد فقد ظهرت عليهم تأثيرات الأقوام المجاورة لهم ولكن بدرجة أقل. ثم ينتقل كريستوف إلى وصف الزي الكردي بالصورة التي رأيناها في أعالي الهضبة الأرمينية، وهي تختلف كثيرا عن الزي في وسط كردستان وجنوبها، الذي وصفه (سون).

إن الكرد في أعالي الهضبة يصنعون ملابسهم من المواد التي توفرها لهم قطعان مواشيهم، ولا يعتمدون على التجارة في توفير هذه الملابس. وكما سبق أن بيّنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب، تقوم النساء بحياكة النسيج واللباد من صوف الأغنام وشعر الماعز. ان هذه المنتجات الخشنة متينة جدا وتحمي الجسد أفضل بكثير من الأقمشة القطنية المستوردة عن طريق التجارة. إنها تحمي بصورة أفضل أجساد الرعاة الرحّل المعرّضين دوما لتقلبات الطقس، ويقال الشيء نفسه بشأن الحذاء. وبعكس ما يقوله دكسن، إن الأحذية الجلدية ليست مقبولة لدى الجميع. إن الحذاء المعتاد هو نوع من النعال يحاك من الصوف، وهو ينهك القدم ولكنه يضمن الصلة بالتربة التي يدوسها بصورة أفضل. وهو شيء جد مفيد لمن يتسلّق الجبال كما ثبت ذلك عمليا بالنسبة لكاتب هذه السطور. وهذه الحالة تعدّ مثالاً واضحاً على تكيّف عضو من جسم الإنسان مع وظيفته.

وقد استخدمت الصنف نفسها من النعال في عبور جليد (ديودورك) في القفقاس. فقد كان صندلاً من الجلد الغليظ المتين المتشابك، بدلا من النعال. وقبل انتعاله، كنا نملأه بعشب جاف ناعم، فتحسّ القدم براحة تامة لا تؤثر فيها خشونة وجه الأرض لدى الصعود. أو لا يلبس الناس أيضا عند عبورهم البحر الجليدي في منطقة (شامونيكس) الجبلية الفرنسية مع الأحذية الاعتيادية جوارب ثخينة من

الصوف؟ إنها الأسس والقواعد نفسها في المناطق المتماثلة.

ويجب الإشارة أيضا إلى المعطف المصنوع من اللباد الثخين الذي يرتديه الرعاة لحماية أجسامهم من المطر، الذي يبدو لأول وهلة وكأنه كيس مربّع الشكل (كەولێ شوانى) كما يسمّى في القفقاس. وهناك صفة واحدة تبدو مشتركة بالنسبة لجميع الكرد في ملبسهم، إن الزي الكردي لن يكون أبدا معتّما وبلون واحد، بل يدهش الناظر إليه دوما بجماله وامتزاج ألوانه المتضادة. ويكاد المرء يعتقد أن الطبيعة التي تحيط بالكرد من مراع خضراء مزينة بالأزهار، وثلوج تلمع من بعيد، وسماء زرقاء صافية، ومياه سهول وجداول، أسهمت كلّها في أن تنّمي لديهم هذا الذوق الفني الذي نراه رأي العين في زيهم وفي دقائق وتفاصيل تجهيزات سكناهم العائلية: زوال، لباد، وسائد، ستائر.. الخ. ان الهدف الاجتماعي للزي يبدو غير خاف لدى القارئ[٦]. ولا نتطرق هنا إلى موضوع الأسلحة لدى الكرد. فقد صارت الأسلحة التي يمتلكونها حديثة، كغيرها من الأسلحة الموجودة في أي مكان آخر. إن الحراب وريش النعام وأذيال الخيل وأنواع الأسلحة والأتراس أخذت طريقها إلى المتاحف، فلا نجد إلا في المقابض المنقوشة أو على الخناجر المرصّعة آثار التقاليد الماضية.

ثالثاً – الغذاء

من الضروري أن نتوقف قليلا عند بحث الغذاء لدى الكرد. سبق أن بيّنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، لدى الكلام عن الكرد الرحّل، أن منتجات المواشي، باستثناء اللحم الذي لا يستهلك إلا قليلا، تشكل المادة الغذائية الأساسية لهم. إن الأطعمة الكردية الاعتيادية هي قبل كل شئ (ثلاو) المعروف في الشرق الإسلامي كله، والرز المبلل (شله برنج)، و (شاور) أي الحنطة المغلية التي تجفف فيما بعد وتدق ثم تطبخ وتقدم مع الزبدة، والرز المقشر أو الذرة البيضاء أو الدخن المطبوخ في المخيض (دو) الذي يطلق عليه (كيردول)، وصنف من اللحم المطبوخ مع أعشاب معطرة متنوعة، بالإضافة إلى التوابل والجوز ويدعى (ترشك). ويستلزم إعداد هذا النوع من الطعام تهيئة دقيقة، وهو معروف بطعمه لكثرة التوابل فيه. لذلك نجد مثلا كرديا يقارن ألـ(ترشك) بالمرأة. فكما ان المرأة غير الجميلة تستطيع أن تتزين بحليها، يعطي هذا الصنف من الأكل كذلك مذاقا طيبا يفتح الشهية بتوابله، رغم أنه ليس بشئ في حد ذاته. وينبغي أيضا أن نذكر الصنف الذي يعد من كريات من العجين أو اللحم المثروم تطبخ مع المخيض (دو) ويضاف إليه الرز أو الحنطة المفتتة ويطلق عليه اسم (دوخوا). وهناك أيضا (ترخينه) وهو صنف من الأكل يعد بطبخ الرز أو القمح المفتت في الماء مع الـ(كاري) أولاً، ثم تضاف إليه الزبدة. وأحيانا تطبخ الحنطة المفتتة في الماء الحار المدهون بالزبدة والقاورمة (وهي اللحم

(٦) للزي الكردي مغزى سياسي أيضا، كما أثبت ذلك (إصلاح) الزي والملابس في كل من تركيا وايران وفي عهد بطرس الأكبر سابقا في روسيا.

يحمس في الدهن ويحتفظ به في قربة لاستهلاكه في موسم الشتاء – المترجم) وهو ما يطلق عليه اسم (شله كنم). وتطبخ أحيانا الحنطة المفتتة والشعير في اللبن بإضافة بعض الأعشاب المعطرة إليها مثل كيزنك، بونك [بونك = النعناع البري – المترجم] وأوراق اللفت اليه ويسمّى (دوخينه).

والصنف الذي يطبخ فيه الرز أو الدخن أو العدس في الماء هو صنف الطبقة الفقيرة ويطلق عليه (شوربا). ويعد أيضا من أكل الفقراء الصنف الذي يهيأ من الحنطة المفتتة مع رأسين من البصل في قدر من الماء المغلي (كرماو). ويعد أيضا من طحين الحنطة المفتتة فطيرة (رشته) تجفف تحت الشمس ثم تحمس بالسفود وتحفظ في قربة. ويهيأ من هذه الفطيرة صنفان من الأطعمة: (رشته بلاو) و(رشته رون). ويقدم الصنف الأول من الـ(بلاو) بدون ماء وبعد تقطيره من الماء الموجود فيه. أما الثاني فيطبخ مع اللبن. إن هذه الأصناف من الأطعمة التي أتينا على ذكرها تطبخ عادة في القرى من قبل الكرد المستقرين فيها أو لدى أشباه الرحّل من بينهم[٧]. أما الرحّل فانهم يشترون الحبوب من الغير، وغالبا ما يفتقدونها، فيكتفون بالجبن واللبن الرائب.

ويجدر بنا ان نذكر من بين المنتوجات الحليبية الأخرى (زازي) ويحصّل من اللبن المغلي، و (لور)، وهو من منتجات زبدة اللبن، و (سرتو) أي القشدة، و (كشك) وهي كرات صغيرة من الجبن الأبيض جففت تحت أشعة الشمس. أما الخبز فيعد عند الرحّل من قبيل الحلويات ونادرا ما يقدم إلى الضيوف من عابري السبيل. وفي الشتاء عند ما يشح علف الحيوانات وتقل بالتالي كمية الحليب التي تحلب منها، تتأزم الحالة الغذائية للكرد. وخلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤–١٩١٨ التجأ إلينا عدد من هؤلاء التعساء، يطلبون الأمان ليتخلّصوا من الهلاك جوعا، ورأيت آنئذ أن من الواجب عليّ معاملتهم معاملة اللاجئين المسيحيين في تركيا الذين تشكلت للعناية بهم لجنة خاصة برئاستى وعضوية جميع رؤساء البعثات التبشيرية. وعندما وصلت طهران فيما بعد، نبّهت هيئة أمريكية خاصة كانت تقيم في العاصمة بالوضع المأساوي للشعب الكردي.

(٧) ومن الصعب اطلاق هذه التعميمات في أسماء الأطعمة وأنواعها بحيث تكون عامة لكردستان كلها، وذلك لأنه رغم كون مشتقات اللبن مادة رئيسية في أطعمة الكرد فيما مضى، إلا أنه كان لكل منطقة أطعمتها التي ربما وجدت في مناطق أخرى أيضا أو انفردت هي بها، كما أن إعداد الطعام الذي يتسمّى بأسم معين لم يكن على نمط واحد في كل منطقة. فـ (ترخينه) و (دوخوا) اللذان ذكرهما المؤلف يعدان على نحو مختلف إلى حد بعيد في شهر زور وهو رامان وبين عشائر الجاف ودزەيى مثلا. و (رشته) كانت تستعمل مع الرز أو البرغل (ساور) بنسبة قليلة في بعض المناطق لا كمادة أساسية بل لإضفاء نكهة معينة على الطعام. وهكذا ينبغي لمعرفة أنواع الأكلات الكردية التمييز بين العام والمحلي بدقة، والتمييز بين الأنواع المسماة بأسم واحد حسب المناطق وحسب طريقة إعدادها أيضا. وخلاصة القول ان الموضوع بحاجة إلى تفصيلات دقيقة أكثر يعتمد فيها على ذكر الأنواع والأسماء في كل منطقة ذات نمط معين في الاقتصاد وكيفية إعدادها هناك – المترجم.

والشئ المألوف لدى العشائر الكردية الكبيرة هو أن رئيسها يضيف الى مائدته كل ما يتوجه إليه. لذلك فإن جميع الهدايا ومنتجات الحقول التي يقدمها إليه أفراد عشيرته يستفيدون منها جميعا. ونستطيع القول بوجه عام أن طبائع الناس وأنماط معيشتهم في الشرق تعمل ضد تكديس المال. إن أي شخصية معروفة كردية كانت أم فارسية أم تركية، ملزمة بحسب التقاليد الجارية، بأن يكون لديها عدد من الخدم، وتكون مائدتها مفتوحة للجميع لتعطي انطباعا بالأبّهة والزهو. إن جميع الهدايا والنقود التي تقدم إليها تصرف على الناس من جديد. وبالنظر للجوء الشاه والسلطات في كل من إيران وتركيا إلى مصادرة أموال الأثرياء من أصحاب الحظوة بين الحين والآخر، لذلك لا تتجمع ثروات ضخمة بين أيدي هؤلاء الناس. ويؤكد الكاتب الأرميني (آبو ڤيان) أن بعض الزعماء الكرد كانوا ملزمين بمقتضى مراسيم الضيافة بأن يذبحوا يوميا من ٣٠ إلى ٤٠ خروفا ويهيئوا من أربع إلى خمس بودات [يساوي البود الواحد ١٦ كيلو غرام] من الرز لإعداد الـ(بلاو)، ويوزعوا عدة باونات من القهوة والتبغ على ضيوفهم(٨). ويصف لنا مينورسكي المأدبة الضخمة التي أقامها على شرفه سردار منطقة موكري في مقر اقامته في (بوكان) عام ١٩١١ مضيفا "أن الضيافة انتهت بتدمير السردار نهائيا، فقد كان سخاؤه يدفع جيرانه لأن يتوجهوا إليه من كل الأطراف، مستغلّين هذا السخاء. كانوا يأتون جماعات كبيرة ويضيّفهم السردار لمدد طويلة، فقد كانوا يعرفون أنهم يظلّون معززين مكرمين. لا أعتقد أن غالبية الكرد في تركيا يطبّقون مثل هذه العادات المتبعة لدى الموكريين". ومع ذلك فقد أخبرني بعض أصدقائي الكرد أن هذه العادة جارية لديهم بوجه عام.

رابعاً- مكانة المرأة الكردية:

بعد هذه الملاحظات التي تخصّ حياة العائلة الكردية، نبدأ الآن بدراسة وضع المرأة الكردية، لأنها تعكس بوضوح خصائص ومميزات هذا الشعب. يقول مينورسكي: ان الكرد يعتبرون من بين الشعوب الإسلامية أكثرها تفتّحا في الموقف من المرأة. لاريب في أن جميع الأشغال المنزلية الشاقة تقوم بها النساء، فهنّ يحملن الدواب وينزلن عنها الأحمال ويحملن الماء ويصعدن إلى مواقع رعي القطعان لحلبها، كما يقمن أيضا بجمع الأحطاب والمحروقات الأخرى وينقلنها إلى منازلهن للتدفئة والطبخ. ولا يتخلين أثناء عملهن هذا أبداً عن أطفالهن الذين يعلقنهم على ظهورهن بواسطة أحزمتهن الطوال. ولئن كانت النساء يكتسبن من هذه الأعمال المرهقة قوة جسمانية كبيرة، فإنهن يفقدن بها كذلك أنوثتهن ويذبلن بسرعة. إن نساء الرؤساء وحدهن [ويطلق عليهن تعبير "خانم" لتمييزهن عن عامة النساء اللواتي يدعين"يايه"] يستطعن الحفاظ على جمالهن لأنهن يعشن حياة هنيئة رغيدة ولا يقمن

(٨) أنظر أيضا: واكنر، المرجع السابق (باللغة الألمانية)، الجزء الثاني، ص ٢٤٠.

بأي عمل شاق. والنساء الكرديات، أيا كانت طبقتهن ومهما بلغن من العمر، يجدن الفروسية بل ويتحدين الرجال في امتطاء الخيل، كما إنهن لا يخشين كذلك تسلّق الجبال الوعرة ويبدين مهارة فائقة في ذلك.

وكما سبق لنا القول، لا تضع النساء الكرديات الحجاب على وجوههن، ويختلطن أيضا بالرجال عند عقد الاجتماعات، ولهن الكلمة التي يستمع إليها رجالهن. يقول (سون): "في كثير من القرى كانت ربة البيت تستقبلني في غياب زوجها وتشاركني الحديث ببهجة وسرور، دون هذا الخجل والاحتشام والضعف المصطنع للنساء التركيات والفارسيات، بل ويتناولن الطعام معي أحيانا، وعندما يعود زوجها، لا تترك الضيف لوحده مؤكدة بذلك على اهتمامها به حتى يدخل الزوج المنزل بعد نزوله عن جواده وربطه إياه في الحظيرة". وليس من عادة الكرد الحد من حرية نسائهم، ذلك أنهن فاضلات مع تأنق ولباقة وبشاشة. ولا وجود للبغاء بين الكرد، بل إن كثيرا من الرذائل المنتشرة في الشرق تكاد تكون مجهولة لديهم. ويتم التعارف بين الفتيان والفتيات بصورة جيدة. ويسبق الزواج عادة حب متبادل بين الفتى والفتاة، ذلك أن للمشاعر الرومانسية سيطرة واسعة على قلوب الكرد.

وقد روى لنا مينورسكي عام ١٩١٤ أنه حدث منذ ما يقارب العشرين عاما في منطقة ساوجبلاغ أن فتاة أوروبية وقعت في حب شاب كردي فأشهرت إسلامها وتزوجت منه رغم جميع المحاولات التي بذلها قنصل بلادها أو والداها من اجل إقناعها بالعدول عن فكرتها. وحيث أننا مازلنا بصدد الرومانسية، لابد من أن نشير إلى ديوان الشاعر الكردي (مصباح موكري) الذي احتفظ بنسخة منه، والذي أنشد فيه قصائد غزل عذري لحبيبته (نصرت) التي لم تصر زوجته أبدا، بل زوّجت من شخص آخر. كذلك تروي السيدة (بول هنري بوردو) في قصتها الرائعة (انتارام ده تريبيزوند- انتارام الطرابزونية) ملحمة حب غريبة لفتاة أرمينية بيعت من قبل رجال جندرمة أتراك مكلفين بنقلها إلى المنفى لشاب كردي. وتروي لنا هذه الفتاة الأرمينية قصة استعبادها على النحو التالي:

"ماذا كنت في الواقع بالنسبة لهذا الكردي؟ أمة؟ خادمة؟ ضيفة؟ لماذا اشتراني؟ إن لدى هذا الانسان البدائي شعورا عميقا بالنبل الفطري. انه ضنين بتجربته ولا يفرط بأدنى جزء منها. لم يكن في بيته نساء، فمن أين له هذا الاحترام الذي يكنّه للمرأة، والذي يكاد يكون منعدما لدى الشعوب الإسلامية الأخرى؟"

"لقد أحببت هذا الرجل الذي لم أكن أعرف عنه شيئا، بل كنت أجهل حتى لغته وتاريخ شعبه؟

"في الصباح أنهضني من فراشي وأخذني من يدي وراح يدور معي بتؤدة حول النار. تلك هي العادة الجارية لديهم. فعندما تتزوج فتاة تودع منزل والديها بهذه الطريقة. وبعد لحظات استدعاني مع مربّيتي إلى ساحة المنزل حيث كان قد جمع مئة رأس من الغنم وخمسة جواميس وسرجا جديدا من

الحور وأوقفنا هناك وقال لنا: "كان من الواجب عليّ أن أقدّم لوالدك ثمن الزواج[٩]، ولذا فإنني أقدّم هذه الأشياء لمربيّتك التي رافقتك إلى هنا". وكان ينظر إليّ بفرح ظاهر. وبطبيعة الحال لم يكن أحد ما قد أرغمه على القيام بهذا العمل، ولكنه كان يريد أن يظهر للجميع أنه لا يحتفظ بهذه المرأة الغريبة في خيمته لمتعة رخيصة، إنما اتّخذ منّي زوجة شرعية حتى يحترمني الجميع، فشعرت بتأثر شديد. وبعد مضي أسبوع، سمعت أصواتا خارج باب الخيمة كانت وقع أقدام وثغاء حملان. فخرجت لأرى ما يحدث، فأخذ يترقبني، ثم قال: كان يجب أن تعودي إلى أهلك بعد العرس ليقدّموا لك البقر والفرس والمعزى كما هي العادة، لتصبح مواليدها ملكاً لك. تلك هي تقاليدنا، وأنا لا أريد أن تكوني أفقر من غيرك من النسوة. لذلك فإنني أقدّمها لك بنفسي".

"ومرت الأيام، ورزقت طفلا أخذ ينمو بيننا. كان لا يتكلّم كلمة كردية واحدة كأنه أرميني صغير، ولم يبد والده أي تذمّر من ذلك، ولكنه قال لي ذات يوم: لقّنيه على الأقل كلمة "بابا". لم أحقق له رغبته. إن هذه السعادة ما تزال قائمة بيننا منذ زواجنا قبل أربعة أعوام".

والطلاق سهل لدى الكرد، فكثيرا ما يحصل أن يحتدم النقاش فيما بينهم، فإذا بهم يقسمون بالطلاق فيما إذا وقع هذا الأمر أو إذا لم يقع، وهم ينفّذون أيمانهم. ولكن سرعان ما يبدأ الندم يضيق على صدر الزوج ويتمنّى استعادة زوجته المطلّقة، ولكن الشريعة لا تجيز له ذلك إلا في حالة واحدة هي أن تتزوج المرأة المطلّقة رجلا آخر يعود فيطلّقها. عند ذلك يحق لزوجها الأول أن يعقد عليها زواجا جديدا، وكثيرا ما نجد في المدن أشخاصا يمتهنون هذا الزواج العابر، مقابل مبلغ من المال! فعندما يحدث الطلاق في ظروف كهذه ويلجأ الزوج إلى هذا الشخص ليلغي بواسطته الطلاق، تحدث أحيانا ملابسات يتندّر بها الكرد فيما بينهم. إن كل ما ذكرناه ينطبق على حالة الكرد في المدن وفي القرى، أما لدى الرحّل، فإن الطبائع والشيم أكثر بساطة.

ان للكرد رقصة خاصة تدعى (جوپى) وهي عبارة عن شبه دائرة، يمسك فيها الواحد بذراع من يليه ويقفزون معاً بعض القفزات الصغيرة. والذي يقود هذا الرقص (الدبكة) في المقدمة يمسك بيده اليمنى منديلا مفتوحا يلوح به، بينما يمسك بيده اليسرى ذراع من يليه ويسحب معه بذلك حلقة الراقصين الماسك كل منهم بذراع من يليه. يقول مينورسكي: أن احد الملاكين الأغنياء أقام على شرفه حفلة

(٩) ثمن الزواج أو ما يسمّى بالكردية (شيربابي) أي ثمن الحليب، مقدار من النقود أو المواد العينية يقدمها الخاطب إلى ولي أمر الفتاة التي يخطبها لقاء موافقته على تزويجها منه على أساس أن ولي أمر الفتاة أنفق على إعاشتها وتربيتها من ماله الخاص من أجل زوجها المقبل، وها هو الزوج يرد له الدين الذي له بذمة الفتاة، وهو غير المهر الشرعي الذي يعقد النكاح عليه ويعتبر من وجهة نظر الدين الاسلامي ملكا للزوجة. ومن الجدير بالذكر أن الدين الاسلامي لا يعترف بمشروعية (ثمن الزواج) أو (شيربابي) مطلقا- المترجم.

رقص شعبي في أحد الأيام. وما أن ارتفع صوت المزمار (زورنا) مع الطمبور في القرية، حتى هرعت جميع النسوة وقد ارتدين أجمل زيناتهن وأخذن مكانهن بين الرجال في حلقة الرقص التي استمرت حتى المساء، والجميع يضربون الأرض بأرجلهم بين الحين والآخر ضربا جميلا.

وهناك شهادة أخرى لأحد رحالة القرن الماضي يقول فيها[١٠]:

"أسرعت بالوصول إلى المكان الذي حدث فيه التجمّع، فشاهدت لأول مرة رقصة كردية بدت لي لطيفة إلا أنها كثيرة الأنس. يمسك الرجال والنساء بأذرعهم فيما بينهم مشكلّين حلقة دائرية كبيرة، ويرقصون على إيقاع الطمبور الرديء بشكل بطئ وعلى وتيرة واحدة. وقد رأينا أن النساء الكرديات غير معزولات عن الرجال رغم كونهن مسلمات. إن وجوههن مكشوفة، ويعتبر ذلك أمرا غير مألوف لدى الشعوب الإسلامية الأخرى".

مما لا شك فيه أن للمرأة الكردية شخصيتها المتميزة. لذلك لا نستغرب إذا ما وجدنا بين الأمّهات من اضيف اسم ولدها إلى اسمها لكونها قد اشتهرت بجمالها وملاحتها أو بذكائها وفطنتها، فيقال مثلا (بابيرى شاشان) أي بابير ابن شاشان. ويمكننا أن نذكر أسماء العديد من النساء اللائي تزعمن بعض العشائر التي خضعت لهن خضوعا تاما. فمثلا عندما احتل الأتراك منطقة (هكاري) كانت تحكمها امرأة[١١]. ويقول مينورسكي أيضا: "في خريف عام ١٩١٤ التقيت بنفسي في مدينة حلبجة الصغيرة القريبة من مدينة السليمانية بعادلة خانم، أرملة عثمان باشا الجاف[١٢] الذائعة الصيت. لقد كانت هذه الامرأة، الرئيسة الفعلية لهذه المنطقة قبل عدة سنوات، لأن الترك العثمانيين كانوا قد عهدوا إدارتها إلى زوجها الذي كان يغيب عنها بصورة مستمرة. لقد عاش (سون) متنكرا في زي تاجر إيراني بعض الوقت في القصر الصغير لهذه السيدة، فوصف بصورة طريفة كيف كانت تحكم رعاياها وتدير أمورهم بنفسها، دون أن تنسى شؤونها كامرأة، كشرائها لمختلف أنواع الأقمشة والقيام

(١٠) كومت ده سيرسي: بلاد فارس بين ١٨٣٩- ١٨٤٠، ص١٠٤ (باللغة الفرنسية).

(١١) هارتمان (بالفرنسية).

(١٢) يمكنني ان أضيف لهذا المثال الذي أورده مينورسكي مثالا آخر هو (مريم خانم)، أرملة الشيخ محمد صديق. لقد كان لي شرف التفاوض مع هذه السيدة الكردية النبيلة التي بقيت وحدها مع خدمها في (نهري) عاصمة إقليم (شمدينان) خلال تقدم القطعات العسكرية الروسية عام ١٩١٦ في هذا الجزء من كردستان. ويذكر (ميللينكن) في الصفحة ٢٥١ من كتابه المشار إليه آنفا اسم سيدة كردية أخرى هي أرملة عمر آغا، رئيس عشيرة (ميلان) التي لم تكن قد جاوزت الثانية والعشرين من عمرها عندما فقدت زوجها ولكنها كانت تتمتّع بتقدير كبير من قبل كبار رجال عشيرتها وتؤثر عليهم كثيرا. لقد كانت تسير أمور عشيرتها بمهمة رجل قدير ونشاطه. وقد جلب انتباهي أيضا الاستاذ ماسينيون للدور الذي تلعبه النساء اليزديات على الوجهاء الكرد، فقد كان جمالهن يجعل الرجال يبحثون عن الزواج منهن على الدوام.

بالأعمال المنزلية كربّة بيت. ولكن عندما بعثت حكومة الانقلابيين في تركيا موظفا تركيا إلى حلبجة، اعتزلت عادلة خانم الحكم وبدأت تعيش حياة منعزلة. كانت عادلة خانم تتولّى إدارة المنطقة بنفسها بكل جدارة. وعندما كنّا في زيارة للمنطقة، زارتنا في مخيمنا مع حاشية من الوصيفات والخدم، ووافقت بسرور على التقاط صورة لها، وشكرتنا على الهدية التي قدّمناها لولدها برسالة مكتوبة باللغة الفرنسية ظهر فيما بعد أن شابا كرديا درس الفرنسية لدى المبشرين الكاثوليك في (سنه) هو الذي قام بتحريرها.

يحب الكرد بوجه عام أطفالهم كثيرا. ونرى بالقرب من كل رئيس كردي طفله المفضل ذا الحركات الكثيرة والذي يكون طفله العاشر أو الحادي عشر. وقد ورد في كتاب (شرفنامه) أن جانبولاد بيك كان له سبعون ولدا. وهذه الحالة ليست استثنائية، إذ ليس من النادر أن تصادف في جبال كردستان شيخا كرديا شجاعا وهو يمسك بيد أمل شيخوخته. ويذكر مينورسكي أنه كان في إحدى رحلاته في كردستان، وبينما كان يسير ضمن قافلة في طريق صعب العبور مشرف على هاوية، ظهر فجأة شخصان على الطريق كان الأول منهما كرديا فقيراً كجميع فلاحي المنطقة وهو يحمل بين ذراعيه طفلا ملفوفا بخرق بالية، وكان الثاني زوجته وقد بدت على وجهها الجميل إمارات الحزن وهي تتبع زوجها حاملة خنجره لئلاّ يعيقه في سيره. وتبين أن الطفل كان قد وقع من فوق السطح وأغمي عليه. لقد كان الوالدان مستعجلين في الذهاب إلى قرية مجاورة لعرض الطفل على كاتب تعويذات أو عرّاف. وما أن عرفت الأم أننا أوروبيّون، حتى أخذت تمسك بزمام خيولنا وتقبّل أقدامنا وتستعطفنا طالبة إنقاذ طفلها، ذلك أن الأوروبيين يعتبرون في نظر الشرقيين بوجه عام أطباء أو ذوي معرفة بالطب. لقد كان في هذا المشهد الكثير من صفاء النية والألم الحي. ولأجراء المقارنة تذكرت على الفور ازدراء الكرد للأخطار وللموت، وكيف أن أحد زعمائهم قال لي: "ما من ميتة أدعى للعار من أن يلفظ المرء أنفاسه على فراشه. ولكن إذا قدّر لي أن أصاب برصاصة وحمّلوني إلى داري، فسيفرح الجميع لأنني أموت ميتة شريفة". ولعل الأمهات الكرديات يؤمن بهذه الفلسفة القاسية، ولكن الألم الذي رأيته على وجه تلك الامرأة البائسة كان يؤكد بكل وضوح رقتها ومشاعر الحنان قي قلبها.

ولابد من القول في هذا السياق أن الوسائل الصحية معدومة تقريباً بين الكرد والأمراض متفشية فيما بينهم. ومع ذلك فإن الأمراض الخطرة تكاد تكون معدومة بين الرحّل منهم. وتقتصر المعالجة التي تقدم للمريض عندهم على وضع تعويذة أو طلسم على مكان الألم أو أن يبتلع المريض ورقة كتبت عليها آية قرآنية أو إحدى الطلاسم. وقد يعمدون إلى استعمال بعض الحشائش الطبية، لكن هذا التطبيب العائلي لم يدرس بعد بما فيه الكفاية.

وفي هذا السياق، نشير، كما يذكر لنا (واكنر)، إلى وجود طريقة خاصة عند أبناء عشيرة (بلباس) لمعالجة الجروح. إنهم يلفون جسم الجريح كله، ما عدا رأسه، بجلد بقرة سلخت حديثا ويخيطون أطراف

الجلد (كما لو وضع الجريح في كيس من الجلد - المترجم). ويسقط الجلد بمرور الزمن من جسم الجريح. ويعتقد أبناء هذه العشيرة بأن أخطر الجروح، بما فيها جروح ضربات الخناجر والسيوف والرماح، تشفى بهذه الطريقة. ومن هذا نفهم كيف أن الكرد يثقون بالطبيب أو بأي أوروبي، كما في الحالة التي أشرنا إليها قبل قليل، حتى فيما إذا لم يتمكّن هذا من أن يساعد المريض إلا بإعطائه قطعة من السكّر وفوقها بعض قطرات النعناع أو غيره، إذ سرعان ما يعلن المريض أن حالته تحسنت.

إن أمراض الجهاز التنفسي ليست كثيرة بين الكرد، رغم كثرة التبدلاّت الفجائية في حالة الطقس. يلاحظ بالعكس انتشار مرض الروماتيزم بينهم. وقد يكون ذلك بسبب عدم كفاية الحماية التي تقدمها لهم خيامهم وملامستهم المباشرة للأرض الباردة. كما أن مرض الملاريا منتشر بينهم أيضا. ولأجل الحماية منه يضعون التخوت العالية التي سبق لنا وصفها. وعلى كل حال فإن ترك الأطفال منذ الصغر بدون رعاية وبملابس قليلة يجعلهم يكتسبون مع الزمن صلابة بدنية ومناعة ضد الأمراض، لذلك فإن عدد المعمّرين في كردستان في ازدياد.

وقبل أن ننهي الحديث عن العائلة الكردية، نشير إلى ما ذكره (سون) من أن السائد بين الكرد في الشمال وفي الجنوب هو عدم تعدّد الزوجات، وأن عدد أفراد الأسرة الكردية الاعتيادية لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة أشخاص. إن الرؤساء وحدهم لهم أكثر من زوجة واحدة. وقد ورد في (شرفنامه) أن بعض الزعماء كان لهم عدد غير قليل من الزوجات.

خامساً- نظرة الكرد إلى نسائهم:

تطبيقا لفكرتنا السابقة يفسح المجال رحباً أمام الكرد لوصف أنفسهم بأنفسهم كلّما كان ذلك ممكنا، يسعدني أن أنقل لكم مقاطع من دراسة حول المرأة الكردية نشرت في مجلة (أوريانت - المشرق) البيروتية الصادرة في ١٢ - ١٣ تموز ١٩٣٣ للدكتور في القانون، كامران عالي بدرخان، الشقيق الأصغر لثريا بيك بدرخان. وكما يتبين ذلك للقارئ نفسه، يحدثنا الكاتب عن المرأة الكردية المترفة التي تنتسب إلى الطبقة الراقية وليس لعامة النساء.

يشير الكاتب في بداية بحثه إلى ناحية مهمة يعتبرها مميزة في حياة المرأة الكردية، ألا وهي عدم وجود (حريم) خاص بالنساء، وهو ما يجعل المرأة الكردية حرة في شخصيتها. ويلاحظ أن المبادئ الواردة في القانون الروماني المتعلّقة بالوصاية على المرأة لا وجود لها في الأعراف الكردية. فلم يفكر الكردي قط بالتضييق على حرية المرأة، لأنه يعتبرها دائما أهلاً لتلك الثقة والحقوق والمسؤوليات التي يتمتع بها الرجل، كما أنه يعتبرها من الناحية السايكولوجية متمتعة بالفضائل نفسها ومعرّضة للأغواءات والوساوس التي يمكن أن يتعرض لها الرجال.

ويستعرض الباحث بعد ذلك حياة المرأة الكردية في جميع مراحلها، فهي الأم التي تتولى تربية

الطفل وتعليمه الأغاني الوطنية والرقصات الشعبية والفروسية والكتابة، تماما كما تعلّم اخوتها الذكور، فضلا عن الأعمال اليدوية. إن الفتاة الكردية ترقص (تدبك) بجانب الشباب، وبذلك تستطيع العثور على زوجها في المستقبل.

ثم يأتي الباحث إلى إيراد التفاصيل المتعلّقة بحياة المرأة المتزوجة. ومما ينبغي ذكره بهذا الصدد وجود عرف كردي يسمح بأن يطلق على الولد اسم والدته التي لم يتمكن زوجها من مضاهاتها في جرأتها وإقدامها وقدرتها على القتال. ويعطي الكاتب دليلاً على ذلك أنه نفسه [الأمير كامران] ابن رئيس عشيرة (رميان) يحمل اسم والدته (بريخان) وليس اسم والده.

إن غالبية الأشعار الوجدانية الكردية تتغنى بالمرأة، بل إن جزءاً كبيرا من الأغاني والأناشيد والقصص الشعبية من نظم النساء وتأليفهن. وفي معظم الأحيان تقوم المرأة الكردية مقام زوجها الراحل. ويذكر الكاتب اسم اثنتين من النساء الزعيمات في منطقة (بشدر)[١٣] خلّد الشعب اسمهما عزيزا على قلبه وهما (بوره حليم) من عشيرة (كافروشي) و (كويخا نيركز) من عشيرة (شوان). لقد حاربت هاتان الأمرأتان لسنوات عديدة الاحتلال العثماني. ويورد الكاتب أيضا اسم كل من (عادلة خانم) [المتوفاة عام ١٩٢٤] التي كانت تدير طيلة خمسة عشر عاما أمور عشيرة الجاف في مدينة (حلبجة) وحفصه خان، زوجة أخ الشيخ محمود الحفيد، من بين الأسماء اللاّمعة في تاريخ الشعب الكردي.

وينهي الكاتب ملاحظاته القيّمة بالإشارة إلى أن المرأة الكردية عامل أساسي في النهضة الكردية في المستقبل.

ومن المستحسن أن ننهي هذا الدفاع البليغ عن المرأة الكردية من قبل مثقف كردي بإيراد أقصوصة صغيرة لا تخلو من شيطنة، مستقاة من مجموعة قصصه الشعبية، أقصوصة نلتقي فيها مرة أخرى بصديقنا القديم (عيسو الحكيم): "سأل اسماعيل باشا آخر أمراء العمادية عيسو الحكيم: من هي أفضل امرأة في العالم؟ فأجابه: من كانت لصة وعاشقة وكاذبة. ولأن فهم هذا الجواب استعصى على اسماعيل باشا، فقد اقترح عليه عيسو أن يقوما معا بجولة. فتنكرا بزي الدراويش ومضيا. وكان أوّل منزل دخلاه، منزل رجل كان أصغر إخوانه الثلاثة، فطلبا منه أن يضيّفهما لتلك الليلة، فرحب بهما. وعندما جلسا لاحظا أن لحية مضيّفهما بيضاء تماماً وأن قامته مقوّسة. فسألاه بدهشة عن السبب في ذلك وهو مايزال شابا في الأربعين من عمره؟ فأجابهما قائلا: عندما تذهبان غدا إلى دار أخي الأكبر مني تدركان السبب. ثم نادى الرجل زوجته، فصرخت هذه في وجهه قائلة: ماذا تريد مني أيها

(١٣) الصحيح منطقة (شوان) وليس (بشدر) فقبيلتا (كافروشى) و (شوان) تقطنان منطقة (شوان) القريبة من كركوك لا (بشدر) التابعة للسليمانية – المترجم.

العنكبوت الاحمر، ياسمّ الأفاعي؟ فقال لها يجب أن تهيئي طعاما للضيفين الدرويشين. فردت عليه صائحة: ماذا تريد مني أن أهيّئ؟ ألا تعلم أنه ليس في منزلك الخراب شيء؟ هكذا كانت المرأة تجيب على كل طلب لزوجها بالصراخ والألفاظ النابية. وعندما حان وقت النوم، قال الزوج لزوجته: لدينا فراشان وغطاءان، فلنأخذ أنا وأنت غطاء ونعط الآخرين لضيفينا. فأجابته الزوجة، فليعم بصرك! ألا تعلم أنيّ لا أسمح لك بأن تلامسني؟ خذ أنت غطاء وآخذ أنا الآخر. وهكذا أمضى الباشا وعيسو ليلة نكراء. وفي الصباح التالي ذهبا إلى منزل الأخ الأوسط، فوجدا لحيته شمطاء. فسأله الباشا: كم عمرك؟ أجاب إنيّ أناهز الستين، فاعترض عليه الباشا قائلا: ولكن في مثل هذه السن تكون اللّحية كلها بيضاء، فلماذا لم تغد لحيتك بيضاء؟ فأجاب المضيف: أمضيا الليلة عندي، وفي الغد تذهبان إلى أخي الأكبر فتعرفان السبب، فقبلا. وكانت ربة البيت تلبّي رغبات زوجها تارة وتتجاهلها تارة أخرى. مرة تبدو مهذّبة، وأخرى فظة غليظة القلب. وفي الصباح ذهبا إلى دار الأخ البكر، فوجدا أن لحيته سوداء فاحمة على الرغم من بلوغه الثمانين حسب قوله. ولما استوضحاه السبب، قال لهما: لا تعجبا أيها الدرويشان، أمكثا عندي وسوف تعرفان السبب. لقد كان هذا الأخ البكر أفقر أخويه، إلا أن زوجته كانت تطيعه إطاعة تامة، فما أن يناديها: يا امرأة! حتى تجيبه: نعم، أنا أمَتك، فماذا تطلب؟ ولما سألها عما إذا كان في الدار ما يصلح للطعام؟ أجابت: وكيف لا؟ إن لدينا كل شئ من بيض وأرز وزبدة وعسل و... وبالفعل فقد هيأت وجبة طعام تليق ببيت الباشا نفسه. وعندما حان وقت النوم، سألها الزوج هل لدينا أسرّة؟ فردّت قائلة: في ظلك لدينا كل ما نحتاجه، كما هو الحال في بيت أي باشا. ثم خرجت إلى بيوت الجيران وعادت بكل ما يلزم لنوم الضيفين. ثم قال المضيف لزوجته: يا امرأة! لدينا ضيوف في هذه الليلة، ولا يليق بنا أن ننام معا، لنفترق. فأجابته: كلاّ! إن الدرويشين أهلنا، وأنت تعلم أني أفضّل الموت على أن أنام بعيدة عنك. وعندما حل الصباح سأل الباشا مضيّفه عن أفضل امرأة، فقال: إنها بالطبع امرأتي، فهي تخفي عني كل شئ يزعجني، وتتموّن بكل ما نحتاج إليه، فلا نخجل تجاه الضيوف. وإذا ما نقصنا شيء استعارته من الجيران. إنها تحبني. وبطبيعة الحال، إن العيش مع امرأة كهذه لا يسمح للهرم بأن يدخل حياتنا. وعند ذلك أدرك الباشا معنى كلام عيسو، فكافأه وأطراه، كما أسبغ الثراء على الأخ البكر، وحمَّل الأخ الأوسط على أن يطلّق زوجته، وزوّج الأخ الأصغر من امرأة ثانية".

ومن كل ما سبق ذكره يتضح للقارئ أن الأسرة الكردية أقرب إلى المفهوم الغربي من الأسر التركية والفارسية (قبل إجراء الإصلاحات التي تمت في تركيا وايران بعد الحرب العالمية الأولى)، وذلك لما تتمتع به المرأة الكردية من مكانة. إن للكردي منزلا واحدا، ويندر تعدد الزوجات بين الكرد[١٤]. إن

(١٤) إذا كان للرجل زوجة ثانية (بيري) فيعهد إليها عادة بجميع الأمور المتعلّقة بالحليب وما يصنع منه كالجبن والزبدة والقشدة واللبن الرائب و..الخ.

زوجة الكردي سيدة البيت (كابان) وهي تتمتع بسلطة واسعة داخل الأسرة، فهي التي تتولى إدارة البيت ويعمل الخدم تحت إشرافها، وهي التي توزع الطعام على أفراد الأسرة، ولا يمكن لأحد أن يبدأ الأكل عند نصب الخوان بدون إذنها. وفي غياب الزوج تستقبل هي الزوار وتضيّفهم وتتحدث بحرية إليهم، ولا تخفي وجهها كما تفعل غيرها من النساء في البلدان الإسلامية الأخرى.

سادساً- رب الأسرة:

هناك صفة بارزة تتميز بها الأسرة الكردية وهي أن الزواج يتم نتيجة الحب المتبادل، وأن الخطيبين يتعارفان فيما بينهما قبل الزواج. بينما يتم عقد الزواج لدى معظم المسلمين الآخرين بواسطة شخص ثالث، دون أن تؤخذ في معظم الحالات رغبة العروسين بنظر الاعتبار. وعدا ذلك فإن الأب هو رب الأسرة الذي له حق البت في كل أمر. إن له المكان الأول في الأسرة، وبحضوره لا يحق لأفراد الأسرة التحدث أو الجلوس إلا بعد الاستئذان منه.

ويأتي بعد رب الأسرة مباشرة ابنه البكر. ويكنّ الكردي لوريثه محبة خاصة، وهذا ما يفسر لنا السبب الذي من أجله يتبادل الكرد فيما بينهم، أثناء التفاوض على مشكلة ما، أبناءهم الأبكار كرهائن. إن رهن الابن البكر لديهم أضمن حتى من القسم بالقرآن. والعشيرة قد تقدم على خرق جميع تعهداتها إذا كان رئيسها مرهونا ما دام وريثه موجودا، ولكنها تلتزم بعهودها إذا ما رهن الابن البكر، لأن ذلك قد يعرضها لصراع داخلي بعد موت زعيمها.

يقول أحد الرحالة أن "الأسرة الكردية تتقيّد تقيدا تاما بالتسلسل الرتبوي لأفرادها، ونشاهد أمامنا يوميا أمثلة غريبة على ذلك". ثم يضيف:" أمامنا حالة الحاج نجم الدين الذي يسرع إليه ابنه البكر خادما مطيعا عندما يكون بحاجة لجمرة نار يشعل بها غليونه، فيحمل له طلبه ويقدّمه له بكل احترام. وإذا كلف الابن البكر أخاه الأصغر منه بحاجة ما، فإن هذا الأخير يلبي طلبه بمثل الاحترام والطاعة اللتين يدين بهما لوالده وان كان الفرق في العمر بينهما لا يتجاوز السنتين. وهكذا يجري التسلسل بين الآخرين حسب نظام التسلسل التدريجي[١٥]".

ويقول رحالة آخر بصدد الموضوع نفسه: "لا يحق للفتيان الكرد، وان كانوا من أبناء الزعيم، الجلوس بحضور الكبار، بل يجب عليهم البقاء واقفين لخدمتهم وتقديم القهوة والغليون لهم. وإذا ما دخل أحد الفتيان الخيمة، فإنه يقبّل أيادي جميع الموجودين الذين يكبرونه سنّاً، وهؤلاء يقبّلون جبينه بالمقابل. أما إذا دخلها رجل أكبر سناً ممن هم فيها فرنه يكتفي بأن يصافح الزعيم، ويكتفي الآخرون بأن يرفعوا أيديهم إلى جبينهم دليلا على الاحترام".

(١٥) شوليه، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٠

ويرث الأولاد والدهم بعد موته. أما إذا لم يكن له أولاد، فإن الميراث ينتقل إلى أخيه أو أبناء أخيه. ويرث الذكر ضعف الأنثى. وإذا توفيت المرأة دون أولاد، قسّمت التركة مناصفة بين زوجها وأهلها، أي إخوانها وأخواتها وأولادهم. أما إذا كان للمرأة المتوفاة أولاد، فإن زوجها يرث الربع، ويرث الأولاد الباقي من التركة. وترث الزوجة الربع من تركة زوجها إذا لم يكن لهذا الأخير أولاد. وإذا كان للرجل زوجتان فإنهما تقتسمان هذا الربع. وإذا كان للرجل أولاد فان الزوجة لا ترث إلا الثمن، ويذهب الباقي من التركة إلى الأولاد. ويعيّن عند الاقتضاء على الأولاد الصغار، وليّا عليهم، أخوهم الأكبر أو عمهم ويسمّى (سروه كر).

ويتعلّق بالأسرة الكردية موضوع نسبها. وتتمسك الأسر القديمة بنسبها وتعلق أهمية كبيرة على عراقتها وتحافظ على تسلسل نسبها. وليس أحب إلى نفس الزعيم الكردي من أن تحدّثه بودّ عن أجداده. وقد تعرف أسماء عدد من أسلافه، فإذا به يشرع في تعداد بضعة أجيال أخرى ويحدثك عن بطولات أجداده في قتال الترك (الروم كما يسمّونهم) والفرس (العجم كما يسمونهم أيضا).

ولكي لا تكون في حيرة في المسائل الكردية، يفضّل أن تكون على علم ببعض الأنساب التي ذكر مؤلف كتاب (شرفنامه) أمثلة فيها (في الصفحة ٣٢٣ منه ورد ذكر سلسلة بلغت الجد الخامس عشر)[١٦]. ويقول مينورسكي أنه "كان من دواعي سروري أن تعرفت على حمدي بك بابان الذي كرّس سنوات عديدة من حياته للبحث عن جذور نسب أسرته في المراجع التاريخية العربية والتركية والفارسية التي أتت على ذكر بعض أفرادها. وأنيّ مازلت أحتفظ بشجرة أسرته كوثيقة جد ثمينة لفهم العقلية الكردية. إن هذا الإحساس القوي بالروابط العائلية والتفاخر بالأسرة ليس مقتصرا على النبلاء من الكرد وحدهم، بل إن كل كردي يعلم تماما إلى أي أسرة ينتمي ويعرف تسلسل هذه الأسرة. وكثيرا ما نجد في كردستان أشخاصا أميّين يحفظون عن ظهر قلب أسماء أجداد لهم يمتد تاريخهم إلى خمسة عشر جيلاً مضت على الكثير من تفرعاتها". إن لمعرفة هذه الأنساب أهمية كبيرة بالنسبة للعشائر وتاريخها.

سابعاً- الطقوس العائلية:

نتطرق الآن إلى آخر فقرة من هذا الفصل، وهي تتعلق بالطقوس العائلية وتبيّن مختلف مراحل الحياة الكردية[١٧]. وتأتي الولادة في المقدمة، لذلك نبدأ دراستنا بها.

(١٦) طبعة القاهرة.

(١٧) اننا نستعين بدراسة (جورسين) الخاصة بالكرد في جمهورية أذربيجان السوفياتية (دورية المعهد القفقاسي للتاريخ وعلم الآثار، الجزء الثالث ١٩٢٥، تفليس)، بالاضافة إلى ملاحظاتنا الشخصية.

(أ) الولادة

تتم عملية الولادة، عادة، على الأرض، فوق قطعة من الحصير، ويغادر رب الأسرة البيت ولا يعود إليه بعد الوضع بيوم أو يومين. ويساعد المرأة في ولادتها نساء لهنّ خبرة، وتتقاضى هؤلاء أجرة مناسبة عن أتعابهن. وقبل عملية الولادة يطلب من (الملا) كتابة حجاب (دوعا) للمرأة ليتم الوضع بسلامة ويسر، كما يكتب بعد الوضع حجابا آخر لحفظ الأم ووليدها من كل شر، ويكافأ الملا على ذلك حسب الإمكانيات المتاحة ببقرة أو نعجة.

وإذا ما تعثرت الولادة تأخذ النسوة يشد أذنيّ المرأة وهنّ ينادين بإسمها ويصرخن في أذنيها ويتوسلن إليها أن تستعيد رشدها، ويقلن لها مثلاً إن أخاها أو أحد الضيوف قد وصل. وإذا ما أغمي عليها، تطلق عيارات نارية حتى تعود إلى وعيها، ويذهب بعضهم أحيانا إلى الساقية (ويقطع) الماء بخنجر، وهو رمز سحري للدلالة على قطع القيود التي تكبّل المرأة. وحسب المعتقدات الكردية الشعبية، يهاجم المرأة، وهي في المخاض، مخلوق خاص يدعى (هال) وهو عبارة عن امرأة طويلة القامة، نحيلة، مخيفة لها ثديان طويلان تحملهما على كتفيها، وهي تنتزع قلب المرأة عند ولادتها وتأخذه إلى الساقية لتغسله في الماء. وإذا ما تيسّر لها الوقت لفعل ذلك ماتت المرأة. ولكي يطردوا هذه الساحرة، يأخذون في إطلاق النار حول المرأة أثناء المخاض. والقصد من (قطع) ماء الساقية بالخنجر تحرير قلب المرأة ومنع الساحرة من غسله[١٨].

وإذا مات الطفل أثناء الوضع، يلجأ الأهل مرة أخرى إلى الملا. ويفسر الملا سبب وفاة الطفل في الغالب بدخول إحدى النساء الشريرات المنزل وهي تحمل حجابا سيئا. وإذا ما كافأوه بمبلغ جيد، فإنه يكتب لهم حجابا من شأنه أن يطرد الشر بعد تلك الحادثة عن سائر الأولاد الموجودين في البيت. وللحفاظ على المولود الجديد من تأثير الحجاب السيئ، لا يسمح للنساء اللواتي يشك في أنهن يحملن أحجبة سيئة بالدخول إلى المنزل أو حتى إلى باحته. وإذا ما أصيب الطفل بالخوف من شئ ما، يطفئ أهله جمرة مشتعلة في كأس ماء ويسقون الطفل من هذا الماء ليشربه.

وتختار الأم اسما لمولودها بعد أن تستشير النساء اللواتي ساعدنها أثناء الوضع. وتعكس هذه العادة نظام سيادة الأم الذي كان سائدا في قديم الزمان لدى بعض الشعوب، إذ كان الأولاد ينسبون إلى أمهاتهم. وأحيانا يطمع الملا في الحصول على مكافأة أكبر فيدّعي أن له الحق في اختيار الاسم للطفل فيستشير كتبه التي يستعين بها لكتابة أحجبته، ثم يخبر أهل الطفل بأنهم إذا ما أطلقوا عليه اسما غير الذي ينتقيه هو فإنه سيلقي حتفه، فيسارع الوالدان المذعوران إلى إغداق الهدايا عليه ويأخذان بنصيحته.

(١٨) هال أو آل، معروف أيضا في أساطير القشقائيين وهم عشيرة كبيرة في منطقة فارس بإيران.

وتتم عملية الختان عندما يصبح بإمكان الأهل تقديم وجبة طعام لائقة للجيران. ويحاول الوالدان أن ينتقيا لطفلهما إشبينا من عائلة غنية وذات نفوذ، ثم يوجه الوالد الدعوة، ويعتبر رفض دعوة كهذه بمثابة إهانة كبيرة للداعي. ويحضر الإشبين معه خروفين أو أكثر. ويذبح والد الطفل مثل هذا القدر من الخرفان، وتقام وليمة يحضرها شخص واحد من كل أسرة في القرية. وبعد انتهاء الوليمة ينصرف الجميع باستثناء أقارب الطفل والابن، فتجري عملية الختان بحضورهم. ويجري العملية حلاّق المنطقة بواسطة موسى وقطعة من القصب المشقوق. وبعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام، يأتي الإشبين ليطمئن على صحة الطفل حاملا معه قدراً من الطعام ورغيف خبز كبير وحليباً وعسلاً وبيضاً. وعندما يعيد أهل الطفل القدر إلى دار الإشبين، يرفقون بها قطعة من (الجوخ) أو سجادة أو يرسلون له بقرة. ومهما يكن، فلا يصح إعادة القدر خالية لأن ذلك مما يجلب لهم العار.

ولكي يحافظ الأهل على أولادهم من "العين النجسة" و "الأرواح الشريرة"، فإنهم يحيطونهم بعدد من التعاويذ والحجب. ومن الشائع أيضا وضع قطعة من الخبز تحت سرير الطفل. وإذا أخرج أحدهم طفله ليلا إلى خارج المنزل، فإنه يضع في يده أو على صدره قطعة من الخبز، وذلك لأبعاد الأرواح الشريرة التي تطوف ليلا، وذلك لإعتقادهم أن الخبز من شأنه أن يرهب الشيطان. وقد رأيت طفلا يبلغ من العمر سنة كاملة من قرية (ملا أحمد لو) غطيّت ملابسه كلها بالتعاويذ والحجب، فقد كان على كتفه تعويذة مخيّطة في قطعة قماش أسود مربع الشكل، مع أصداف وجرائد زجاجية وقطعة معدنية صغيرة، وكان على ظهره تعويذة أخرى مثلّثة الشكل وخرائد مربوطة مع قطع من الأصواف الملونة. ورأيت طفلا آخر محمولا على كتف فتاة على جانبى ظهره خصلات صغيرة من صوف ملوّن أحمر وأصفر.

لقد وصفنا لحد الآن الطقوس الجارية والمتّبعة لدى الكرد شبه الرحّل في جمهورية آذربيجان السوفياتية. ويختلف الأمر بعض الشيء لدى الكرد في كردستان الوسطى حيث عشت بينهم فترة من الزمن ودرست عاداتهم وتقاليدهم.

عندما يقترب موعد وضع الحمل تتجمّع نسوة الجيران في منزل المرأة التي تكون في حالة المخاض، وكلما كانت أرفع منزلة ازدادت المساعدات التي تنهال عليها. وعلى كل حال يكون من الضروري إحضار القابلة (دابيرك) لأنها هي التي تقوم بالعمل الأساسي، بينما تلبث سائر النسوة خلفها أو حواليها لمد يد العون إليها. ويطلق في منطقة موكريان على المرأة التي أمام الحامل وهي في حالة الوضع (بيشوه) أي الأمامية وعلى التي تكون خلفها (بشتوه) أي الخلفية. وفي معظم الحالات تتم عملية الولادة وقوفاً، ويعلق أحيانا حبل في السقف لتتمسك به المرأة خلال عملية الولادة. وبعد أن يبدأ الطفل بالظهور تعطى المرأة قنينة أو أي إناء آخر له عنق طويل لتنفخ فيه فتسهّل عملية خروج المشيمة (هاول بجوك) أو (آوال عند الموكريين)، ثم تقطع القابلة (دابيرك) حبل السرة وتلقيه بعيدا،

وتترقب العيون المكان الذي سيقع فيه. فإذا سقط على سلاح ما فهذا يعني أن الطفل سيكون محاربا شجاعا، أما إذا وقع على قدر طعام فهذا يعني أنه سيكون أكولا.. الخ. ويحتفظ بالطفل ستة أيام في لفافات ويوضع فوق غربال (بيزنك). وخلال هذه الفترة لا يحّق للقابلة (دابيرك) وللنسوة اللاتي شهدن معها عملية الولادة، مغادرة المنزل ولاسيما في الليل أو أن يحملن معهن الأغطية والأدوات التي إستعملنها خلال الولادة. وإذا ما تغيّبت هؤلاء النسوة في النهار اضطرارا، فعليهن العودة إلى المنزل عند حلول الليل. وإذا لم يفعلن ذلك فسيكون هناك خطر كبير من أن تتمكن الروح الشريرة (ششه) أو (شوه – المترجم)، وهو اسم مشتق من كلمة (شه ش) أي ستة، من قتل المولود أو أمه. وللسبب نفسه تشعل النار أو تبقى الأنوار مضاءة طوال الليل، ويتناوب أهل الدار حراستها لمنع الأرواح الشريرة من دخولها. وهناك عرف آخر يقضي بأن تعلّق في داخل المنزل الذي تمت فيه الولادة قطعة من ثوب أحد الشيوخ الثلاث (شيخ جمال سوره يى، وشيخ فرخي بيروجي، وشيخ بابا بابيكي) المشهورين بقدرتهم على إلقاء القبض على الروح الشريرة (ششه) وأخذهم تعهداً منها بعدم المساس بأطفالهم بسوء. ويطلق على فترة الأربعين يوما التي تلي الولادة اسم فترة النفاس (زيستاني) وهي فترة استراحة الأم التي تتلقى خلالها الهدايا التي تتكون بوجه عام من قطع الحلوى المصنوعة من الزبدة والجوز. كما أن الملا يكتب للمولود الجديد تعويذة خاصة تسمى (نوشته) أي المكتوبة، تُخاط داخل قطعة من القماش في صورة مثلّث يوضع مقابل المولود الجديد.

(ب) الزواج:

ننتقل بعد الولادة إلى طقوس الزواج، وميدان بحثنا مايزال كرد آذربيجان السوفياتية. لقد كان سن الزواج للفتيان قبل تحديدها في القانون السوفياتي، الخامسة عشرة. أما بالنسبة للفتيات فكانت تتراوح بين التاسعة والعاشرة. ويتم الزواج في معظم الأحيان بين فتيان العشيرة وفتياتها، أما من يتزوج من فتاة غريبة عن عشيرته، فقد كان يعاقب بالقول: لماذا لم تخطب بنت عمك وخطبت أجنبية؟ الأفضل للمرء أن يتزوج من واحدة من أقربائه لا من غريبة[١٩]. وكانت هناك تقاليد بالية تسمح بان تخطب الصغيرة وهي لما تزل في المهد. وتتم الخطبة بأن يعقد على رأسها بمنديل علقت عليه قطع من النقود. واعتباراً من مثل هذه الخطبة وإلى أن تبلغ الفتاة سن الزواج، على الخطيب أن يحمل كل عام بمناسبة عيد الأضحى خروفاً وقطعة قماش أو شيئا آخر إلى خطيبته. ولدى إبرام عقد الزواج يدفع العروس[٢٠] لوالد العروسة المهر (باشتيك) الذي يكون عادة مبلغا من المال يتراوح بين ثلاثين إلى خمسين روبلا وبقرة وبعض الأغنام.. الخ. وبالمقابل يقدّم والد العروسة لصهره جميع الأدوات اللازمة

(١٩) يمتنع أفراد عشيرة (بلباس) من تزويج بناتهم من أبناء عشيرة أخرى، ولهذا السبب فإن حوادث خطف الفتيات كثيرا ما تحدث بين بنات هذه العشيرة (واكنر،ج٢ ص ٢٢٩).

(٢٠) يلاحظ أن المفردات الخاصة بالزواج والولادة لدى كرد منطقة القفقاس مشتقة من اللغة التركية.

للمنزل الجديد بإسم التجهيز (جيازي). وقد جرت العادة أن تتألف مواد التجهيز هذه من فرش كبير وفراش كامل (وسادة محشوّة وغطاء) وفرش صغير و (كليم) وهو سجادة غير عريضة وقدر كبيرة من النحاس وأخرى أصغر وصينية.. الخ. كما يقدّم والد العروسة لابنته فرساً أو بقرة هدية. وبموجب الأعراف الكردية يعتبر هذا التجهيز الذي يقدمه والد العروسة، بالإضافة إلى الهدايا الأخرى الثروة الوحيدة التي تمتلكها المرأة المتزوجة. ويلاحظ أن مهر العروس يبلغ أحيانا لدى بعض العشائر الرحّل من الكرد أرقاما عالية جداً. وقد أعطيت فتاة من عشيرة (ميللى) كانت مشهورة بجمالها حوالي عشرين كيسا من الفضة، أي ما يعادل مائة جنيه إسترليني من الذهب أو ألفين وخمسمائة فرنك فرنسي [لايارد، المصدر السابق].

ويستلزم العرس نفقات باهظة من والدى العروس، لذلك يمدّ الأقارب لهم يد المساعدة، فهذا يقدم خروفا، وذاك بعض الحبوب، والآخر مقداراً من المال. وهناك عرف شائع آخر وهو أن يتعاهد اثنان على أن يساعد كل منهما الآخر عند زواجه. وبطبيعة الحال فإن هذا التعاهد لا يتم إلا بموافقة أبوي الطرفين، فيلتقي والد العروسة مع خال شاب مثلا راجيا منه الموافقة على دخول ابن أخته على تعاهد كهذا مع ابنه. والاستئذان من الخال في هذه الحالة من بقايا نظام سيادة الأم القديم. ويترتب على هذا التعاهد من قبل الشابين أن يساعد كل منهما الآخر عند زواجه بتقديم كل ما يلزم لوليمة العرس من خرفان أو بقرات.. الخ. كما يقوم مع أسرته بعد انتهاء العروس بزيارة العرس الجديد ويحمل له مختلف الهدايا والمنتجات. وبالمقابل يقوم عروس اليوم بالواجبات نفسها تجاه عروس الغد.

ويقوم الشاب الملتزم مع العروس الجديد كذلك بحراسة غرفة العروسين في ليلة الزفاف. فإذا لم تثبت عذرية العروسة، ذهب هذا لاستدعاء والدها لاعادتها إلى بيته. وفي حالة ثبوت عذريتها، تُستدعى والدتها ووالدة العروس لتطلعا على الإثباتات المادية لذلك. ونذكر بهذه المناسبة أن آراء جميع الرحالة الأجانب مجمعة على الإشادة بأخلاق المرأة الكردية. ومما يجدر ذكره أنه لا توجد في اللغة الكردية كلمة مرادفة لكلمة (البغاء). وأنا بدوري لا أجد في جميع حكاياتي عن الحياة الكردية أكثر من واقعة خيانة زوجية واحدة، إذ وقعت (بريزاد) الحسناء زوجة الأمير العجوز زين الدين أمير شمدينان في حب شاب اسمه (ايزو)، فما كان من زوجها الشيخ إلا أن قتل ايزو، وبدورها وضعت بريزاد السم لزوجها الأمير ثم تناولت السم بنفسها وماتت هي أيضا.

وقد جرت العادة بأن يقوم أصدقاء العروس بمواكبة موكب العروسة من بيت أهلها. ولكن أهلها يغلقون الباب في وجوههم، فيضطر صديق العروس لأن يدفع جزية لصديقات العروسة. ثم تبدأ عملية تزيين العروسة وترفض الماشطة أن تلبسها ثيابها إلا بعد أن يدفع لها صديق العروس مبلغا من المال. ثم يبدأ موكب العروسة وهي تمتطي صهوة حصان بالتحرك من منزل والديها إلى منزلها الجديد. ولدى الوصول، يهبّ الشباب كي يمنعوها من الدخول، فيدفع لهم صديق العروس مبلغا آخر من المال. ويتقدم

الموكب عازفو المزامير (زرناجي) والطبول. وتقضي التقاليد بأن يغطى وجه العروسة في هذه المرحلة بمنديل أحمر شفاف، وذلك أملاً في أن تكون طليعة أيامها العائلية حمراء أي سعيدة.

ولدى وصول موكب العروسة إلى دار العروس، يقف الجواد الذي تمتطيه العروسة في ساحة الدار ولا تنزل عنه العروسة حتى يقدّم لها والد العروس هدية وتكون في الغالب بقرة أو حصانا. عندئذ تترجّل العروسة وتقف عند عتبة الدار وتلقي امرأة من قريبات العروس قطعا من الخبز على شكل كعك على أقدام العروسة والعتبة،فتتقدم العروسة وهي تحيّي الجميع وتلتقط قطع الخبز، وتقبل عتبة الدار قبل ان تجتازها. وما أن تصبح في داخل المنزل حتى تأخذ النسوة من قريبات العروس بيديها ويطفن بها حول التنور أو الموقد المحفور وسط البيت، وهن يرددن على مسامعها: "لقد أخذناك من بيت أهلك، وعليك أن تخدمي هذا المنزل حتى آخر لحظة من حياتك".

ثم تجلس العروسة في مكان أعدّ لها من قبل في زاوية المنزل ويكون مغلّفا بقماش أحمر، وتحيط بها فتيات من أقاربها وأقارب زوجها، وتلبث العروسة متّكئة على المساند في وضعها هذا طيلة احتفالات العرس التي تستمر يومين أو ثلاثة أيام. ولا يحق لأحد في هذه الأثناء أن يراها سوى أقارب زوجها باستثناء حميها (والد العروس) الذي لا يتمكن من رؤيتها إلا بعد أن يقدم لها هدية أخرى تكون خروفا أو نعجة أو إناء فضيّا.

ولإخراج العروس من زاويتها المغطّاة بحجاب أحمر بعد انتهاء الاحتفالات، ينبغي القيام ببعض الشكليات. منها أنه يدعو والد العروس أهله وأهل العروسة إلى وليمة يقف أثناءها والد العروس أو أحد أقاربه ويعلن أنه يجب إخراج العروسة من زاويتها، ولا يتم ذلك إلا بتقديم الهدايا لها. وعند ذلك يأخذ كل واحد من الحاضرين بتقديم هدية تتناسب مع وضعه المادي، وتتقدم إحدى النساء الحاضرات وتحمل جميع الهدايا إلى العروسة في زاويتها، وترفع هذه الحجاب عن وجهها لتخرج وتتقدم وتقبّل يد الجميع، وينفحها كل واحد من الحضور بدوره ببعض المال. واعتبارا من هذه اللحظة يحق للعروسة أن تتجوّل في البيت على أن يبقى المنديل الأحمر على وجهها.

وبعد مضي أسبوع تقريبا من خروج العروسة من زاويتها، يدعوها والدها مع زوجها وصديقاتها وأهل زوجها إلى وليمة صغيرة تجمع حوالي عشرين شخصا. وتمكث العروسة لدى أهلها يومين أو ثلاثة أيام، وقبل أن تغادرهم وتعود إلى منزل زوجها، يمنحها والدها هدية، ويدعى هذا التقليد "افتتاح الطريق إلى بيت الوالد".

ويأخذ الأقارب بدعوة العروسة إلى ولائم متتابعة، ويقدّمون لها الهدايا، ولكي تتمكّن فيما بعد من التردد على منازلهم. فإذا حدث ولم يفعل أحدهم ذلك، فلن تقبل فيما بعد مهما كانت الظروف على زيارة منزله. وهكذا نرى أن حياة العروسة ليست صعبة في بيت زوجها، بل بالعكس فإن اهل العروس يحرصون في الأيام الأولى على أن يمحضوها كل عناية، كما أنهم يقدمون لها الغذاء الجيد لتصبح

أكثر قوة ونشاطا ولا تشعر بالكآبة وهي بعيدة عن منزل والديها. وتستمر هذه المعاملة الخاصة تجاهها حتى تلد طفلها الأول. ولئن كانت المرأة الكردية تعتبر قبل ولادة طفلها البكر بمثابة ضيفة، فإنها تغدو بعد ذلك فرداً من أهل البيت وتعامل على قدم المساواة مع جميع نساء البيت، ويكون من واجبات العروسة الجديدة أن تغسل أقدام جميع من يكبرونها سناً في البيت وحتى أقدام الضيوف.

والمرأة الكردية، شأنها شأن نساء كثير من الشعوب، لا تنادي زوجها وأعضاء الأسرة الذين يكبرونها سنّاً بأسمائهم، فهي عندما تخاطب زوجها تقول: "ايه" أو "أتو" أي أنت، وتنادي والدة زوجها "خالة" ووالد زوجها "عمي" وشقيق زوجها البكر "برا" أي "يا أخ". أما صغار الأسرة فتناديهم بأسمائهم، والزوج لا ينادي زوجته باسمها بل يقول لها "كجي" أي "يافتاة".

ورغم أن بنية الأسرة الكردية قائمة حاليا على نظام سيادة الأب، إلا أن بعض العادات التي تعتبر من بقايا نظام سيادة الأم ماتزال باقية فيها. من ذلك أن الأم هي التي تختار الاسم لطفلها بالاتفاق مع النساء الموجودات في محل الولادة. إن الزواج محرّم بين العم وابنة أخيه وبين العمة وابن أخيها أو أخيها، إلا أن ابن العم يستطيع الزواج من بنت عمه، وكذا الأمر بين أولاد الخال. وأعظم قسم يؤديه المرء هو القسم بخاله، وكما بينا سابقا ينبغي التوجه إلى الخال لإبرام التعهد بين شابين يرومان الزواج في أن يساعد أحدهما الآخر. كما أن العادة الجارية بعودة العروسة بعد بضعة أيام من زواجها إلى بيت والدها ليومين أو ثلاث هي من بقايا نظام سيادة الأم الذي كان ساريا لدى الكرد في العهود القديمة.

ونختتم بحثنا عن الزواج لدى الكرد بفقرة وردت في كتاب الكاتب الكردي من قفقاسيا (عرب شمو) الذي يصف لنا الزواج بين الكرد في منطقته. وتدور القصة حول زواج (برو) -أي إبراهيم- بـ (ميانه). فقد كان برو شابا معدماً لم يكن له سوى أمه (بسي)، ولكن خاله مد له يد العون. وقد جرت مراسيم الزواج خفية لأن شابا آخر موسراً كان يرغب في الزواج من ميانه. وبموجب العرف الجاري قدمت بسي مع أخيها -خال برو- المهر إلى والد العروسة خفية. وبعد هذا الاتفاق كان لابد للعروس من ان يحمل الهدايا إلى أقارب العروسة ويكسب عطف قريباتها وتأييدهن ليس عن طريق هذه الهدايا حسب، بل وبلباقته وحضور ذهنه أيضا. ولما كانت بسي تقوم بدور الأب والأم معاً بالنسبة لابنها برو، فقد تربّعت على الأرض وقالت لابنها: "أنظر يابني! غدا ستكون لك زوجة، وهذا كل ما استطعت أن أحققه لك مما أوصاني به والدك. وها انك الآن غدوت سيد نفسك، فعليك أن تعرف كيف تدّبر أمور منزلك وتعتني بالخراف التي هي مصدر عيشنا الوحيد. لا تكن طائشا ولا متعجرفا. فإذا ما ذهبت إلى عشيرة ووجدت أن رجالها ينظرون بعين واحدة، فافعل مثلهم كي تستطيع العيش بينهم".

فأجاب برو والدته قائلا:

– "حسنا يا والدتي، سأتصرف كما تقولين". وعادت الأم تقول:

– "لنفكر الآن بمدعوينا. فهل أرسلت هدايا لكل واحد منهم؟"

ويقضي العرف بأن يبعث العروس إلى كل مدعو هدية هي عبارة عن منديل أو قطعة صابون. والذي يرغب في تلبية الدعوة يقبل الهدية، أما الذي لا يرغب في تلبيتها فعليه أن يرفض الهدية. وأجاب برو والدته:

– أجل، يا أماه! لقد بعثنا هدايا إلى الجميع.

– وهل الهدايا كافية؟

– أجل، لدينا الكفاية. فقد أعطاني خالي سبعة خراف، لأنه يعرف أننا لا نملك ما يكفي لجميع تكاليف الزواج. أجاب برو والدته.

وفي الصباح، غدا من المتعذر التعرف على القرية حيث كان برو يعيش، فقد وصل إليها عدد كبير من المدعوين. وكان الطبل والمزمار يبعثان صوتهما بعيدا في الوديان والجبال وكان أهل العروس وأقاربه قد حضروا جميعا، وكان الكرد بثيابهم المزركشة وعمائمهم اللامعة يلتقون هنا وهناك ويتجمّعون على الخضرة فرحين مسرورين، وكنت ترى النساء بوجوههن السمراء وأزيائهن الاحتفالية الملونة يبتسمن ويثرثرن، وكانت فاتنات الجبال المتزينات يضعن على رؤوسهن قلنسوات عالية موشحة بقطع النقود والمجوهرات. وكان يسود الطرف الآخر من القرية أيضا مزيد من النشاط، فقد تجمّع الفتيان مع خيولهم لمباريات الفروسية (جريت بازي)، وكان كل منهم يحاول ان يثبت أصالة فرسه ويتنافسون فيما بينهم حول من سيكون الفائز من بينهم، في حين كان البعض الآخر يؤكد على نباهة فرسه وأصالته.

وأخيرا بدأ السباق، وكانت مسافة الشوط حوالي عشر كيلو مترات. وعندما وصل الفرسان إلى الساحة التي ينطلق منها السباق، كانوا يقومون بمختلف الألعاب الجريئة على أصوات المزمار والطبل التي كانت تزيد من حماسهم، وبخاصة عندما بدأت تعزف الحان أغنية متى يأتي الفرسان! (كەی دی سواره یی؟).

بينما كان الجميع يتسلّون، كان برو "مستويا على عرشه" – كما يقول الكرد–، يحيط به الشباب من كل جانب وهم يغنّون ويقصّون له شعره ويتأهبون لإلباسه ثيابه. وحسب التقليد الكردي يقوم الحلاق بقص شعره على مراحل، فكل صديق للعروس يقترب من الحلاق وينفحه بمبلغ من المال وهو يتحثه على الإسراع في إكمال قص شعره. والمبالغ التي تجمع من قبل الحلاق تخصصّ للوليمة التي ستقام للشباب.

أما العروسة ميانه فكانت تجلس بين صاحباتها تحت الخباء وهن يبكين، كما تقضي به التقاليد

الكردية، بينما انصرفت أناملهن إلى تزيينها.

وأخذت إحدى الفتيات تترنّم بأغنية خاصة بمناسبات تزيين العرائس:

"أنا وأنت وحدنا غريبتان،

ولأننا نجلس خارج المنزل،

لا يعرف أحد بوجودنا

أواه! كم أنا غريبة، كما أنا تعيسة!

إني أشاهد دار والدك،

وأشاهد السطح العتيق الذي يغطّيه

لا تلطمي وجهك.. إن عروسك شاب

أنا وحدي غريبة هنا

وها أنا أذهب.. ولن أعود ثانية أبدا

إلى دار والدي

بدموعي التي أذرفها والوداع الذي أودع به هذه الدار،

ما من غريبة هنا سواي.

أنا أشبه منديلا قرمزي اللون

أبدو بين الغريبات مثاراً للاعجاب

فلتنزل اللعنة على الخبز الذي

كانت أمي تعطينيه.

لقد باعوني أنا التعيسة الحظ، لقاء مهر

إلى شيخ هرم..."

وعقب كل ترتيلة للأغنية كانت الفتيات يبكين، ولكن كل واحدة منهن تفكر في نفسها وتقول: "كم أنت سعيدة ومحظوظة. إن زوجك شاب ووسيم. أما نحن فلا نعرف لمن سنكون! ربما سنكون الزوجة الثالثة أو الرابعة لهرم شرس! عندئذ يعز علينا أن نغادر منازل آبائنا ونذرف الدموع بصدق وحقيقة، وليس لأن التقاليد تقضي بذلك كما هو الأمر الآن".

وقد ساد الهدوء قليلا حوالي الظهيرة، فأركبوا ميانه على ظهر جواد وهي في حراسة عدد من الفرسان، وقادوها إلى منزل برو. ولدى اقتراب الموكب من منزل العروس، أطلقت بعض العيارات

النارية، وكانت أم العروس وبيدها صحنان ترقص رقصة (كوجري). وعندما عبرت ميانه عتبة المنزل وضعوا تحت قدميها آنية من الفخار فكسرتها ثم دخلت المنزل. وبذلك انتهت المراسيم فانتهى الضجيج وعاد الجميع إلى بيوتهم وساد الهدوء المكان.

لقد مرت الآن سنة كاملة على زواج ميانه. لقد مرت ثلاث عشرة غرة هلال منذ أن وطأت قدماها منزل برو. ويجب أن ينقضي الوقت المحدد من قبل العرف الجاري حتى يحق لها أن ترفع عن وجهها الحجاب الذي عليه وتتحدث مع والدة زوجها".

أما بالنسبة لمراسيم الزواج في حوض بحيرة (ورمي/أورومیه) فقد سّجلت بشأنها الملاحظات التالية:

قبل إرسال المبعوثين لطلب يد الفتاة، يجمع أهل الفتى المعلومات للتأكد من عدم رفض طلبهم(٢١). إن التعارف يكون موجودا بين الفتى والفتاة بصورة اعتيادية ولكن ليس علنا. يحمل المبعوثون معهم هدية إلى الفتاة ويطلق عليها اسم (نيشانه)(٢٢) كما يتلقى الخال قطعة سلاح مهما كانت صغيرة، وتقدم لوالديها ملابس (خلاتي بوكي) أي هدية العروسة. كما يسلم إلى والديها كذلك مبلغ المهر المقدّم ويطلق عليه التسمية نفسها التي تطلق على مبلغ التعويض الذي يدفع في حالة خطف فتاة (قلم) أو (نقد). واستعمال التسمية نفسها في الحالتين يعكس أصل الزواج الذي كان يتم في ما مضى عن طريق خطف الفتاة.

وفي (شنو)، وهي قصبة كردية تقع في الجنوب الغربي من بحيرة (ورمي)، يجب على من يقوم بخطف فتاة أن يقدّم هدية إلى رئيس العشيرة، بينما يدفع والد الفتاة إلى السلطة رسما يطلق عليه اسم (دويتانه) أي (رسم المحبرة) والكلمة مشتقة من (دوت) وهي المحبرة. وهناك تقليد آخر في المنطقة نفسها يقضي بدفع مبلغ من المال للآغا لدى إبرام عقد الزواج. ويبدو أن هذا التقليد مستمد من العادات الفارسية، حيث تقضي بوجوب دفع الفلاح في حالة زواجه إتاوة إلى مالك الأرض. وبجانب هذا المبلغ من المال الذي يدفع لوالد الفتاة، يحدّد في عقد الزواج مبلغ آخر من المال يكون حقا مكتسبا للفتاة تسمى (ماردیی) أي المهر(٢٣) ويذكر هذا المبلغ بصورة نظرية.

(٢١) يعتبر طلب الفتاة أحيانا مهمّة صعبة. وقد حدث أن كان لطاهر آغا رئيس عشيرة (زيرزان) بنت في غاية الجمال تدعى (برينجانم) طلب يدها أبدال بيك أمير شمدينان، وكان رجلا موسرا، إلا أن طاهر آغا كان رجلا لا يطاق "ولا يتميزكما يقال بين اللبن الأبيض والسائل الأسود". واستقبل مبعوثي الأمير بصورة سيئة وأعادهم إلى سيدهم خجلين لأنهم لم يحققوا المهمة التي عهدها إليهم. فبعث أبدال بيك يهوديا إسمه موشى إلى طاهر آغا، فقام بمهمتّه خير قيام.

(٢٢) أي علامة تحديد الفتاة لتكون خطيبة للفتى – المترجم.

(٢٣) والمهر نوعان: معجل ومؤجل – المترجم.

يبدأ العرس بحفلة تستمر ثلاثة أيام في منزل العروس (زاوا) وهي تشتمل على الأغاني والرقصات (الدبكات) وتمارين الفروسية. وإذا كان الزوج موسراً، أزدحم الناس الذين يأتون في الغالب من أماكن بعيدة، ويكون ذلك فرصة مناسبة للكرد ليبدوا في أجمل أزيائهم وأحسن أسلحتهم، ويقوموا بمختلف الاستعراضات على صهوات جيادهم ويجروا سباقات قتالية بأن ينقسم الفرسان إلى مجموعتين تصطفّان وجهاً لوجه وهم يتصايحون: (هوو.. هوو..) ويهاجم بعضهم البعض ويحاول كل واحد من الفئتين أن يقلب السرج من على ظهر حصان مقابله من الفئة الأخرى بواسطة عصا طويلة يستعان بها بدلاً من الأسلحة. ويتوجه كل هذا الحشد الصاخب بعد ثلاثة أيام إلى منزل العروسة (بوك) حيث يصاحبونها إلى منزل العروس. ثم يستمر الحفل لمدة ثلاثة أيام أو أربعة أيام أخرى. ويكمل (الملا) هذه الطقوس الخاصة بالزواج سواء قبل وصول العروسة أو في يوم وصولها إلى منزل العروس، ذلك أن حضور الطرفين ذوي العلاقة المباشرة ليس ضروريا، إذ يستطيع كل من العروس والعروسة أن يوكلا غيرها عنها لابرام العقد، طالما أن الفتاة ووالديها سبق لهم أن وافقوا على الزواج. ويقول الملا مخاطبا والد العروسة: "قل أننا زوّجنا وأعطينا بنتنا فلانة فلانا زوجة له لقاء مهر قدره كذا" ويجيب ممثل الزوج "انني موافق". وفي بعض المناطق يجلس البعض في ليلة الزفاف بالقرب من باب الغرفة التي يلتقي فيها العروسان منتظرين إطلاق الرصاص من قبل العروس حيث يبلغ الجميع بهذه الطريقة أنه اكمل مهمّته وأدّى واجبه. وهناك تقليد آخر أخذ يزول تدريجيا، يقضي بوضع قطعة من الخام الأبيض على فراش العروسين (بيسيار) وترسل هذه القطعة فيما بعد إلى والدي العروس ملطخة بقطرات من دم إزالة بكارة الفتاة، دليلا على عذرية بنتهما فيفرحان بذلك ويبتهجان، وبعد مضي فترة من الوقت يقيمان وليمة كبرى بالمناسبة، وبعدها تأخذ حياة الزوجين الجديدين مسارها الاعتيادي.

ج – المآتم:

وأخيراً ينتهي دوران الحياة بالموت. لذلك نتولّى الآن وصف الطقوس الجنائزية، يمدّد الميّت على فراشه ويدار وجهه صوب الجنوب(٢٤). وبمجرد أن يلفظ الشخص أنفاسه الأخيرة يبدأ البكاء والعويل، ثم يحمل الميّت إلى غرفة جانبية ويغسل ويلفّ في كفن من نسيج قطني ويوضع في فمه وأنفه وأذنيه قطن مندوف ملفوف بعيدان صغيرة. ويوضع القطن تحت إبطيه أيضا. وإذا لم يدفن الميّت في يوم وفاته، وضع على صدره قطعة حجر ومرآة موجهة نحو وجهه.

ولا يستخدم التابوت المصنوع في شكل صندوق، بل يحمل الميّت إلى المقبرة على تابوت مفتوح من الأعلى، مصنوع من الخشب. ويصطحب موكب الجنازة حشد من الأقارب والجيران بما فيهم النساء اللواتي يبكين ويلطمن صدورهن. ويؤتى أمام الجنازة أو خلفها بجواد الميت. وإذا كان المتوفى شابّا،

(٢٤) حيث القبلة – المترجم.

زيّن جواده بقطعة من القماش اللامع ويوضع عادة في رقبته شال احمر اللون ويعلق سيفه وخنجره على سرج الجواد. أما إذا كان شيخا، لفّ جواده بقماش أسود للدلالة على الحداد. وبعد الأنتهاء من مراسيم الدفن، يقاد الجواد إلى المنزل ويبقى لدى عائلة الميت، ولا يجوز إهداؤه أحدا ولكن يستمر في استخدامه. وإذا كان الميت رجلا غنيا أو رئيس عشيرة، جعل قبل النعش عدد من الحصن المسرجة وقد زينت وعلقت عليها الأسلحة.

ويصف لنا (ميلليكن) تشييع جنازة أحد الرؤساء كما يلي: "أن أحد التقاليد الكردية التي تشبه كثيرا نظائرها في اوروبا هو الطقس الجنائزي الذي يتم على شرف أحد المقاتلين أو لأحد الزعماء، فتوجّه الدعوة الخاصة بالمناسبة إلى جميع رؤساء العشائر الصديقة والذين يمتّون بصلة قرابة الدم للميّت. وفي الوقت المحدّد يتوجه الجميع إلى منزل الفقيد حيث يتحرك من هناك موكب الجنازة. ويفتتح عدد من الفرسان الموكب بعدد من الجولات التي يتبارى فيها الفرسان أمام الجنازة. وبينما يجري ذلك في مقدمة الموكب، يحمل النعش على أكتاف الأقرباء والأصدقاء. ويؤتى بعد النعش مباشرة بجواد الميت الذي يقاد ببطء وقد وضع على سرجه الخالي أسلحة الفقيد وملابسه القتالية. ويكون الموكب محاطاً بحشد هائل من الفرسان. أما النساء وأقرباء الميت وأصدقاؤه فإنهم يلبسون حجبا من السواد علامة للحداد. وعندما يحمل الميّت من المنزل، تبدأ النسوة بالبكاء والعويل بشدة ويشققن جيوبهن واكمامهن، وينشرن فوق رؤوسهن التراب والوحل دلالة على فجيعتهن.

وكما يلاحظ ميلليكن، إن هذه العادة غريبة عن الكرد، كما أنها مخالفة لمبادئ القرآن والآراء المقبولة لدى الشعوب الإسلامية الأخرى التي تعتقد أن الموت يرد جميع الناس إلى مستوى واحد حيث "لا يصح تفضيل سلطان على حمّال"(٢٥).

ولدى وصول الموكب إلى المقبرة، توضع الجنازة بجانب القبر، بعد أن ترفع وتنزل ثلاث مرات. وبعد أداء صلاة الجنازة من قبل الملا، توضع الجنازة داخل القبر وتغطّى الحفرة الداخلية للقبر بقطع من الحجر العريض المسطّح ويمدّد تحتها الميّت بسهولة ويسر، وتوضع فوق هذه القطع الحجرية طبقة من الأوراق والحشائش يجعلها شبيهة بسقف المنزل الكردي. ويبدو أنهم يتصرفون كما لو كانوا يهيئون للميت

(٢٥) مهما كانت هذه التقاليد بعيدة عن تعاليم الدين الاسلامي الذي تدين به الغالبية الساحقة من الكرد، فانها كانت شائعة فيما مضى ويبدو أنها تعود في جذورها الأولى إلى العهود السحيقة في القدم، وماتزال بقية منها باقية لدى بعض القبائل، ويزخر الأدب الكردي القديم ببحث مآتم من هذا النوع أقيمت لشخصيات من القبائل الكردية ولاسيما أولئك الذين قضوا نحبهم اغتيالا أو في ميادين القتال. إلا أن هذه المآتم كانت تقام حصرا لرؤساء العشائر والشخصيات ذات المركز الاجتماعي الدنيوي المرموق. ويمكن القول أنها كانت موجودة أحيانا بالنسبة لبعض الشخصيات الدينية وان كانت بشكل آخر، حيث نرى على أضرحة بعض مشايخ الصوفية جببهم وعمائهم التي تبقى للتبرك بها من قبل الزائرين – المترجم.

سكنا تحت الأرض. ويغطى سقف القبر بالطين الذي يمنع من سقوط التراب الذي يهال على القبر على جسد الميّت. وإذا كان الميّت شيعيّاً، وضع فوق رأسه قرص من الخزف من تراب كربلاء، المدينة المقدّسة لدى الشيعة لتأكيد كونه مسلماً شيعيا(٢٦). ويغطىّ القبر بالتراب بحيث يسوى مع الأرض مرة ثانية، ثم يتلو الملا (التلقين) على الميّت ويعطيه نصائحه ويعود الحضور من المشيّعين قليلا إلى الوراء. وبعد أن ينتهي الملا من إلقاء موعظته، يقترب الحضور من القبر ويمسّون بأيديهم التراب الذي يغطّيه. وحسب الاعتقاد الشائع، إن المتوفى يستعيد وعيه في هذه اللحظات ويعلم من ذا أسهم في تشييع جنازته. ويوضع التابوت بعد إخراج الميت منه ووضعه في القبر، على القبر أو بجانبه، ويعد إرجاعه إلى المنزل ذنبا(٢٧). وبعد الانتهاء من هذه المراسيم يتلو الملا بعض الأدعية ويقول الحاضرون (آمين) ويبدأ الجميع بالعودة إلى المنزل.

وبعد غروب الشمس من يوم الوفاة، يضع رب المنزل فتيلا زيتيّا ويشعله في المكان الذي جرى فيه غسل المتوفى. ويجب أن يظل ذلك الفتيل مشتعلا حتى الصباح ليكون نوراً للميت داخل قبره، وبعكسه فإن ظلاما دامسا سيسوده. ويلاحظ ان الكرد يشعلون في أماسي الجمعة شمعة طويلة على قبر الشاب أو الشابة أو السيد، أي من يكون من عترة الرسول.

ولا تقدّم وجبه عشاء تذكارية في مساء يوم التشييع. وكذلك لا تجري عملية طبخ في منزل الميت، بل إن الجيران هم الذين يهيئون الوجبات لعائلة المتوفى. وتقدم الوجبة الأولى في ذكرى المتوفى في اليوم الثالث لوفاته، ويحضرها جميع أهل القرية حيث يمثل كل عائلة فرد منها، ويطلق على هذه الوجبة (سي روزانه) أي الثالثية. وبعد مضي سبعة أيام على الوفاة تقدّم الوجبة الثانية ويدعي إليها ما بين ٢٠ إلى ٤٠ شخصا. وبعد مرور أربعين يوما، تقدم وجبة الأربعينيّة. وأخيرا تأتي الذكرى السنوية الأولى للوفاة، فيقام احتفال يدعى إليه جميع أهل القرية. وكل هذه الولائم المتتالية تكلّف أهل الميت نفقات باهظة إذا لم يبادر الأقارب والأصدقاء إلى مد يد العون لهم. ويقدّم الأقارب الموسرون عادة لكل وجبة من هذه الوجبات، وكذلك الأصدقاء خرافا إلى العائلة المنكوبة بالوفاة. أما الجيران فإنهم يقدمون لهم المواد الأخرى كالزبدة والجبن والحبوب، وأحيانا مبالغ من النقود.

وإلى أن تنقضي سنة كاملة على الوفاة، تتقيّد عائلة الميّت بوجه عام بالحداد الذي يتمثل في

(٢٦) ومع ذلك فإن غالبية الكرد من السنة باستثناء الموجودين منهم في منطقة القفقاس [اكراد مناطق كرمنشاه وعيلام في إيران أغلبهم من الشيعة. ويوجد اكراد شيعة في محافظات كركوك وديالى وواسط في العراق واكراد يزديون في العراق وتركيا] – المترجم.

(٢٧) ليس الأمر على هذا النحو، فلو كان إعادة تابوت نقل الميت إلى القرية حراماً لوجب صنع تابوت لنقل كل ميّت. والواقع أن في كل قرية كردية تابوتا موقوفا على المسلمين لنقل الموتى إلى المقبرة، ويعاد إلى مسجد القرية أو أي مكان عام بعد نقل الميّت فيه إلى مثواه الأخير – المترجم.

الامتناع عن كل مظاهر اللهو والفرح وحتى الكلام عن مباهج الحياة. وهكذا وخلال سنة كاملة يستبعد من المنزل كل ما هو أحمر اللون، فلا يرتدي أحد ملابس حمراء قطنية أو صوفية، ولا يجوز حتى صبغ الشعر بالحناء (خنه)، وفضلا عن ذلك لا يصح لأحد من العائلة مضغ العلك ولا إعداد طبق الرز المحمّص (بريشكه). ويعد إعداد هذا الطبق عادة أسبوعية تقريبا لدى العوائل الكردية، ولكن عندما تحدث حادثة وفاة، تنقطع ليس فقط عائلة الميّت عن إعداده، بل حتى الأقارب المقرّبون إليه، وأحيانا الجيران القريبون من منزل المتوفى. وإذا أعد من قبل أحدهم، كان ذلك بصورة سرية حتى لا يعلم به أحد من عائلة المتوفى.

وعندما يقترب موعد العيد الكبير (الأضحى)، يحمل الجيران لربة بيت المتوفى الحناء ويحاولن اقناعها بصبغ شعرها بمناسبة هذا العيد الكبير. فإذا ما رضيت وصبغت شعرها، كان ذلك ختاما للحداد. ويستعيد أهل الفقيد حياتهم الاعتيادية. ويحتفظ عادة بالملابس الجديدة للميّت لحين مرور الذكرى السنوية الأولى لوفاته وبعد ذلك يهبونها الى سيّد أو ملا القرية حتى يترحّم على الفقيد.

ويوضع على قبر الميّت إما حجر بسيط أو نصب يتمثل في عمود صغير من الحجر نقش عليه اسم الميت وتاريخ وفاته. وأحيانا يرسم على النصب غليون إذا كان الميّت من المدخّنين. ويوضع هذا النصب على قبر الميّت بعد شهر أو شهرين من تاريخ الوفاة وأحيانا بعد سنة كاملة حسب إمكانيات أهل الميت. وفيما مضى كان النصب يعد على شكل خروف أو حصان. وقد شاهدنا نصبا بهذه الأشكال في القرى الكردية في قرى (بوزلو، داشلو، قره قشلاخ، وسيدلر)، وينقش على الجانب الأيمن من الحصان بصورة بارزة بعض المشاهد من الحياة الاعتيادية.

ويقوم بعض الموسرين لدى إعداد النصب بأعمال أخرى ذات منفعة عامة كإجراء ترميمات وتحسينات في عين الماء أو ببناء جسر أو بعض الأعمال الخيرية كمساعدة الفقراء وإعالة اليتامى أو تقديم قطعة من النسيج لأحد السادة.. الخ.

ولا يحق للأرملة أن تتزوج إلا بعد مرور سنة على وفاة زوجها. وفي كثير من الأحيان تتزوج من أخي زوجها المتوفى أو أحد أقاربه أو واحد من العائلة. ويعد بمثابة إهانة لعائلة الميت أن تتزوج الأرملة من شخص ينتسب لعائلة أخرى، وهذا مفهوم، ذلك أنها منحت مهرا في حينه لقاء زواجها. فإذا ما تزوجت من شخص غريب، فقدت العائلة المبالغ والمصاريف التي تكبدتها آنئذ.

وفيما يتعلق بالطقوس الجنائزية في كردستان الجنوبية ليس لديّ إلا القليل من المعلومات لأضيفها إلى المعلومات التي أسلفت ذكرها. فبعد غسل الميّت، تفرك الجثة بالأعشاب الزكية العطرة، ثم تلفّ في كفن أو عدة أكفان يصل عددها أحيانا إلى خمسة. والنعش الذي يوضع عليه الميّت يسمى (داربست). ويحفر القبر على قياس طول الميّت. ويوضع بجانب القبر طبق خاص يطلق عليه (كوركول) أي حفار القبر. وتكون الجوانب الداخلية من القبر مكسوة بالأحجار أو باللبن النيئ ويطلق

على السند من الحجر أو اللبن اسم (بيرازكه). وتمدّد الجثة في القبر على الجانب الأيمن مع توجيه الوجه باتجاه القبلة (الكعبة). ويغطّى القبر بالأحجار وبعدها بالطين. ويوضع شاهدان على القبر أحدهما من جانب الرأس والثاني من جانب القدم ويطلق على هذا الشاهد اسم (كيل). وبعد إكمال الدفن يبدأ الملا بقراءة التلقين بمثل الصيغة التالية: "يا فلان أو فلانة، ابن أو بنت فلان سيأتيك ملكان ويسألانك عن ربك ونبيّك ودينك وامامك وقبلتك وعن اخوانك وأخواتك، فقل لهما اللّه ربّي ومحمّد نبيّي والإسلام ديني والقرآن إمامي والكعبة قبلتي والمسلمون اخواني والمسلمات أخواتي". وبعد عدم تقدير الميّت وعدم إجراء المراسيم الجنائزية له ذنبا كبيرا لدى الكرد. لذلك فإنهم يحاولون خلال المعارك حمل جرحاهم وقتلاهم معهم بكل الوسائل الممكنة. وحسب مكانة الميّت وإمكانياته، تتلى الآيات القرآنية على ضريحه ثلاثة أيام بعد دفنه أو طيلة سنة كاملة، فإن ذلك يحميه من نار جهنم. وفي اليوم الثالث الذي يلي الموت والدفن، يهيأ خبز خاص يسمىّ (سيمني) أي الثالثي، يوزع على الجيران والمعوزين في ذكرى وفاته. ونادرا ما يدفن الميت في صندوق.

الفصل السادس

العشيرة الكردية

البيئة الاجتماعية: (الطبقات، مكانة الزعيم وصلاحياته، وسائل اللهو) والاقتصادية (الواردات، نظام الأوبا)

أولاً– صورة العشيرة:

عندما تتوسع أسرة ما وتخرج عن حدود القرابة الرحمية، لتشمل نطاقا أكثر سعة، فإنها تتحول بالطبع إلى عشيرة. إن الوشائج العاطفية والعادية التي توثق وتشدّ بين أفراد الأسرة الواحدة تضعف مع اتساع نطاق الأسرة لتحل محلّها روابط الطقوس والتقاليد والمصالح المشتركة. وهكذا ينشئ أفراد عديدون لعائلة واسعة تجمّعا يحمل اسم العشيرة. الم تكن العشائر الإسرائيلية في الأزمنة السحيقة في القدم عوائل كبيرة تحولت فيما بعد إلى عشائر وتطورت شيئا فشيئا لتصير شعبا؟ وفي أيامنا هذه لا نستطيع أن نحصل على صورة صحيحة لعشائر (قبائل) العصور الغابرة، إلا تلك التي نجدها اليوم في القبائل التي تعيش في البلاد العربية وفي بلاد ما بين النهرين وكردستان. فإذا ما نفذنا إلى داخل مساكنها ونظرنا إلى خيمها واقتربنا من رؤسائها، وجدنا في كل خطوة نخطوها وفي كل شئ نجده، انبعاثا للفترة التوراتية. فهذا الشيخ الجليل ذو اللحية البيضاء والنظرات الرصينة الذي يجلس تحت خيمته محاطا بأولاده وأقاربه وخدمه، يمكن أن نرى فيه صورة لإبراهيم ويعقوب أو أي من الآباء الأقدمين. وبالنساء الأربعة أو الخمسة اللائي نجد بعضهن واقفات وغيرهن جالسات في ركن من الخيمة، ألا يمثلن صورا حية لـ(ريبيكا) و(ساره) و(راشيل)[1] عندما كنّ يتجلين في أوائل أروع مراحل جمالهن.

لقد تكونت عشائر كردستان تركيا من أسرة أصلية هي أسرة الزعيم ومن مجموعة من الأسر التي تمت لها بصلة القرابة وعلى درجات متفاوتة. إن كل أسرة أو عائلة تكون (هامبا) أو خيمة واحدة، بحيث أننا إذا أردنا أن نحصي عشيرة ما، وجب علينا إحصاء عدد خيمها. فعندما يقال إن العشيرة الفلانية تعد ألف خيمة، فهذا يعني أنها تكون ألف منزل. ولكن يجب أن نلاحظ أن عشائر كردستان تتكون من عنصرين متميزين: أحدهما دائمي والآخر متأرجح. ويتألّف العنصر الدائمي من نواة

(١) ريبيكا زوجة اسحق ووالدة يعقوب، وسارة زوجة إبراهيم ووالدة اسحق، وراشيل زوجة يعقوب – المترجم.

العوامل التي تمّت بالقرابة إلى الزعيم، بينما يكون العنصر المتأرجح من مجموعة المغامرين والطلقاء الذين ينضمّون لهذه العشيرة تارة، وأخرى لعشيرة غيرها. لذلك يستحيل الحكم بدقة على القيمة العددية لعشيرة ما، مادامت هذه القيمة تخضع للتطورات والظروف. وعلى سبيل المثال، فإن عشيرة (ميلان) التي كانت تعد ١٦٠٠ خيمة عندما كان يرأسها عمر آغا، لم تلبث أن استحالت إلى ٥٠٠ خيمة فقط بعد سنتين، عندما حلّت بها الكوارث. وقد اضمحلّ الآخرون نتيجة الظروف السيئة التي ظهرت خلال تلك الفترة. والواقع أن زعيم العشيرة يعد أبا مستبداً لها وما من حدود لسلطاته، ويستطيع التصرّف كما يشاء بملكية أي واحد من أفرادها، وان بإمكانه أن يضرب من يشاء من أبناء عشيرته ويقتل أي شخص يرى من الضروري قتله. وتبرم وقت السلم معاهدة بين زعماء العشائر لتسليم المجرمين وتحول هذه المعاهدة دون فرار من يريد الفرار من سلطة الزعيم. ولا تقدم الحكومة (يقصد المؤلف الحكومة العثمانية – المترجم) على أي إجراء للحد من سلطة هؤلاء الزعماء، لأن السياسة المتّبعة من قبل الترك هي السماح لهم بأن يفعلوا ما يشاءون شريطة أن يظلّوا يدفعون الضرائب المطلوبة للخزينة[2].

وتنتقل زعامة العشيرة إلى أرشد الأولاد. فعندما يموت زعيم العشيرة، يتولّى أكبر شخص من بين أقرب الأقرباء المقرّبين من الزعيم، سلطات الزعامة، ويبايعه الجميع ويخضعون لسلطاته. وقد يحدث أن يغتصب أحدهم السلطة بالقوة، أو أن يبايعه الجميع دون أن يكون الوريث الشرعي، غير أن هذه الحالات تعتبر استثنائية ومن شأنها تغيير مجرى الأمور الاعتيادية داخل العشيرة.

وتبدو خيمة الرئيس أحسن مما سواها من الخيم، وتنصب في وسط مجموعات من الخيم أصغر منها. وتعقد في خيمته الاجتماعات العامة، كما يتوجه إليها جميع الغرباء ليجدوا الغذاء والمأوى. كما أنها تعتبر بمثابة المحكمة العليا التي تبُت في جميع قضايا أبناء العشيرة عدلاً كان أو ظلماً، حسب الظروف. وهي تعدّ كذلك مجلساً للنواب والشيوخ، وفيها تناقش الأحداث اليومية، وفيها أيضاً يستطيع كل فرد من العشيرة أن يواجه الزعيم، وبدوره يحادث هو الجميع ويمازحهم ويوبّخ من قد يحلّ غضبه عليه. وتكون مائدة الزعيم عامرة بما لذ وطاب من المأكولات، ويحق لكل شخص أن يجلس إليها ويأكل منها. وقد حدّثني بعض الكرد أن أكوام اللحم والرز والمأكولات الأخرى كانت تبلغ فوق مائدة علي آغا، رئيس عشيرة (حيدرانلي) ارتفاع الجبال، وكانت تلك المأكولات تنقل على صوان يحملها أربعة من الرجال. ولم تسنح لي الفرصة لرؤية هذا التبذير المفرط، لأن الرؤساء الذين التقيت بهم كانوا من الصغار فيما إذا قارناهم بهؤلاء السادة.

(٢) "كانت الغرامات والجزاءات المالية التي تستوفى ممن يرتكب ذنبا من أبناء العشائر الكردية، تصير ملكاً لرئيسها" (مانتران وسوفاجي، النظام المالي العثماني – باللغة الفرنسية، ١٩٥١، ص١٠٢.

ومع أن سلطة رئيس العشيرة مطلقة، إلا أن كبار المسنّين فيها يمارسون نوعا من حق الرقابة عليه، ولأصواتهم وزن لا يمكن تجاهله. إن مجلس "ذوي اللحى البيضاء" (ريش سبي) يعقد كل ليلة تقريبا في خيمة الزعيم لمعالجة القضايا التي تهمّ المصلحة العامة، بالإضافة إلى الأمور الأخرى التي يمكن أن تنشأ في الحياة اليومية للعشيرة(٣).

إن هذه الصورة الإجمالية التي عرضها لنا كاتب عاش بين الكرد فترة من الزمن، أدخلت القارئ في المحيط العشائري لهذا الشعب الذي سبق أن تطرقنا في الفصول السابقة إلى أسلوب عيشه وخصائصه الفردية والعائلية. صحيح أن ميللينكن كتب لنا هذه السطور عام ١٨٧٠، إلا أننا نميل كليا إلى الرأي الذي أبداه (ويكرام) ويقول فيه إن الكرد لم يتبدّلوا منذ الألف الأول قبل الميلاد وحتى عصرنا هذا. ومع ذلك نحن نعتقد أنه في الأماكن التي ماتزال العشيرة الكردية تحتفظ فيها بكياناتها، تكون أقرب إلى حد كبير إلى الوصف الذي وصفه لنا ميللينكن. وينبغي الآن دراسة الأسس التي لم يتمكن ميللينكن من التوغل فيها بعمق.

ولابد من القول أنه لم توضع حتى الآن - على ما نعلم - دراسة اجتماعية شاملة عن العشيرة الكردية، كما أنه لا يوجد بوجه عام إجماع في الرأي حول تكوين العشيرة(٤). إن رابطة الدم لا تعتبر ضرورية لوجودها، كما يذكر (لووي) في كتابه (المجتمع البدائي) [باللغة الانكليزية، لندن، ١٩٢١، ص ٣٧٦-٣٨٢]. وحتى في المستويات الثقافية المتدنيّة، يعتبر القرب الكافي أحد العناصر التي تحدد التضامن الاجتماعي، بصرف النظر عن صلة الدم. ويقول بتروشيفسكي في مؤلفه عن الإقطاع في أرمينيا وآذربيجان من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر [باللغة الروسية]: "إن العشائر الرحّل في هذه الفترة، بالأضافة إلى العشائر التركية والمغولية في الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، لم تكن تشكّل وحدات قائمة على صلة القربى بالدم ولا تعود إلى النسب نفسه، بل كانت عبارة عن تجمّعات مصطنعة تنتسب لمجموعات من الأسر القديمة يعود تاريخها إلى عهود ما قبل الإقطاع". ويتعذر في كثير من الأحوال تمييز العشيرة عن الفخذ، لأنه بالامكان أن يتوسع الفخذ ويتحول إلى عشيرة، بينما يمكن كذلك أن تتقلّص العشيرة وتتحول إلى مجرد فخذ (هوكارت، تطور

(٣) ميللينكن، المصدر المشار إليه آنفا، ص ٢٨٢-٢٨٦.

(٤) يقول روندو: "إن العشيرة الكردية تعتبر عالما خاصا منطويا على نفسه، انها منظمة دفاعية، مؤسسة تقليدية ومحافظة. إنها تجمع في مقارنتها بالمجموعات التي لا تتمتّع بالخصائص نفسها، ولهذا التجمع شعور بأفضلية على غيرها". اما المؤلف البريطاني الكابتن هاي فإنه يرى في العشيرة "تجمعا أو كونفدرالية من التجمعات غايتها حماية أعضائها من الاعتداء الخارجي والمحافظة على العادات الأصلية القديمة وطريقة العيش". أما السوسيولوجي كومبلوويج فقد تطرق في كتابه "صراع الأجناس" [باللغة الفرنسية، ص ١٩٣ وما بعدها] الى العشيرة تحت زاوية خاصة.

الانسان (باللغة الانكليزية - ١٩٣٧). وإذا لم يتحول المجتمع البدائي إلى عشيرة وظل يعيش كمجموعات عائلية، فلن ينشأ فيه أي (فخذ) بالمعنى الروماني للكلمة، ذلك أن هذه الكلمة مجردة وصعبة الإدراك بالصيغة التي فهمها القانون الروماني. وفضلا عن ذلك، فإن نظام روما القائم على نظام سيادة الأب البطرياركي الذي يعبّر عنه بـ(الفخذ)، لا تقوم صلة القرابة بين أفراده على رابطة الدم، بل على الاعتقاد بوجود سلف إلهي ممثلا بـ(طوطم). لذلك فإن الفخذ لا يحل محل العائلة التي تعتبر بمثابة الخلية الأساسية للمجتمع (لويى، مقدمة في الثقافة الانثروبولوجية - باللغة الانكليزية - لندن ١٩٣٤، الفصل الرابع عشر، الفخذ) ويقول سوسيولوجي آخر: "العشيرة وحدة سياسية. إنها تشبه الدولة أو الأمة في أيامنا هذه، إنها فرع أو فخذ، نصفها الذي يشكل وحدة اجتماعية يتكون من تفرعات عديدة كما هو الحال في الوحدة السياسية.. الفرع شكل من العائلة الواسعة". (كروبر، الانثروبولوجي - باللغة الانكليزية - ١٩٢٣). إن تضارب الآراء بين مختلف النظريات يؤكد تعقيد المسألة. ويتعين على الباحثين في المستقبل أن يحدّدوا ما إذا كانت العشيرة الكردية عبارة عن فخذ واسع نشأ من العائلة نفسها أو أنها وحدة سياسية من أصل مصطنع.

ثانياً- تركيب العشيرة وطبقاتها:

الملاحظات التي أبديناها كانت ضرورية لفهم تركيب العشيرة. وكان ميللينكن على حق عندما اعتبر العشيرة بمثابة عائلة توسع نطاقها، رغم أنه يجب أن نبحث في كل حالة على حدة عن النواة العائلية البدائية وعن العناصر الغريبة التي تجمعت حولها. ويعد ذلك بالنسبة لباحث في تاريخ علم الاجتماع دراسة أصيلة لو كرس جهده لإعدادها. وفضلا عن ذلك فان هذا المبدأ القائم على صلة القربى ليس ثابتا دائما بالنسبة لوحدة كبيرة، بل على العكس يسهم أحيانا في تقسيم العشيرة نفسها وتجزئتها إلى تفرعات عديدة. ونجد أمثلة عديدة لذلك فيما لو تفحصنا التاريخ الكردي. والمثال الساطع أمامنا هو عشيرة (هركي). فحسب الروايات التي دونتها لديّ، كان جد العوائل الحاكمة لهذه العشيرة شخصا يدعى (أبا بكر) اشتهر ببسالته، حتى أنه لم يكن ليخشى منازلة عشرين مقاتلا في آن واحد. وكان بين هذا الفارس والأمير زين الدين أمير (شمدينان) عداوة، فكان يسطو على رجال الأمير وأتباعه. وقد بلغت جرأته ذات مرة حداً كبيراً عندما قتل وشتّت وحده عشرين شخصا من أتباع الأمير الذين نصبوا كمينا له للإيقاع به، فأخذ أسلحتهم وأمتعتهم وحمّلها على بغلين يكونان كل ثروته ومضى مباشرة نحو خيمة الأمير زين الدين، فلجأ الأمير إلى الحيلة وخبّأ عن أبي بكر حقيقة نواياه ورحّب به قائلا: "حللت ضيفا على العين" - وهو تعبير كردي للترحيب بالضيف - ثم قال له:" إن رجالي أضعف من النساء، وأنت رجل شجاع وفقير، وأود أن يكون معي رجل مثلك رئيسا للخدم". وبات أبو بكر تلك الليلة لدى الأمير على أن يذهب في اليوم التالي ليحضر عائلته ويباشر

وظيفته الجديدة. وهكذا أزال الأمير حذره وعدم ثقته به، وسهّل لرجاله، عندما أغمض أبو بكر عينيه مطمئنّا، أن يتقدموا منه ويقيّدوه. وفي اليوم الثاني جاءوا به وفكوا وثاقه ليعدموه، فتمكّن بسرعة من اختطاف خنجر أحد رجال الأمير وطعنه به طعنة كانت من القوة بحيث نفذ النصل من بطنه وظهره إلى شجرة، وحاول أبو بكر أن يستل الخنجر، إلا أن مقبضه وحده طاوعه، فبات أعزل واضطر للاستسلام. وقد طلب قبل اعدامه أن يدلي بوصيته الأخيرة لأولاده وسمحوا له بذلك، فقال: "أولاً – لا تركبوا نصلا في مقبض خنجر دون أن تسمروه تماما. ثانياً – ليتزوج كل واحد منكم أربع نساء لتكثرو دراريكم وتتمكنوا من الأخذ بثأري. ثالثاً – لا تصغوا أبدا إلى الأقوال المعسولة التي تصدر من (بكزادة شمدينان). أي العائلة الحاكمة هناك. وكان لأبي بكر أربعة أولاد هم (مندو) و (سيدو) و (سيرهات) و (مام شير)، والثلاثة الأول هم الذين تكون من كل واحد منهم فرع من فروع هذه العشيرة وتسمى بإسمه على النحو الآتي: (مندان) الذي يزيد عدد أفراده عن سائر الفروع و (سيدان) الذي يعتبر أكثر الفروع شجاعة و (سرهاتي). وهذا مثال لتكون العشيرة الكردية عن طريق تكاثر العائلة الواحدة. غير أنه لا يصح إطلاقا وضع تصميم عام لجميع العشائر، فهناك عاملان يؤثران دوما في مصير العشيرة: أولهما النمو والاندماج وكلاهما يؤديان إلى تكوين عشيرة حول عنصر بارز هو (الزعيم الشجاع والبارع)، وثانيهما التفسّخ والتشتّت نتيجة ظروف سيئة مثل فقدان الزعيم أو الوباء أو المجاعة، وهذه تؤدي إلى انحلال العشيرة.

وكما لاحظ ميللينكن بحق، طالما أن العشيرة مزدهرة، فإنها تنمو وتتكاثر، وبالعكس عندما تسوء الظروف والأحوال فإنها تأخذ بالتقلّص ويمكن أن تفنى أيضا. واننا نجد الدليل على صحة ما ذهب إليه ميللينكن عندما نقارن قوائم العشائر القائمة في العهود المختلفة، إذ تبقى أسماء عدد من العشائر الكبيرة خلال الحقب الطويلة، أما الأسماء الأخرى التي تشكل الأغلبية، فإنها لا تتكرر وتظهر بدلا منها أسماء أخرى جديدة. لقد تكونت العشائر الجديدة على أنقاض العشائر القديمة التي سارت إلى زوال، فهناك عوامل متأرجحة أشار إليها ميللينكن توضح لنا سير هذه التحولات[٥].

وبالإضافة إلى هذه العوامل المتأرجحة، ينبغي أن نميّز في نطاق بعض العشائر وجود طبقات اجتماعية مختلفة. لقد أجمع جميع المؤلفين عن الكرد على وجود طبقتين لديهم: طبقة النبلاء من المحاربين وملاكي الأرض مع خدمهم المسلّحين، وطبقة الفلاحين القريبين من أشباه العبيد. ويطلق على

(٥) يقول روندو في مؤلفه المشار إليه آنفا (العشائر الجبلية) باللغة الفرنسية، ص ٤ و ٥: من السهل قبول أجانب في العشيرة ومن الممكن أن يحتل هؤلاء المناصب الرفيعة فيها، ويؤمن الكرد بجدارة العناصر الأجنبية، وإذا قبلت عشيرة كردية عناصر أجنبية في صفوفها فلأنها واثقة من قوتها الذاتية ولأن العشيرة تشكل قوام حياتها الاجتماعية وهي ترغب في تنظيمها كليا، وعلى سبيل المثال فإن الإحساس بالانتماء العشيري أقوى لدى الكرد من الإحساس بالانتماءالديني. (راجع الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب).

هؤلاء إما اسم (رعيت) أي الفلاح، وهو تعبير مستعمل بوجه عام في الشرق الاسلامي، أو اسم (كوران) – وينبغي لهذه التسمية أن تجلب انتباهنا. وهؤلاء الـ(كوران) يختلفون عن سائر الكرد بتكوينهم الجسمي وبلغتهم التي تنتمي أيضا للمجموعة الإيرانية. إن هذا التقسيم للوسط الكردي يحمل على الاعتقاد بأن الكرد قوم فاتحون، وأن الـ(كوران) هم السكان الأصليون للبلاد. وقد نادى بهذا الرأي بعض المختصين، بينما ذهب البعض الآخر – دون أن يحدد لنا مفهوم التعبير الأخير – إلى أن لكلمة (كوران) معنيين، معنى واسعاً يراد به طبقة اجتماعية داخل العشائر الكردية، ومعنى أضيق وتقصد به عشيرة محددة بالذات.

وفيما يلي بعض الملاحظات التي أوردها عدد من الرحالة في هذا السياق: يقول (واكنر) وهو أحد الرحالة الألمان في مؤلفه الذي نشره عام ١٨٥٢: "يُقسم الكرد إلى فئتين، فئة المحاربين الذين لا يملكون إلا قطعان المواشي ويمارسون أحيانا أعمال الغزو، وفئة الفلاحين الذين يطلق عليهم اسم (كوران). ويضيف أيضا أنه "لا يجوز للفئة الثانية أن تتخذ لنفسها صفة النبلاء الكرد لأنها تختلف عنهم في تقاسيم وجوه أفرادها وفي لهجتها". "ربما كانت فئة الفلاحين تنحدر من الميديين، وهم السكان الأصليون الذين غزا الآخرون بلادهم". "توجد لدى عشيرة (بلباس) في جنوبي بحيرة ورمي، كما في جميع أرجاء كردستان تقريبا، طبقة فلاحية يستخف بها ولا تنتمي لأية عشيرة. ويبدو أنها تنحدر من أسلافها السكان الأصليين، كما هو الحال في شهرزور. ويطلق الـ(بلباس) على هذه الفئة الاسم الفارسي (كلاوسبي)[٦] أي أصحاب الطاقيات البيض". وحسب ما يقول (ريج): إن الكوران يختلفون عن طبقة المحاربين في سيماء وجوههم وفي لهجتهم، فلوجوههم ملامح أكثر نعومة وخطوط أكثر انتظاما، حتى ليخيّل إلى الناظر إلى جانب وجوههم أنهم من اليونان، ويلاحظ ريج أن وضع هؤلاء الفلاحين بائس جدا، حتى أنه يضاهي وضع فقراء الهند الغربية. وكتب سيلفيستر دى ساسي في نقده لكتاب ريج في مجلة (دورية العلماء، عام ١٨٣٧) مفترضا أن المحاربين يمثلون العنصر المنتصر، وأن الفلاحين هم بقايا السكان الأصليين، ولكن العالم الروسي (مار) كتب في تعليقه على كلمة (جلبي) [باللغة الروسية، ص ١٣٧] إن كلمة (كوران) ليست إلا صيغة متحولة من كلمة (كورد). إن مقطع (ك) تحول إلى (ك) في بداية الكلمة، وهو أمر مألوف في الفونوتيك الكردي. ومن بين المؤلفين الأرمن الذين ذكرهم (مار)، (ميراكوريان) (عام ١٨٨٥)، الذي يقسّم الكرد إلى طبقة الرحّل التي يحكمها رؤساء (تورون) أي الذين ينحدرون من النبلاء ويعيشون على تربية المواشي، وطبقة أخرى هي اهل الحضر. اما سرفاندز تيانتس (عام ١٨٧٦) فيلاحظ ان لدى الكرد فئات ثلاث هي (١) النبلاء (تورون)، (٢) القطعات المسلّحة للرئيس، (٣) وأخيرا العمال

(٦) (كلاوسبي) ليس اسماً فارسيا وإنما هو صفة وموصوف كرديّان – المترجم.

(الرعية). ويميز (أركيلان) (عام ١٨٩٨) بين أربع فئات: (١) العوام (رعيت) وهم العمال، (٢) خدم الزعيم المسلّحون، (٣) الزعماء (الآغا) وهم فئة محاربة، (٤) رجال الدين.

وبصدد مصطلح (غلام) أو (خولام) أو (هولام)، ينبغي التنبيه إلى أنه يعني حالة قريبة من الرق، أو أن حالة الغلمته كانت تحوي على الأقل بعض التحديدات لحريتهم. وفي الحقيقة بين أيدينا وثيقة تعطي هذه الفرضية بعض القوة، وهي عريضة قدمتها (الرعية) والرحّل الكرد التابعون لخوانين من (نخجوان) إلى (كريم خان زند) عام ١٧٦٨، والتمسوا فيها من وكيل الرعايا (أي من كريم خان زند) أن يمنع سادتهم (البكزاده) من جعلهم غلمانا، أي من وضعهم في حالة شبيهة بالخدم العبيد. وقد كتبوا في عريضتهم "الغلام هو من اكتسب هذه الصفة إما عن طرق الأب، أو أنه ابتاعه مالكه بالمال، أو كان غريبا، اما فلاحوا (رعايا) نخجوان وعشائرها الرحّل، فلا يجوز تحويلهم من الآن فصاعدا إلى (غلمان)[٧].

وقد أشار مينورسكي أيضا (عام ١٩١٤) إلى وجود طبقتين بين الكرد: النبلاء مع خدمهم المسلّحين، والفلاحين أو الزرّاع أنصاف الرقيق. وأشار أيضا إلى ان صعوبة الأوضاع الاجتماعية للفئة الثانية قد تخف نتيجة لشعور الانتماء مع الآغا للعشيرة نفسها أو أحد أفخاذها، هذا الانتماء الذي يتخذ أحيانا سمة بطرياركية بالغة الشدة. ويلاحظ مينورسكي على سبيل المثال أنه خلال احتلال العثمانيين للمنطقة المتنازع عليها مع الفرس بين أعوام ١٩٠٤-١٩١٠، حاول الترك تحسين حالة (الرعية) من الفلاحين وتقييد سلطة الآغوات عليهم، ومع ذلك كان الفلاحون يشتكون أحيانا ويقولون فيما بينهم "لم يبق لنا آغوات".

ويوافق مينورسكي كذلك على الرأي القائل أن الآغوات من الفاتحين و (الرعية) من عرق آخر. ومع ذلك لا يصح الخلط بين الفئتين. فقد تبين لنا أكثر من مرة وتحقق لنا تاريخيا مثلا في (قطور) و (سوماتي)... الخ، حيث يعيش ابناء عشيرة شكاك، أن هؤلاء أتوا متأخرين وسيطروا على السكان الأصليين في المنطقة.

ويقول راولينسون: تنحدر عشيرة الكوران من الكلهور، وكرد (الباجلان)، وقد نقلهم السلطان مراد الرابع وأجبرهم على ترك منطقة (زهاو) الغربية حوالي العام ١٦٣٩. ولكن هذا الرأي لا ينسجم مع الاختلاف الموجود بين اللهجة التي يتكلم بها الكوران وتلك التي يتكلم بها الكلهور.

وقد تعمّق مينورسكي في شرح مسألة (كوران) بالاستناد إلى اسمهم الذي يعود إلى الفي سنة وإلى أصلهم، وقدم لاثبات وجهة نظره مراجع أدبية ونصوصا كورانية. إن هذا الاسم، بالمعنى الضيّق

(٧) ن.بوكدا نوفا، المقال المشار إليه آنفا، ص ١٤٢.

للكلمة، يعني العشيرة الرئيسية التي تعيش في المنطقة الواقعة شمالي الطريق العام الذي يربط كرمنشاه ببغداد حتى نهر سيروان (ديالى) شمالا، ومن هناك إلى البلاد المرتفعة (هورامان). وتوجد مجاميع أخرى محدودة وصغيرة من اللهجة الكورانية التي يتكلم بها عدا الكوران أنفسهم (الزازا - الديملي) في منطقة (درسيم). إن اسم (كوران) يعود في اشتقاقه إلى الكلمة القديمة (كا [ف] باره [ك])، وينبغي البحث عن موطنهم الأصلي في الولايات القريبة من بحيرة خزر، حيث نعرف مملكة كانت تحمل الاسم نفسه حوالي سنة ٦٤٥- ٦٦٠[٨].

ويمكننا أن نستنتج على وجه التأكيد من جميع هذه الاستشهادات أن المجتمع الكردي غير موحّد من الناحية الاجتماعية، وأن وجود الطبقات أو الفئات فيه ليس موضع شك أبدا. وقد يختلط الأمر على القارئ ويتساءل عما إذا لم يتشابه الموضوع على المحققين في البحوث التي أشير إليها قبل الآن لدى تصنيف العشائر فيما بينها إلى حضرية ومترحلة مقيمة في الخيام أو نصف مقيمة، وبين اختلاف الحالة داخل كل عشيرة بحد ذاتها، والحالتان مختلفتان تماما. ويبدو هذا الاختلاف وجيها في الظاهر، إلا أنه ينبغي ان نأخذ بالحسبان من جهة اخرى ان هناك عشائر عديدة (على سبيل المثال [هركي] التي أتينا على ذكرها مرارا وتكرارا، والأرتوشي والسورجي وميلان) تنقسم إلى قسمين أساسيين، الرحل والمستقرة، وهذان القسمان يعتبران بمثابة طبقتين هما طبقة المقاتلين المتمثلين بالرحل ومربي المواشي، وطبقة المزارعين الذين بقوا متعلّقين إلى حد ما بالأرض. ويسمح لنا هذا القول بافتراض أن العشائر الحالية المستقرة كانت في الأصل مرتبطة بعشائر رحل كانت تمثل في الواقع جزءا من العشيرة، ولكنها انفصمت بمرور الزمن وأخذ كل فرع يعيش حياة منفصلة عن الفرع الآخر.

إن هذا الافتراض قريب من الصحة بحيث ان الرحل المقاتلين الذين لم يكونوا يعيشون إلا من منتجات مواشيهم، كانوا أقل قدرة في عيشهم من المستقرّين منهم الذين كانوا يملكون مصادر للعيش أكثر ضمانا. إن توافر ظروف سيئة كان يعمل بصورة أسهل على اختفاء عشيرة رحالة مما يعمل على اختفاء عشيرة مستقرة. وحينما كان هناك فرعان لعشيرة واحدة، كان الفرع المستقر منهما هو الذي كان يشكل في الأصل جزءاً أو طبقة منها، يبقى ويحيا.

وكما بيّنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، الاتجاه العام السائد هو الابتعاد عن الترحل والانتقال إلى مرحلة الاستقرار والتحضر، بعد المرور بالرحلة الوسيطى أي شبه الرحل. وبناء على هذا، لا يكون الخلط بين العشيرة والطبقة الاجتماعية إلا شيئا ظاهريا فقط.

(٨) مينورسكي، الكوران، مجلة (B.S.O.A.S)، المجلّد التاسع عشر، القسم الأول، ١٩٤٣ (باللغة الروسية).

إن انتقال كرد أرمينيا إلى مرحلة الاستقرار منذ اختفاء الأرمن قد أشار إليه (كليرجه، ص٩٤-٩٥). وقد درس (روندو) أيضا (ص٤٠-٤١) هذه الظاهرة بالنسبة إلى سوريا حيث تحول الكرد إلى عمال فصليين. وقد شجّعت الحكومة مسألة ارتباطهم بالأرض الذي هو في مصلحة ملاك الأراضي الزراعية. وقد انتقد سابقا (السير مارك سايكس) هذه السياسة التي طبقت في جنوبي أرضروم. ووصف المارشال (دي مولتكه) في كتابه (الأرض والناس الكرد) [باللغة الألمانية] محاولة (استيطان قديمة أريد فرضها حتى بالقوة عام ١٨٣٨) بأنها بقيت دونما فائدة.

ثالثاً- صفة الزعيم ومهامه:

بعد تحديدنا للمركز الاجتماعي للعشيرة الكردية، ننتقل الآن إلى دراسة مراتب بنيتها وخصائص رئيسها ووظائفه. إن طرق اكتساب السلطة من قبل رئيس العشيرة تختلف باختلاف الظروف، إلا أنه يمكن ردّها لأسباب محددة منها على وجه الخصوص عن طريق الوراثة، أو الانتخابات من قبل العشيرة، أو نصبه من قبل السلطات. وجميع هذه الأسباب لا جدال فيها ولا تلعب دورا إلا في جو تسوده القوة والبطش، كما نحاول البرهنة على هذا المدعى بإيراد أمثلة حية بشأنه. غير أن لمبدأ الوراثة قوة العادة وقوة التقاليد التي تعتمد على تعلق أفراد العشيرة بزعيمهم الوارث لهذا المنصب. ويروي لنا مؤلف (شرفنامه) مثلا له دلالة كبرى بشأن أمراء (بدليس). فقد حدث أن شاه إيران استولى على ديار هذه الأسرة النبيلة وشتّت أفرادها شذرمذر، وسطا على كل ما كانت تملك، فعاشوا منفيين في مدينة (قم) بعيدين عن موطنهم كردستان ولم يبق منهم مع الزمن سوى شابين صغيرين. إلا أن ذلك لم يحل دون أن يبذل أحد خدم الأسرة جهودا جبارة لإعادة الأميرين المعزولين إلى سلطان أسرتهما السابق بالاعتماد على معاونة عشيرة أسياده. وأخيرا وبعد اخفاقات عديدة لم تفت من عزم الخادم، تمكّن في النهاية من أن يجعل مبدأ الوراثة ينتصر في (بدليس) بعد مرور مدة طويلة، فيعود أحد الأميرين ليحتل منصب آبائه. يحدّثنا الكتاب نفسه (أي شرفنامه) عن حادثة انتخاب أحد الزعماء. فقد حدث أن انقرضت أسرة زعامة عشيرة (روزهكي)، فتشاور شيوخ العشيرة فيما بينهم واتفقوا على أن يحملوا إلى الزعامة أميرين من الأسرة المالكة، وأعلن كبار العشيرة وصغارها موافقتهم الإجماعية على هذا الرأي، وذهبوا إلى الأميرين ودعوا كليهما إلى تسلّم زمام الزعامة على فرعي العشيرة والخضوع لسلطتيهما (شرفنامه ص ٤٦٨-٤٦٩). ونجد في المصدر نفسه صوراً طبق الأصل لوثائق وفرامين للحكومتين العثمانية والإيرانية تعترف بالزعامة على عدد من العشائر الكردية لزعمائها الذين كانوا ينتسبون للعوائل الكردية النبيلة (شرفنامه، ص٥٣١-٥٥١ و ٥٦٣-٥٨١).

ان جميع الأمثلة التي أوردناها تتعلق بأسرة مؤلف كتاب (شرفنامه) الأمير شرفخان البدليسي، وقد وقعت في مختلف مراحل حياته. إلا أن الأمور كانت تجري على ما يرام في أجزاء أخرى من

كردستان العثمانية وكردستان الإيرانية، بالنسبة للأسر النبيلة فيهما. كما أن كتاب (شرفنامه) الذي يعد بالنسبة لنا أفضل مرجع لحياة الشعب الكردي خلال القرن السادس عشر، مليء بتفاصيل دقيقة عن المنازعات الداخلية بين العشيرة الواحدة، أو التنافس بين زعمائها الذين كانوا يحاولون الاستحواذ على السلطة كل لمصلحته الخاصة. وأحيانا كان الحظ يلعب الدور الرئيسي في إيصال أحد الزعماء إلى السلطة على العشيرة. ويروى أنه كان هناك ثلاثة أخوة يعيشون معا في مكان ما من كردستان، وكان الأخ الأكبر معروفاً بتعبّده وتقواه. وذات يوم كان الأخ الأصغر غائبا عن المنزل، فلما عاد وطلب حصته من الطعام، قال له الأخ الأوسط إنه انتظره طويلا، فلما يئس من عودته أكل حصته أيضا. فما كان من الأخ الأكبر إلا أن يدعو على أخيه الأوسط بالشر قائلا:" لتتفجر معدتك وتغدو مزقا"، وإذا بالدعاء بالشر يفعل فعله في الأخ النهم فيسقط ميتا في الحال. وبلغ الخبر أسماع العشيرة، فأجمعت على تسليم التقي سلطات زعامتها(٩).

ولأن هذا المؤلف القيّم قد ترجم إلى اللغة الفرنسية، فقد اكتفينا بإيراد هذه الأمثلة عن كيفية اختيار زعيم العشيرة. وبإمكان القارئ الرجوع إلى الكتاب نفسه فيما إذا أراد الاطلاع على العديد من الأمثلة الأخرى الواردة فيه(١٠).

ويمكن تقسيم الطبقة الكردية النبيلة إلى خمس فئات هي:

١- طبقة (الملازاده) وهم أحفاد (الملا) أو علماء الدين الذين اشتهروا بواسع علمهم وسلوكهم المثالي، ومنهم الحيدريون في أربيل وهم أحفاد الملا حيدر، وخيلاني زاده في رواندوز وهم من أحفاد الملا عمر أفندي الذي كان ينتسب لعشيرة خيلاني. والملا الذي لا يتصف بهذه الصفات يطلق عليه نصف ملا (نيوه مەلا).

٢- طبقة شيخزاده، وهم أحفاد شيوخ الطرق الصوفية من رجال الدين الذين سنتكلم عنهم فيما بعد.

٣- طبقة بكزاده، وهم أفراد الأسر العريقة من أمراء وباشوات كأمراء بوتان وأمراء رواندوز وسردار موكري (بابا مير) وباشوات بابان في السليمانية.. الخ.

---

(٩) شرفنامه، ص ٣٣٠ - ٣٣١. ويقول روندو، المرجع السابق، ص ١٥ - ١٦: إن سلطة زعيم العشيرة قابلة للمحاجة فيما عدا أوقات الأزمات والقتال. أحيانا يكون الفشل الواحد الذي يصيبه كافياً لاجباره على التنحي عن السلطة، ولكن المثال لا يجوز القياس عليه لأن الأمر يختلف من وقت لآخر ومن عشيرة لأخرى. ويقول (ليسكو ص ١٦٣"): [إن السلطة القضائية لا تمنح لدى الازديين للزعيم، بل لقاض خاص. إن مبدأ الوراثة في الزعامة ليس مما يجمع عليه الكرد. ولدى الكرد مثل دارج يقول: "بفضل الموت يصير الأحمق زعيما". ويذكر كمثال على الانتخابات بالصدفة ما هو شائع في الفولكور الكردي "من ذا الذي حط الطائر على رأسه، فصار زعيماً؟!.

(١٠) شرفنامه، المترجم عن الفارسية من قبل ب.شارموا، سانت بطرسبورك ١٨٧٣.

٤- طبقة آغا زاده وهم رؤساء العشائر الذين يأتون في الدرجة الثانية من الأهمية.

٥- وأخيرا (زيوه دار) وهم أفراد الأسر المقدّسة.

لنأخذ الآن، على سبيل المثال، منطقة صغيرة من اواسط كردستان هي منطقة شمدينان التي تعتبر مجهولة نسبيا والتي استطعنا دراستها، لنر كيف يسير النظام الذي سبق لنا عرضه.

توجد في هذه المنطقة القصية أولاً أسرة من الـ (بكزاده) يحملون اسم (بكزادهي عباسي)، يزعمون، وفقا لمدلول اسمهم أن نسبهم يعود إلى سلالة العباسيين. وكان مؤسس هذه الأسرة أميراً يدعى (شمس الدين)، وهو الذي أطلق اسمه على المنطقة كلّها (شمدينان). وكثيرا ما نلاحظ في تكوين الأسر الكردية العريقة، كما هو الحال بالنسبة للأمير شمس الدين أيضا، ادعاءات بكونها من أصول عربية. لقد كانت أسرة شمس الدين تترحل، وهي تمارس رعي المواشي، بين بغداد والموصل. وحدث أن نشب نزاع بينها وبين عشيرة (شمر) العربية القوية[١١]، فانهزمت أمامها واضطرت للجوء إلى الجبال الكردية في شمالي الموصل، واستقر مع أسرته في بادئ الأمر في قرية (ستوني) من قرى عشيرة (هركي) أي في القسم الشرقي من شمدينان، حيث يمر خط المواصلات من الموصل عبر آميدي (العمادية). وقد استطاع شمس الدين بفضل ذكائه وسمعته الطيبة أن يكسب ود واحترام عشيرة (هركي) وجوارها، ثم جاء ابنه ووريثه عز الدين الذي استطاع بسط نفوذه على مناطق واسعة: (مركور) و (تركور) و (كەردي) و (برادوست) و (دوسكان) و (نورامار) و (ريكان). واستمرت هذه الأسرة خلال ستة أو سبعة أجيال تعيش في قرية (ستوني)، ولكن خلال فترة زعامة ناصر الدين، نقل مقر إقامة الأسرة إلى قرية (بيتكار) التي تعد من قرى عشيرة (هركي) أيضا. ويحمل أحد جوامع (نهري) التي تعتبر حاليا مركزا لشمدينان اسم هذا الأمير. وبعد مرور ثلاثة أو أربعة أجيال، عندما كان الأمير زين الدين زعيما للاسرة، انتقل مركز الأسرة إلى قرية (هارونان) التي تقع في منطقة (هومارو) جنوبي شمدينان. وقد بنى هذا الأمير قلعة صغيرة منيعة ماتزال آثارها باقية إلى الآن. وكان لهذا الأمير ولدان: أحدهما الأمير عماد الدين الذي اختلف مع والده، فنزح إلى (ورمي) حيث منحته حكومة الأفشاريين (ورثة نادر شاه أفشار) مقاطعتي (برده سور) و (تركور). وما تزال آثار الحصن الذي بناه في المقاطعة الأولى باقية إلى الآن. اما الابن الثاني، فكان الأمير سيف الدين وقد خلف والده، وكان أول أمير في الأسرة يحمل أسم أمير (شمدينان) رسميا. وبعد بقاء الأسرة جيلين أو ثلاثة أجيال في قرية (هارونان)، تولّى الزعامة (بهرام بك) فانتقل بها إلى نهري[١٢] التي صارت

(١١) راجع: مولكته، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(١٢) يربط مينورسكي بين اسمي (نەهري) و (نەيري). ويستعمل هذا الأخير أحيانا لتحديد المملكة الخلدية في (أورارتو). ويطلق على بحيرتى (وان) و (أورومية) مصطلحا بحيرة (نيري) العليا والسفلى.

منذ ذلك الوقت مركزا لها. وقد بنت هذه الأسرة على أنقاض كنيسة قديمة على التل الأوسط لنهري حصنا منيعا أطلق عليه اسم (فلا). ولبث أمراء شمدينان يحكمون تلك المنطقة حتى جاء الشيخ عبيدالله في أواسط القرن التاسع عشر، فانتقل الحكم إلى اسرته، أسرة الشيوخ المعروفين باسم (سادات نهري) أي أسياد نهري، وهم من سلالة الرسول، ولم يكن هؤلاء الشيوخ في البداية سوى شيوخ دين في كردستان، ولكن ما لبث بعضهم أن استولوا على السلطة الزمنية. وسوف نتكلم في الفصل الخاص بالدين لدى الكرد عن مركز هذه الأسرة.

ويأتي بعد هاتين الأسرتين الرئيستين: (البكزاده العباسيين) و (سادات نهري)، عدد من الأسر النبيلة، منها (الآغوات) الذين يتزعمون عددا من عشائر المنطقة، وفي مقدمتها (آغوات زيرزان). ولعشيرة (زيرزان) فرعان، أحدهما في منطقة (شنو) بإيران والآخر في (شمدينان). ويدعي الجانبان ان أصولهما تعود إلى خالد بن الوليد (العربي هو الآخر)، الذي فتح بلاد ما بين النهرين وسوريا في القرن السابع الميلادي[١٣]. وقد كان الآغوات يتمتّعون بنفوذ واسع في المنطقة حتى مجيئ المشايخ الذين استطاعوا أن يفسدوا العلاقة بين هؤلاء وبين السلطات العثمانية. لذلك عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، فقد هؤلاء الآغوات مراكزهم وتشتّتوا في بقاع أخرى. ويأتي بعد آغوات (زيرزان) من حيث الأهمية الأسرة التي يطلق عليها طائفة (باشميرى). إن مصطلح (باشميرى) يعني في التدرج المرتبي، من يحل محل الأمير أو نائب الأمير. ولا يعرف أصل هذه الأسرة، ولكن المؤكد أنها ترجع في انتسابها لأحد رجال الدين (الملالي) وقد انحلّت هذه الأسرة ايضا.

كان هناك نزاع بين عدة أسر في عشيرة (كەردي) على إشغال منصب الزعامة. والأسر الرئيسة التي تحمل فضلا عن كونها الأسرة الرئيسة، لقب (الأمير) أيضا، ليست معروفة الأصل والنسب، بل إن صحة انتمائها محل خلاف. وفي الحقيقة ان نسب هذه الأسر يعاد أحيانا إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وإلى خالد بن الوليد أحيانا كما رأينا، وإلى رجل مسيحي كان يسكن في قرية (زيرينك) في أطراف بحيرة (وان) أحيانا أخرى كذلك، وأخيرا إلى رجل يزدي قدم من (سنجار). وعلى كل حال، فأيّاً كان جد هذه الأسرة، فإن أمراء (كەردي) احتفظوا بسلطتهم بين عشيرتهم منذ خمسة أو ستة قرون إلى الآن. وقد انقسمت الطائفة الأصلية لهذه العشيرة بمرور الزمان إلى فرعين، أحدهما يدعى (بكزادهي زيرين) أي أولاد البيكات الذهبيّون، والثاني (بكزادهي بن جيا) أي أولاد البيكات من سفوح الجبال. ومنذ حوالى قرن سيطر الفرع الأول وفقد الفرع الثاني أهميته. وإلى جانب هؤلاء الأمراء لعشيرة (كەردي) (باشمير) هناك سواهم أيضا وهم أسرة (قوج بيكان) أو (كوج بيكان). وتقع أحيانا نزاعات دموية بين الطائفتين [أي فرعي البكزاده من جهة، والباشمير من جهة اخرى -

(١٣) من المتفق عليه بين المؤرخين الاسلاميين الأوائل ان خالد بن الوليد لم يخلف ولدا ذكرا، كما لم تكن له علاقة بفتح بلاد ما بين النهرين - المترجم.

المترجم]، ذلك أن الباشميريين يدعون ان لهم أصلا ونسبا أكثر قدما.

في واحد من تفرعات عشيرة (كەردي) وهو الفرع الموسوم بـ (كەردي بروزه) توجد عائلة تدعى (مير لشكري) كان أفرادها دوماً على رأس فرع العشيرة هذا، ومع ذلك كانت لهم دائما كلمة مسموعة لدى الأمير الكبير أي زعيم العشيرة كلها. وبين العوائل الدينية في عشيرة (كەردي) توجد ثلاث عوائل تتمتع بشهرة خاصة هي طائفة الشيخ عيسى التي ظهر بين أبنائها علماء كثيرون، وطائفة الملا نبي من قرية (كليت) التي كانت معروفة خصوصا بسيطرتها على الجن، وطائفة الشيخ فرح. وفيما يتعلق بالجن يعتقد كرد شمدينان أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، كل قسم يرتبط بطائفة روحية، وينبغي لأتقاء شر هؤلاء أو إبطال سحرهم وطلاسمهم وغير ذلك مما يتعلق بهم، التوسل بتلك الطائفة المسؤولة عنهم. وهذه الطوائف الروحية التي يلجأ إليها لدفع الخطر، هي طائفة الشيخ جمال السوري وطائفة الملا نبي التي أتينا على ذكرها قبل قليل وطائفة الشيخ بايك البيراني من عشيرة شيروان.

وهناك نقطة أخرى لا ينبغي تجاهلها، هي أن بين الـ(بنەجى) أي القسم المقيم دائما في مكان معلوم، من عشيرة (كەردي)، كانت طائفة الملا الشبيهة سابقا بالآغوات أكثر نفوذا من سائر الطوائف، وهي الآن، بالرغم من فقرها، لها الأولوية على بقية الآغوات. ولا توجد بين عشيرة (كەردي) عائلة روحانية يشار إليها بالبنان. ولئن كان هناك ملالٍ فيما مضى، فإنهم الآن ذابوا بين جماهير الشعب.

رابعاً: أقاصيص عن العلاقات بين زعماء العشائر:

إن نظرة خاطفة على الأسر المتنفذة في شمدينان، إحدى زوايا كردستان المركزية الأشدّ إهمالا، تمكننا من ان نرى ثانية، كما من وراء عالم صغير، اللعبة العشيرية المعقّدة مع جميع هؤلاء الزعماء الدنيويين والدينيين، الزعماء الذين يطوون في اللحظات الأولى عندما يكون دوران أحداث الدهر وفق ما يبتغون، القوس الصعودي في أعمالهم. وفيما بعد إذ يصطدمون بطامحين أقوى منهم، ينحدرون نحو الهاوية فيبدأون بطي القوس النزولي ويضيعون بين الجمهور الزائل. عندما نعيد تاريخ كردستان كلّه إلى هذه القضايا الأوّلية، نصطدم بالعديد من النماذج المحلّية المماثلة.

وعلى كل حال، ومع هذا، فقد يحدث أحيانا أن شخصية ذات استعداد وحيوية تقف في الصف الأمامي للتاريخ الكردي. وقد تمتعت شمدينان أيضا لساعات قلائل [من عمر التاريخ – المترجم] من بركات ذيوع الصيت. كان ذلك في عهد الشيخ عبيدالله النهري عندما أقام في العام ١٨٨٢ نهضة شعبية كردية واستولى على المناطق المجاورة داخل الأراضي الإيرانية وسبّب متاعب للدولتين المجاورتين الإيرانية والعثمانية. ستكون لنا فرصة جديدة للحديث عن هذا الموضوع. اما الآن، وقبل ان نترك شمدينان، فنريد أن نسرد لكم أقاصيص عن هذه المنطقة.

كان اثنان من الزعماء الكرد هما أمير شمدينان بدر الدين وابراهيم بيك بهديناني، يطربان القرى الواقعة تحت سيطرة كل منهما. كان ابراهيم بيك يقول: (شوشه) و (شرمين) أحسن مكانين في العالم، وكان الأمير بدر الدين يرد عليه بالقول: (شوشه) و (سيان) و (أركن) لا تساوي كلّها زاوية واحدة من (أوليان). وأخيراً دعا الأمير بدر الدين ابراهيم بيك ليزوره في تموز. ولما جاء ابراهيم بيك إلى (أوليان) أمر الأمير بدر الدين ثلاثة من خدمه أن يأتي أحدهم ضيفه بالشعير، والثاني بالتوت، والثالث بالعنب، وفعل الخدم ما أمرهم به سيدهم. وحار ابراهيم بيك في تفسير ذلك، فأوضحه له الأمير بدر الدين بالقول أن مثل هذا لا يمكن حدوثه إلا في (أوليان). ففي أدنى أقسام القرية تذوب الثلوج مبكرا، وفي أقسام أخرى أعلى منها تبدأ بالذوبان في نهاية الربيع، وعلى قمم جبال (كوري مزكفتان) تحل بواكير العنب في منتصف الصيف. وهكذا نجد العنب في تموز في الأقسام السفلى من القرية، وفي مسافات أعلى منها يبدأ التوت بالنضوج شيئا فشيئا، وفي قمة الجبل يبدا نبات الحماض تظهر حدّته(١٤). وينبغي القول، بالمناسبة، إن أحسن أنواع التبوغ في تركيا، إنما يزرع في (أوليان).

وفي قصة (كويزه كلاوان) [شجرة الجوز ذات الطواقي] وهي شجرة كثيفة تقادم عليها السنون على الحدود بين عشيرتي (كەردي) و (شمدينان) في قرية (بنه ووك)، تتجلّى المنافسة بين الزعماء الكرد بصورة أشد خشونة. كان بين حسن بيك شمديناني وسليم بيك كەردي نزاع على قرى (روبان) و (بناوك) و (بسوسين) ولم يكونا يستطيعان الوصول إلى اتفاق فيما بينهما. كان البيك الشمديناني المستبد برأيه والراضي حد الإفراط عن نفسه، قد كتب، بالرغم من نصائح سكرتيره الذي كان يقول له من الأفضل أن يتّخذ نهجا أكثر مرونة في رسائله إلى منافسه، كتب رسالة إلى خصمه سليم بيك مفادها ما يلي: "سليموك! [مصغر سليم للتحقير]، يا آكل البلوط، لا تمدن يدك نحو قراى، وإلا دمرت (كەردي) من أدناها إلى أقصاها.. الخ". وقد أجاب سليم بيك عن راسالته هذه بما يلي: "الموت عزيزاً أشرف من الحياة بذلة. ومادام بين الكەرديين فتاة واحدة فإنّي لن أتخلى عن قراي.. الخ". وبعد ذلك هاجم ومعه ثلاثمائة من مقاتليه الشجعان قرية (بناوك) قبيل الفجر بنصف ساعة، وفتحوا النار وحمل هو بنفسه على الأعداء شاهرا خنجره في يده واضطرهم إلى أن يلوذوا بالفرار بسرعة وفي حالة مفجعة، حتى أن طواقي الرجال التي تعلقت بأغصان وفروع شجرة الجوز العريقة ظلت باقية حيث تعلّقت. وفي صباح اليوم التالي هاجم (أوليان) على رأس خمسمائة مقاتل التحقوا بمقاتلي اليوم السابق، فطردوا الأعداء من (أوليان) أيضا، وعاد حسن بيك مهزوما إلى نهري. وفيما بعد، عقد صلح بين الطرفين بعد وساطات بذلها الشيوخ والعلماء، وظلت (بيكوردي) في يد أمير (شمدينان)، اما قرى (روبان) و (بناوك) و (بسوسين) فقد أضيفت إلى أملاك (كردي). وأضاف من روى لي هذه

(١٤) الحماض: من النباتات البرية يظهر في أوائل الربيع، اسمه العلمي Rumex. – المترجم.

القصة، وقد كان من أبناء عشيرة (كردي)، "أن الرجل الواحد من كەردي" يساوي ستة من (شمدينان) ولم يحدث أن استطاع (شمدينان) أن يهزم (كردي) مرة واحدة، وأن شجرة الجوز القديمة التي أتينا على ذكرها في مقدمة القصة، إنما أخذت لقبها هذا من هذه الحادثة".

ولأجل أن ننتهي من هذه الصراعات المتواصلة التي كان يخوضها الزعماء الطامعون فيما بينهم، نذكر قصة كل من الأمير محمد والأمير يحيى. سبق أن رأينا قبل قليل أن العائلة الحاكمة في قبيلة (كردي) كانت تتفرع إلى فرعين: أسرة (زيرين) وأسرة (بن جيا). كان الأمير محمد ينتسب إلى الأسرة الأولى، بينما كان الأمير يحيى ينتسب للثانية، وكان المقر الرسمي لأمير (كردي) في قصر (زيرين)، حيث لم يكن يحق لغيره حق السكنى فيه. وعندما توفي والد الأمير محمد ميران بيك، كان ولده لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره. لذلك سكن الأمير يحيى قصر (زيرين) وصار نتيجة لذلك أميرا على (كردي). أما عائلة الأمير المتوفى فقد نقلت إلى (بسوسين).

وبعد بضعة أعوام ترعرع الأمير محمد وصاررجلا قويا وذكيا، وكان الجميع يدركون توفر جميع الصفات الحسنة فيه وأن من الصعب أن يجدوا لهم زعيما أفضل منه. وأحس الأمير يحيى بانتشار هذه الفكرة ورسوخها في نفوس أبناء العشيرة، فأخذ يفكر في خطة للتخلص من غريمه. وكان الأمير محمد يدرك ما يدور بخلد خصمه وكان يعتمد من جانبه على حراسه. فقرر الأمير يحيى أن يقيم وليمة كبرى يدعو إليها خلقا كثيرا من بينهم الأمير محمد، مبيتا القضاء عليه خلالها. فاستشار الأمير محمد أخوته الثلاثة، الأصغر منه سنا وهم كل من (جهانكير) و (زينل) و (حسن) وأخبرهم بالنوايا السيئة التي يضمرها الأمير يحيى، قائلا لهم: لا يمكننا رفض دعوته لأن ذلك يعتبر إهانة له. وإذا ما قبلنا دعوته كنا قد جازفنا بحياتنا، فما العمل؟ فأجابه اخوته: إنك أخونا الأكبر، وإننا سنعمل ما تراه صحيحا. فقرروا الذهاب جميعا لحضور الوليمة ومعهم خمسة من حراسهم الخاصين، وقالوا فيما بينهم إن الأمير يحيى لا يعلم أننا على علم بخطته التي يبيتها لنا، ولذلك فإنه يثق بنا، وسوف نستطيع بمشيئة الله القضاء عليه، ولكن يجب أن نكون حذرين في طريقنا إليه وعند وجودنا في منزله. وتشاوروا فيما بينهم حول المكان الذي يجلسون فيه على المائدة والمكان الذي يبيتون فيه ليلا عنده، واتفقوا على أن يكونوا معاً دوماً ولا ينفصل بعضهم عن بعض. وحضر الوليمة أيضا (شير آغا) من (باشمير) عشيرة (كردي)، فأخذ الأمير محمد جانبا وحذّره من النوايا السيئة للأمير يحيى قائلا له: لقد كنت صديقا لوالدك، ولا أريد أن يقع لك مكروه، وقررا التعاون معا.

استقبل الأمير يحيى الأمير محمد في بهو ديوانه وتناولا الطعام معا وتجاذبا أطراف الحديث. ثم قال الأمير يحيى للأمير محمد إن لديه كلاما خاصا معه، ولذلك يجب أن يترك الحضور القاعة باستثناء شير آغا. فرجا الأمير محمد الأمير يحيى أن يخبره بما يريد أن يقوله قبل أن يحّل الليل، لأنه يود المبيت لدى

شير آغا الذي يسكن قرية (شيبا تان) القريبة من هناك. وفهم الأمير يحيى أن الطريدة أحست بالشبكة المنصوبة لها، ولكنه لم يشك في الخطر المحدق به هو، فأذن لبقية المدعوين وخدمهم بأن يعودوا وبقى هو وحده مع الأمير محمد واخوته الثلاثة وشير آغا. عندئذ توجه للأمير محمد بالقول: إن أولاده غير جديرين بخلافته، لذلك قرر أن يختاره هو خلفا له. فأجابه الأمير محمد: وإذا كان الأمر كذلك وكنت قد اخترتني لأحل محلك، فلماذا تبقى أنت على قيد الحياة؟ قال ذلك وضربه ضربة قوية بخنجره في صدره وقتله في الحال.

وكانت البقية سهلة، واستطاع الأمير محمد واخوته وشير آغا مع خدمهم المسلّحين اعتقال خدم الأمير يحيى وأنصاره بسرعة. وهكذا عادت الزعامة على عشيرة (كەردي) إلى أسرة (زيرين)، وحكم الأمير محمد أكثر من ثلاثين عاما، وقد هلك الأمير محمد بدوره على يد يوسف بيك، أمير (برادوست)، ولكن لهذه الحادثة أيضا قصة.

خامساً- السلطة القضائية لزعيم العشيرة:

عندما يتسنّم أحد الآغوات الكرد سلطة الزعامة عن طريق الوراثة أو عن طريق الانتخاب من قبل العشيرة والأقارب أو بواسطة قوة الساعدين، كما سبق أن بيّنا ذلك، فإن الجميع يدينون له بالولاء متى ما ثبت مركزه، وتغدو سلطته نافذة وتمارس دونما اعتراض. إن معلوماتنا بشأن الأعراف الكردية وصلاحيات الزعماء القضائية داخل العشيرة ما تزال محدودة. ومن المؤكد أن هذه الصلاحيات القضائية قد تقطّعت ولم يبق منها الشيء الكثير منذ أن أخذت الدولتان العثمانية والإيرانية تثبتان وجودهما وتحّدان من تلك الصلاحيات. ومع ذلك فمن المعروف أنه منذ ربع قرن من الزمان [حاليا منذ ما يقارب ثلاثة أرباع القرن - المترجم]، كانت العقوبة الشديدة التي تفرض على المدان هي نهب أملاكه متى ما أقدم شخص على خطف فتاة أو امرأة متزوجة رغما عن إرادتها. وبالنسبة للجرائم الأخرى، كانت العقوبة حرق منزل المرتكب (مال سوتي) أو قطع كروم بستانه (رزبرين). ولكن العقوبة التي كان الكرد يخشونها أكثر من غيرها عقوبة الطرد من العشيرة (كريادر). ونرى ذلك طبيعيا بالنسبة لرجال لا يشعرون بقوتهم إلا بإنتمائهم لمجموعاتهم، بحيث أن الطرد يعتبر بمثابة تجريد لهم من جميع الحقوق التي يتمتعون بها. إن غريزة البقاء تمتزج بغريزة البقاء ضمن العشيرة. والمثال التالي يبين لنا مدى تعلّق الكردي بعشيرته: أبعدت السلطات العثمانية عددا من الكرد الأسرى إلى طرابلس في شمالي أفريقيا بعد أخمادها لإحدى ثوراتهم، وقد تمكن هؤلاء من الفرار من المنفى والعودة إلى جبالهم الواقعة على الحدود الإيرانية(١٥).

---

(١٥) يبدو أن المؤلف يقصد أبناء عشيرة (همونـد) القاطنة في محافظة كركوك بكردستان العراق، الذين أبعدت السلطات العثمانية أعدادا كثيرة منهم إلى ليبيا في القرن التاسع عشر، ولكنهم تمكنوا من >

وهناك عقوبات أخرى أخف وطأة من الطرد ونهب الممتلكات، يفرضها الزعيم على الذنوب الخفيفة. كأن يغرم الجاني عشرة إلى مئة ليرة عثمانية إذا اختطف بنتا بموافقتها. وإذا ما سرق أحدهم دابة، وجب عليه أن يعوّض بقيمتها وأن يدفع إضافة إلى ذلك أربع قطع نقدية لرئيس العشيرة التي ينتسب إليها. وكذا الأمر بالنسبة لسرقة الدواجن، رغم أن رئيس العشيرة لا يتسلم في هذه الحالة إلا قطعتين نقديتين. ويبدو أن عدد القطع النقدية ينبغي أن تكون بمقدار أرجل الدواجن المسروقة، وأن ما يدفع للمالك المتضرر يطلق عليه اسم (توله) أي (البدل العقابي)، ومبلغ الغرامة التي يجب دفعها للآغا يحمل اسم (كناه) أي (العقاب عن الجريمة) أو (كريتي) أي (عقاب الحماقة).

وعلى كل حال، تعتبر شخصية رئيس العشيرة الضمانة الكبرى لتحقيق العدالة بين أفرادها. يحكى أن (أبدال بيك)، أمير شمدينان كان يتمتع بشهرة واسعة في هذا المجال، فقد كان يزرع كل عام بستانه الواقع على منحدر جبل (شهيدان) بالقرب من مصائف الهركيين، دون أن يحيطه بأي سياج، وكان يقول إن سلطتي هي السياج الواقي للبستان. وخلال فترة حكمه لم يقدم أي شخص على سرقة مال غيره في منطقة نفوذه، وكأن الكرد قد تناسوا في أيامه أي رغبة لهم في السرقة ونهب أموال الغير. وهكذا لم تقع حادثة سرقة في تلك الديار إلى أن قام ذات يوم شخص يدعى يونس من قرية (كاري) بسرقة كبش ضخم من قطيع يعود للمسيحيين في قرية (كاتونه يوخاري) وذبحه، وذهبت جميع الجهود التي بذلت في البحث عن السارق هدراً، وانتهى الأمر بأن أخذ صاحب القطيع يعزو فقدان كبشه إلى أن ذئبا قد افترسه. ولكن نبأ وقوع هذه السرقة وصل أخير الياً مسامع الأمير أبدال بيك، فغضب غضبا شديدا وأمر بإحضار السارق مهما كلّف الأمر، فوجده رجاله وقدموه أمام محكمة العشيرة في (نهري). واقترحت عدة عقوبات بحقه، فمنهم من قال بحرق منزله، ومنهم من اقترح قطع يده أو بتر ساقه أو طرده خارج العشيرة. ولكن الأمير لم يوافق على أي من هذه الإجراءات التي اقترحوها وقال: لما كانت السرقة أمرا غير عادي تحت حكمي، فإني أريد عقابا غير عادي كذلك. ثم أمر بقطع خصيتي السارق يونس، ونفذ أمره فوراً. ولم تمض سنة واحدة حتى تساقطت شعرات رأس يونس وشواربه، وتغيرت ملامح وجهه كذلك، وغدا شبيها بامرأة عجوز. وتفهّم الناس الحكمة في القرار الذي أصدره الأمير بحقه، وصارت قصة يونس السارق والعقوبة التي فرضت عليه مثلا لا يمحوه التاريخ من ذاكرة الناس.

ويمكننا أن نذكر ضمن السياق نفسه إسم محمد باشا رواندوزي الذي لم يسمع طيلة فترة حكمه بحادث واحد للسرقة. لقد فقد أحد التجار خرجه مع نقوده ثم وجده بما فيه، دون أن يمسه أحد بسوء

< الهرب والعودة إلى وطنهم مشيا على الأقدام _ المترجم. راجع بهذا الصدد مؤلفنا بعنوان: منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعها القومي، الطبعة الثانية، لندن ١٩٩٩، ص ١٨ – المترجم.

نظراً للشهرة التي كان يتمتع بها الباشا. وقد أوردنا أمثلة أخرى على كيفية تحقيق العدالة بالصيغة التي يفهمها الكرد في الفصل الرابع من هذا الكتاب، لدى الكلام عن السلب والنهب. ونسجل هنا أيضا جانبا من محادثتنا مع ثريا بيك بدرخان يجدر ذكره في هذا المقام.

تجدرالإشارة إلى أن السرقة والنشل والاحتيال ومختلف ضروب الخديعة كانت غير معروفة في كردستان، ولم يحدث قط أن أعلن تاجر عن افلاسه، مصطنعاً كان ذلك أو حقيقياً.

يرتبط مفهوم قطع الطريق بين الكرد إرتباطا جد وثيق بمفهوم الفكرة القائلة "الحق لمن غلب". وإذا لجأ قاطع الطريق في سلب من أوقعه الأقدار في شباكه إلى استعمال أساليب المكر والحيلة، فقد ماء وجهه بين الناس ونظروا إليه بازدراء وتحقير. وعلى قاطع الطريق أن يعتمد في عمله على قوته وجرأته وأن يعرّض حياته للخطر على طريق عمله. فإذا ما تصرف ضمن هذا السياق، قيل عن المال الذي يسلبه ويستولي عليه من غيره أنه استحصل بطريقة شريفة، وعلى القوي حماية الأضعف منه. وقاطع الطريق الذي يرى نفسه ملتزما بشرفه وكرامته، لا يجوز له أبداً أن يتعرض لأمرأة أو شيخ أو طفل. لذلك كان التجار الذين يريدون نقل مبالغ كبيرة من النقود من مدينة إلى أخرى، لا يلجأون إلى دوائر البريد لنقل نقودهم، بل يأتمنون عليها شيخا عجوزا، يحملها معه وفي يده عصا وينقلها إلى حيث يشاؤون، فيجتاز بها الجبال والوديان ويصل إلى المكان المقصود دونما خوف من خطر. وهذا الاحترام للشيخوخة من أنبل الصفات التي يتحلّى بها الكرد. وينبغي أيضا على قاطع الطريق أن يمد يد العون والمساعدة للفقير الذي يلاقيه في الطريق العام، كما ينبغي عليه عدم اقتراف جريمة القتل إلا في حالات الضرورة القصوى.

وكما يلاحظ مينورسكي بحق، يبدو أن لدى الكرد مفاهيم متعلقة بالنظام العام لا يتخطّونها، بل يراعونها بكل دقة إذا كانوا يعيشون وحدهم ولم يختلطوا بغيرهم من العناصر والأقوام الأخرى التي قد يتأثرون بعاداتها وتقاليدها. فإذا كانوا يعيشون دون غرباء بينهم منقادين لنمط العيش المألوف لديهم الخاص بهم، فإنهم يحلون مشاكلهم فيما بينهم دون أي حاجة لتدخل السلطات الحكومية في شؤونهم. وقد أبدى مينورسكي استغرابه مثلا لما لاحظه في المدينة الكردية الصغيرة (سقز) [بكردستان الإيرانية – المترجم] من حياة نشطة في الطرق والأسواق دون أن يجد أي أثراً كان لسلطة ما. ويضيف أيضا أن الكرد في المناطق الأخرى، في السليمانية وسابلاغ [مهاباد الآن – المترجم] مثلا، يبدون الكثير من دماثة الخلق.

وتحل المشاكل التي قد تنشب بين العشائر بطرق ودية أحيانا، ولا تفقد الروح الكردية إحساسها بالحق، كما يشهد على ذلك المثال الآتي المستمد من قصة تحديد الحدود بين قريتى (بسوسين) و (بناوك). كانت هاتان القريتان في نزاع مستمر على تحديد الحدود بينهما. ورغم الجهود المضنية التي

بذلها كبار السن ورجال الدين من أجل التوفيق بينهما، ذهبت جهودهم سدى. ولكن رجلاً مرحاً يدعى (شابو) وهو مسيحي من قرية (بسوسين) اقترح أمرا ما لبث أن ارتضاه الجميع، ويقضي بأن يهيئ القرويون من الجانبين طعاما من الرز (بلاو) ويضعوا عليه قطعة من الزبدة ثم يبدأ إثنان من كل من القريتين وفي يدهما الماعون الذي وضع فيه الطعام وعليه قطعة للزبدة، يبدآن بالجري ركضا صوب الأرض المتنازع بشأنها، وعلى كل من ذابت قطعة الزبدة الموضوعة على الطعام الذي بيده قبل ان تذوب قطعة زبدة الآخر، ان يتوقف عن الجري حيث ذابت قطعة الزبدة، والفسحة التي تبقى بين نقطتي التوقف، توزع بصورة متساوية على كل من القريتين. وفي الوقت نفسه نصح شابو أهالي قريته بأن يضعوا على الرز شحم الدب لأنه يذوب ببطء. أما أهالي قرية (بناوك) فلم يشكّوا في حسن نية جيرانهم، فوضعوا على رزهم الزبدة وهي تذوب بسرعة. وفي اليوم المتّفق عليه للجري ركضاً، أخذ ممثلا القريتين يركضان كل من قريته صوب الأرض المتنازع عليها، وكان ممثل قرية (بسوسين) قد وضع شحم الدب على طعامه فلم يتوقف عن الركض إلا بعد أن اقترب من خط بداية الركض من قرية (بناوك) التي لم يستطع ممثلها الجري بعيداً لذوبان الزبدة على طعامه. ولتحديد الحدود الجديدة للقريتين على مسمع ومرأى من الجميع، كان يتوجب على كل جانب ان يقسم على صحة التثبيت الجديد. وهنا أيضا بادر (شابو) لمساعدة أهل قريته، حيث نصحهم بأن يضعوا في أحذيتهم تراباً من قريتهم (بسوسين)، وبذلك يستطيعون أن يحلفوا بالله ورسوله وبالقرآن وهم مرتاحو الضمير، على أن التراب الذي يقفون عليه يعود لقرية (بسوسين) ولا يعود لقرية (بناوك) وليس لأهليها علاقة به. وبعد تثبيت الحدود على هذا النحو عاش ساكنو القريتين بأمن وسلام.

وفيما يتعلق بالنظام العام وتحقيق العدالة لدى الكرد، يتوجب علينا أن نقول حول عادة الأخذ بالثأر (توله) ومن تقاليد الكرد أن يثأروا لدماء أقاربهم، والثأر حق يكتسبه أهل القتيل، ويطرد القاتل من عشيرته لمدة خمس سنوات أو أكثر. فإذا تمكن أهل القتيل من أخذ الثأر منه خلال هذه الفترة، فإن القضية تعتبر محلولة، وإذا بقي حيا بعد انتهاء هذه الفترة، حقّ له العودة إلى عشيرته بعد استشارة زعيم العشيرة ومسنّيها بهذا الشأن وموافقته على رأيهم، وحتى في هذه الحالة لا يفقد أهل القتيل حقهم في الأخذ بالثأر. وقد يتدخل العقلاء فيقدرون ثمن الدم الذي يدفعه القاتل لأهل القتيل شريطة ان لا يتجاوز القيمة المقدرة لها في الشريعة الإسلامية وهي قيمة مائة بعير. ودفع هذا الثمن يعني وقف سفك الدم (خوين بستن). غير أن هذا الإجراء نادر الوقوع لدى الكرد لاعتقادهم بأن دم الضحية يلبث سائلا من جرحه لحين الأخذ بثأره. ومع ذلك إذا حضر القاتل بنفسه وكفنه بيده وسيفه على عنقه أمام أهل القتيل، أي وضع نفسه تحت رحمتهم، فلا يسع هؤلاء إلا أن يقبلوا بالتسوية. وفي حالة الزنا تكون العقوبة موت الزاني المدان لا غيره. وقد ذكرنا من قبل أنه لا وجود للبغاء في المجتمع الكردي، وليس هناك مقابل لهذه الكلمة في اللغة الكردية، ولذلك فالكرد مضطرون

لأستعمال الكلمة التركية أو الفارسية الدالة على هذا الفصل عندما يريدون التحدث عنه.

وهناك دراسة خاصة مكّرسة للنظام القضائي لدى الكرد أعدّت من قبل الميرزا محمد جواد القاضي باللغة الالمانية بعنوان (تحقيق حول المسائل الحقوقية بين الكرد)، وقد نشرت في العام ١٩٠٩ في العدد ٢٢ من مجلة (علم الحقوق المقارن)[١٦] ويذكر الكاتب في دراسته هذه أنه يفضّل التوجه إلى قضاة العشيرة الذين يفسرون القانون العرفي، على التوجه إلى قضاة الشرع الذين يطّبقون الشريعة الإسلامية (شرع)، رغم أن الحكومة الإيرانية تعترف بسلطة الآخرين فقط[١٧].

سادساً: وسائل التسلية الجماعية، الغناء والرقص:

تكون صورة الحياة الاجتماعية الكردية ناقصة إذا ما أهملنا الإشارة إلى وسائل لهوهم الجماعية التي نحاول وصفها الآن. ونتكلم في البداية عن الغناء لدى الكرد. وكما يقول (مار) في بحثه المشار إليه من قبل (حول كلمة "چلبي" [باللغة الروسية، ص ١٢٧ - ١٢٩])، يتحدث جميع الرحالة بإعجاب شديد عن الغناء الكردي. وأكثر الأغاني الكردية يؤديها الكرد بصورة جماعية على شكل فرق متناوبة. إن أغنية الحصادين حول (فرهاد وشيرين) تذكّر الرحالة (ريج) بأبيات من قصيدة (تاس)[١٨] التي كان يغنيها البحارة الفينيسيون في زوارقهم. وكما يقول المؤلف الأرميني (آبو ڤيان): "تطورت القصائد الشعبية الكردية كثيرا وبلغت حدود الكمال[١٩]". ويضيف: "إن كل كردي، رجلا كان أو امرأة، شاعر بفطرته". ويساير مورتر واكنر آبو ڤيان في إنطباعه عن المكانة العالية للغناء الكردي. أما (بلو) الذي تعمّق في دراسة المناطق الشمالية الشرقية من كردستان، فإنه

---

(١٦) ترجم هذا الموضوع إلى اللغة الكردية من قبل السيد أ. برويزي (فاضل كريم) ونشر في العدد ٦٣ للسنة ١٩٨٨ من مجلة (كاروان) التي تصدر في أربيل بكردستان العراق - المترجم.

(١٧) هناك، على سبيل المثال، في مدينة سابلاغ - ساوجبلاغ (مهاباد اليوم) عائلة كردية ذات نفوذ واسع هي عائلة (القاضي)، وكان عميد هذه العائلة إبان الحرب العالمية الأولى القاضي فتاح. [هذه العائلة هي نفسها التي أنجبت الشهيد القاضي محمد، رئيس جمهورية كردستان في مهاباد التي تأسست في عام ١٩٤٦ وقضي عليها في الأيام الأولى من عام ١٩٤٧، وكذلك محمد حسين سيف قاضي وأبو القاسم صدر قاضي، الذين أعدمتهم سلطات الشاه محمد رضا بهلوي بعد محاكمات صورية. وإلى هذه العائلة أيضا ينتمي الميرزا محمد جواد القاضي الذي ورد اسمه في السطور الأخيرة من هذا الموضع في متن الكتاب - المترجم.

(١٨) تاس: ١٥٤٤-١٥٩٥، الشاعر الغنائي والحماسي الايطالي الذي نال من اضطهاد الكنيسة وعنتها وعذابها الشيء الكثير، حتى مات وهو في حالة أشبه ما يكون بالجنون (نقلا عن الترجمة الفارسية لهذا الكتاب لمحمد القاضي).

(١٩) ذكره ليرج، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٤٤.

يتفق بدوره مع هؤلاء الرحالة والكّتاب حول خصائص الغناء الكردي، وأهميته الكبرى في الحياة الكردية، ويقول "إن أشد العشائر الكردية بؤساً غنيّة في أغانيها وفي ألحانها، ولا تتردد أقاصيص غنائهم التي تسرد وقائع الحروب، عندما يتحركون صوب المراعي الجبلية أو يتوقفون فوق القمم الصخرية، فقط، بل وبين حضرييهم المستقرين في الوديان أيضا. ويجمع المغنّون حولهم في الأماسي أهالي القرية ويثيرون شجونهم بأغانيهم عن أبطال شعبهم من المحاربين القدماء أو بقصائد عن الحب والفراق وآلامه.. الخ. إن الأنغام التي كانت تنطلق من حنجرة المغنّي (عمر آغا) في ديادين في أغانيه المختلفة، وإيقاعاتها التي كانت مسرعة، بهيجة أحيانا وبطيئة محزنة أحيانا أخرى، وتحريكه الحي للكلمات بالنبرات أو تثاقله في أدائها، وفضلا عن ذلك الايماءات الحية التي كانت تصدر منه خلال الغناء، لتثبت قدرته على الغناء بعمق وذكاء وعاطفة، رغم أنه لم يكن يتفهم معاني النصوص".

ولا تقل شهادة (لايارد) عن الشعر والموسيقى لدى الكرد اليزديين عن شهادات غيره، أهمية. فهو يصف غناءهم على ضريح (الشيخ عدي) بأنه "كان احتفالياً وحزينا". ويقول لم أسمع طيلة حياتي غناء ابعث على الحزن والصق في الوقت نفسه بالقلب، من ذلك الغناء. لقد كانت أنغام المزمار تمتزج بعذوبة مع أصوات النساء والرجال التي كانت تتوقف بين حين وآخر لتترك المجال للصناجات والطبول(٢٠).

وتدور الأغاني الكردية غير الدينية حول المواضيع العاطفية والبطولية(٢١). إلا أن المهم في هذه الأغاني، كما يلاحظ (مار)، ليس الموضوعات التي تكرر دوما، بل مجموعة أهداف الحكايات والأخبار الواردة فيها. إن واقع تقبل الأرمن للغناء الكردي بكل تقدير واحترام، يؤكد بصورة بليغة الجاذبية الشديدة في الشعر الشعبي الكردي. ويؤكد واكنر أن العديد من الأغاني الكردية واليزدية انتشرت في آسيا القديمة (آسيا الصغرى) بعد ترجمتها إلى اللغة التركية.

ويعزو الرحالة والعلماء جودة الأغاني الكردية وسموها إلى صفات الفروسية التي يتجلّى بها الكرد أنفسهم. ويقول (مار): "إن لم أكن مخطئا، فإنهم لم يوجهوا السؤال التالي إلى أنفسهم: أولا يمكننا تفسير الأمر على العكس بأن هذه الصورة الرومانتيكية والبطولية للكرد تتجلى في هذه المواضيع وعبر الثروة الشعرية البليغة التي توارثوها منذ الأزمنة السحيقة في القدم؟ ويبدو أن ثروة الغناء الكردي ناجمة عن المميزات التي يتحلّى بها الكرد دون جيرانهم من الأتراك المسلمين والأرمن المسيحيين". "ففي الوقت الذي تخلّى فيه الأتراك والأرمن عن عاداتهم وتقاليدهم الدينية والشعبية

(٢٠) لايارد، نينوى وخرائبها (باللغة الانكليزية)، ج ١، ص ٢٩٢.

(٢١) نشرت في موسكو نماذج من الحان كردية تحت اشراف البروفيسور حنا لاتيانتر في معهد لازاريف للغات الشرقية عام ١٩٠٤.

لأخرى مبتدعة، نجد الكرد، كالفرس، يحتفظون بأصالتهم، ويقولون انهم طالما بقوا كرداً، لا يقطعون صلتهم بتقاليدهم الشعبية والدينية حتى مع اعتناقهم الدين الإسلامي".

"إن الصلة بين غنى المواضيع والأهداف في الغناء الشعبي الكردي والوثنية، تعتبر ظاهرة عامة نسبيا. والغناء الكردي يعتبر في قياساته الرئيسية ثروة موروثة عن الوثنية وهي الديانة التي كانت تدين بها سابقا العديد من العشائر الكردية التي آمنت بالإسلام فيما بعد".

وكما نرى، أعطى الشعر الكردي (مار) المجال للتوسع في هذا المضمار، وسوف نستفيد من ملاحظاته لدى دراستنا لمسألة الدين لدى الشعب الكردي. ونكتفي حاليا بالقول: إن الغناء سواء كان مع فرقة موسيقية أو بإيراد قصص حول مواضيع بطولية أو غنائية، يعتبر من الأنواع المفضّلة لدى الكرد في أوقات فراغهم.

ويصف ميللينكن إحدى السهرات الكردية فيقول:"انعقدت حلقة الغناء بعد العشاء، فامتدت تحت الخيمة وخارجها، وكانت تتألف من محاربين شباب وكهول وشيوخ وكلهم متربّعون على الأرض الخضراء. وفي تلك الأثناء وعندما كان حضور المجلس يتحادثون فيما بينهم ويتضاحكون بمرح وحبور وبشاشة وجه، أخذت تعلو فجأة أصوات تترنمّ تلقائياً بانغام كردية شجية، أنغام عشاق عاطفية، وأخذت أحاسيس عشاق الشعر والنغم وعواطفهم تلتهب شيئا فشيئا، فكنت ترى ملامح العيون والأفواه وسائر أعضاء الجسم تتغير، فتكتسي مظاهرهم التي كانت حد الامكان مظاهر عشاق، وضعا يثير الضحك تقريبا، وبعض الوجوه الخشنة التي كانت إلى جانب المظاهر الرجولية الوقورة في تناقض مع اللّطف والصفاء واللاّمبالاة التي أحدثتها فيهم قوة الموسيقى في تلكم اللحظات، مما يدعو للأنتباه، في حين كان بعض آخر تتبدى عليهم سيماء ريفية بسيطة رغم مظاهر العشاق المتداعية التي كانوا يحاولون أن يظهروا بها أنفسهم".

"استمرت هذه السهرة الغنائية مدة ساعتين تقريبا. ولابد لي من القول إنها كانت تسلية ممتعة، إذ سرعان ما جرفني تيار هذا اللحن الموسيقي الرخي العذب، أكثر بكثير مما تأثرت بالموسيقى التركية. وأحسن دليل على مكانة الموسيقى الكردية هو أن من بين العديد من الأنغام التي استمعت إليها في تلك الأمسية أن إحداها أثرت في أحاسيسي الموسيقية إلى حد أنني لبثت زمنا طويلا فيما بعد أرددها وأطرب لها. ومن سوء حظي أنني لا اتذكرها الآن، وإلا كان بمقدوري إعطاء مثال على اللحن الكردي المسجّل موسيقيا(٢٢)".

وبعد الغناء، جاء دور الرقص.ويستطرد ميللينكن قائلا:"لقد تحولت خيمتنا هذا المساء إلى مهرجان واسع سرعان ما امتد إلى سائر الخيم، وكان يزيد من نشوتنا ضوء القمر الساطع ونيران الليل اللاهبة.

(٢٢) ميللينكن، المصدر السابق. ص ٣١٣ - ٣١٤.

وقد عمت الفرحة الجنود أيضا واختلطوا بالكرد الذين تألفت منهم حلقة "الدبكة". وبمجرد أن عزفت بعض الألحان الكردية، تشكّلت حلقات رقص منتظمة وبدأت تقدّم رقصات كردية. ويستحق الرقص الكردي وصفا دقيقا، كما أنه يمتاز ببعض الخصوصية التي لا أجدها في الرقصات الشرقية الأخرى. إن إحدى خصائص الرقص الكردي هي انه لا يؤدى مطلقا بصورة انفرادية أو ثنائية وحتى رباعية. فهو يبدأ بتكوين حلقة غير كاملة يأخذ كل رجل فيها دوره إلى جانب امرأتين ويلامس كتفه كتف زميلته التي تكون بجانبه. ولكن الخاصيّة الأكثر تميزاً فيه هي أن الراقص في جميع أنحاء العالم يحرّك عند الرقص جميع أطراف جسمه قليلا أو كثيرا، أما الراقص الكردي فيبقى بدون حراك تقريبا ويكتفي بحركات قليلة وخفيفة من ركبتيه، فهو لا يؤدي تجلية غير اعتيادية، بل تكون الحلقة مجتمعة في حركة ناعمة ومتموّجة وتهتز على ايقاع الموسيقى وتبدو وكأنها حقل قمح يداعبه نسيم ناعم(٢٣). وعندما يرقص المقاتل الكردي فهو يقدم عرضا من أكثر العروض شاعرية ورومانسية، عرضا يتناسب مع هيئته. وقد لمحنا في نظراتهم جميعا وكأنهم على وشك أن يغمى عليهم من اثر عشق داخلي مؤثر. ولكن عندما ينتهي الرقص، يعود الجميع إلى حالتهم الاعتيادية، وكأنهم لم يكونوا قبيل هنيهات في حالة ذوبان في العشق".

"والشيئ الغريب في الرقصات الكردية هو إدراك حقيقة أن الرجال لا يعترضون على أن تقف إلى جانبهم في حلبة الرقص امرأة، بل على العكس فهم يشعرون بسرور بالغ في الرقص إلى جانب الحسناوات. وهكذا فعندما يرقص الكرد فيما بينهم، يجر كل واحد إلى جانبه فتاة ويشدّ كتفه بجانب كتفها. وعندئذ تضم الحلقة عددا من الرجال بقدر عدد النساء. إنني آسف لكوني لم أصادف رقصة مشتركة بنفسي، ولكن الكرد لا يرقصون بصورة مشتركة إلا فيما بينهم، وبعيدين عن نظرات الترك والجنود المغرضة".

وإذا وضعنا جانبا الغناء والرقص، فإن وسائل اللهو الأخرى ليست متنوعة لدى الكرد، ويمكننا أن نذكر من بينها: المصارعة والتهديف برمي الحجارة بهدف إصابة هدف معين، وتمارين الفروسية التي وصفنا بعضا منها عند الكلام عن العرس الكردي، وأخيرا مصارعة الجواميس. وتمارس هذه الأخيرة بين الحيوانات بنفسها عندما يعودون بها مساء لغطسها في الماء، وهي لا تقارن بشئ مع مصارعة الثيران الأسبانية، ولا مع مصارعة الثيران التي رأيتها في اقليم كيلان بإيران، التي تمرن فيها هذه الحيوانات بصورة خاصة، ويؤدي التلاقي فيما بينها إلى إقامة احتفال كبير.

(٢٣) ليس الرقص في جميع أنحاء كردستان على هذا النحو ويمكن القول أن وصف الكاتب يصدق اطلاقا على كردستان الشمالية. أما في كردستان الجنوبية والشرقية فهناك رقصات سريعة يحرك فيها الراقص جسده كاملا عدا الرأس تقريبا، كما أن رأس العقد في الحلبة يقوم فيها بأعمال متفردة، وقد يخرج واحد من وسط الحلبة ليقوم بتلك الأعمال.- المترجم.

ولإتمام الكلام على ما سبق ذكره، فإننا نضيف الوصف الذي قدمه الكاتب الكردي السوفياتي (عرب شمو) للألعاب التي يمارسها الرعاة:

" بين فترة وأخرى، كان يقوم مساعدو الرعاة بتقريب قطعانهم فيما بينها، ويلعبون بأنفسهم فيما بينهم بجذل وبشاشة، وكان بعض من هذه الأعمال مألوفا لدينا منذ أن كنا صغارا، في حين أن بعضها الآخر ابتدعناها بأنفسنا ومنها بوجه خاص الرقص والغناء. فمثلا كنا نأخذ بأيدي بعضنا ونقيم حلقة فيما بيننا، ويبدأ أحد اللاعبين منا بالغناء فيغنّي إحدى أغانينا المفضلة ويردد الآخرون الأغنية ونحن نركض في حلقة دائرية. واليكم نموذجا من قطعة غنائية:

آي.. آي.. آي.. الراعي الصغير، ذو الأصابع الذهبية، يعزف من مزماره الذي بين شفتيه ألحاناً هي لنا غير إعيتادية...

أماه.. إن هذا الراعي الصغير لا يحافظ جيدا على القطيع..

أماه.. إني أحب هذا الراعي الصغير من قلبي وروحي..

زوّجيني، يا أماه، من هذا الراعي الصغير..

زوجني، يا أبتاه، من هذا الراعي الصغير.

سأكون دائما سعيدة معه، سأعمل معه لديكم من أجل إعداد المهر...

ها قد أقبل الصبح وارتفعت الشمس.. وعلى الجبين الساطع لحبيبتي الجميلة، لمع الذهب..

لقد بقيت راعياً سبعة أعوام، وقد آن الأوان لأشتري لحبيبتي زناراً من فضة.

ويستطرد عرب شمو قائلا: «كنا نغنّي أيضا الأغاني الشعبية القديمة، التي تمجد الأبطال الذين قاتلوا ببسالة للاستحواذ على المراعي الجيدة، ونصّبوا المخيمات لأبناء عشيرتهم، والذين فقدوا رؤوسهم في معارك غير متكافئة».

" كما كنا نلعب كذلك لعبة خاصة بالرعاة، يطلق عليها إسم (زي زي)، وتتلخص هذه اللعبة في أن يضع كل واحد منا على طرف أصابع رجله سكينا أو عصا بصورة عمودية ويدفعها بكل قوته بعيداً عنه، ويندفع أحد اللاعبين ليجمع الأشياء المرمية دون أن يأخذ نفسا، ويردد اللاعبون الآخرون خلال هذه العملية كلمة (زي.. زي)، فإن استطاع الشخص الذي اندفع لجمع الأشياء التي رماها اللاعبون جمعها دون أن يتنفّس، كان فائزا. أما إذا تنفّس قبل أن يكمل جمعها، خسر اللعبة".

" وأحيانا، كنا ننظم مصارعة بين الأكباش، ونختار من بين القطعان الأكباش الفتيةالقوية، ونضع الواحد منها في مواجهة الآخر، وتبدأ المصارعة. والذي يخرج كبشه منتصرا في هذا الصراع، يعتبر هو

الفائز. وقد كنا نلعب هذه اللعبة بصورة سرية، ذلك لأن أصحاب القطعان كانوا لا يسمحون لنا بجمع القطعان لترعى المواشي بصورة جيدة وتسمن اسرع".

سابعاً- المظهر الاقتصادي للعشيرة:

تطرقنا في الفصلين الثالث والرابع إلى بعض النقاط المتعلقة بنمط الحياة الكردية وتنظيم الأسرة فيها، وبقي علينا أن ندرس العلاقات الاقتصادية القائمة بين رئيس العشيرة وأفرادها. وأعتقد ان هذا الجانب من الحياة الكردية لم يدرس حتى الآن بصورة جيدة، واكتفى معظم الباحثين بتعداد الموارد الاقتصادية لدى الكرد بشكل عابر. إن الحياة الكردية ما تزال بحاجة إلى دراسة اجتماعية تحليلية توضح لنا التفاعل القائم بين المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيها.

(أ) ما يدفعه الكردي لرئيسه:

مع انه لا توجد دراسة بهذا الخصوص، نحاول هنا أن نرسم الخطوط الأساسية للعلاقات الاقتصادية داخل العشيرة الكردية مستعينين بدراسات الأستاذين (فيلجيفسكي) و(كريستوف) التي أشرنا إليها سابقا. ويلاحظ أن الأول في دراساته التحليلية لتركيب العشيرة اجتماعياً واقتصاديا لدى الكرد في منطقة القفقاس والمناطق المجاورة لها في كل من إيران والدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، يرى أن الكرد في هذه المناطق كانوا يتبعون نظاما متقدّما للعلاقات الإقطاعية، فقد كان الآغوات والبكوات الذين كانوا يتزعمون العشائر شبه الرحّل، يشكلون جزءا من النظام الإقطاعي في آسيا القديمة (آسيا الصُغرى) وكانوا على علاقات تبعية اقتصادية مع الدولتين الإيرانية والعثمانية أو مع الإمارات شبه المستقلة التي كانت موجودة في الأقاليم التي كانت تعتبر شكلياً جزءا من إيران والدولة العثمانية.

لقد كانت العشائر الكردية تلتزم تجاه زعمائها ليس فقط بدفع الضرائب أو تقديم الخدمات لهم، بل كان يتوجب عليها أيضا تقديم وحدات مسلّحة تكون تحت إمرة زعمائها لحراسة المناطق الحدودية. وهذا ما كان يشكل عامل ضغط كبير على السكان اقتصاديا من قبل الإقطاعي.

كان الاقطاعي الكردي يستوفي رسومه في البداية من سكان كردستان المستقرين الذين كانوا يتكونون في غالبيتهم من الأرمن والنسطوريين المسيحيين باعتبارهم العناصر العاملة والحرفية، حسب ما يذكره لنا القنصل البريطاني (تايلر) الذي زار تلك المناطق حوالي العام ١٨٦٠. لقد كان هؤلاء الاقطاعيون يطلقون على المسيحيين (زير خور لي) أي المشترين بالذهب. وهو تعبير صحيح إزاءهم كأنهم كانوا يشترونهم ويبيعونهم كالدواب سواء بسواء، وكانوا يتمتعون بهذه السلطة لإنعدام سلطة الدولة في تلك المناطق، وهذا ما استتبع استقلالية هؤلاء الآغوات والبيكات وتمتعهم بسلطة كاملة

تجاه رعاياهم. لقد كان هؤلاء الرعايا المسيحيون يدفعون سنويا مبلغا من المال للزعماء الكرد لقاء حمايتهم لهم. ولكن عندما ساءت احوالهم فيما بعد وازداد بالمقابل أيضا طمع هؤلاء السادة، تعذر عليهم دفع تلك المبالغ بصورة منتظمة. لذلك تحولت أحوالهم إلى وضع شبيه بوضع العبيد. إن أوضاعهم الحالية كما يلي: إنهم يباعون بصورة جماعية تباعا لبيع الأرض التي يستثمرونها، غير انه لا يجوز بيع احدهم بصورة منفردة. ويستطيع مالكهم أن يستحوذ على أي كمية من محاصيلهم السنوية، نقدا كان ذلك أو عيناً. والواقعة التالية التي أوردتها السلطات التركية توضح لنا حالتهم: قتل أحد الآغوات الكرد بطلقة نارية واحدا من رعايا آغا آخر، وبدلا من أن ينتقم هذا من القاتل نفسه، بادر إلى قتل اثنين من رعايا القاتل دون أن تكون لهما صلة بموت القتيل. وقد أورد (فيلجيفسكي) هذا المثال كدليل على حالة العبودية التي كان يعيشها هؤلاء الرعايا. لذلك يمكننا القول إن الضغط الاقتصادي للنظام الإقطاعي كان يمارس بوجه خاص تجاه السكان الحضر في كردستان. وقد أنشأ الإقطاع الكردي سلطة بمساعدة العشائر الرحّل. ورغم أنه يبدو ظاهريا لأول وهلة أن حالة الكرد الرحّل كانت أحسن من حال غيرهم، إلا أنها لم تكن كذلك في واقع الحال. إنها كانت، باستثناء حالات خاصة، أكثر سوءاً من حالة الفلاحين المستقرين.

وكان الكرد يلتزمون تجاه آغواتهم بنظام معقد من الواجبات والرسوم والضرائب التي كانت تجبى مباشرة من قبل الإقطاعي نفسه أو من يمثله (ريش سبي) أي: ذي اللحية البيضاء أو (كدخادا) أي مختار القرية.. الخ.

ليست لدينا معلومات محددة حول جميع الضرائب التي كان الكرد يلتزمون بدفعها لأسيادهم من الآغوات، ومع ذلك فإن الاشارات العابرة التي تخص مناطق مختلفة من كردستان حول طبيعة هذه الضرائب ومقاديرها، تؤكد انها كانت تكون النسبة الكبيرة لمداخيل الاقطاعيين الكرد التي تبدو لأول وهلة كأنها غير ذات أهمية. فمثلا كان الكرد اليزديون يدفعون سنويا لأميرهم وبمحض إرادتهم عشر انتاجهم. وكان رؤساء العشائر والشيوخ يتقاضون النسبة نفسها. أما (البير) فكان يستوفي نسبة أقل. وعلى كل حال لم تكن الرسوم المباشرة التي كان يدفعها الكردي اليزدي للسلطات الروحية والزمنية لتقل عن خمس مجموع انتاجه. وبالإضافة إلى ذلك، يجب على الكرد ان يتكفلوا بنقل خيمة الآغا وأمتعته خلال مواسم الارتحال. أما رسم الزواج فكان ينعكس في تقديم بقرة إلى الآغا، كما أن الآغا هو الذي يتقاضى عن كل حفلة زواج من خمس نعاج إلى خمس عشرة نعجة، وعن طرد الروح الشريرة من نعجتين إلى ثلاث، وهكذا.. الخ.

ويجمع الرحالة على القول أن الفرد الكردي لا يمكنه مقابلة رئيسه دون أن يحمل له معه هدية مناسبة، فإذا ما ذهب لمقابلة الآغا، فإنه يقدم له بوجه عام نعجة أو عنزة. وإذا ما ذهب لمقابلة الشيخ، كانت الهدية عبارة عن حمل خروف أو طير داجن (دجاجة أو بطة أو ما شاكل).

وعلى وجه الإجمال، لا يتقاضى الزعيم أقل من خمس مجموع مداخيل أتباعه وأحيانا أكثر من ذلك. وفي الوقت نفسه تتقاضى السلطة المركزية بواسطة الآغا (العشر) الاسلامي المعتاد[٢٤] والذي يطلق عليه إسم (الأغنام) عندما يطبق على المواشي. ولا تستوفى هذه الضريبة عادة من الكرد الذين يحملون السلاح. ولكن الآغا كان يستمر في استيفائها لحسابه الخاص في أغلب الأحيان. وهذا ما أدى إلى نشوب اضطرابات كتلك التي أشار إليها الرحالة الفرنسي (دروفيل)[٢٥].

ومنذ أن نشر (فيلجيفسكي) دراسته عام ١٩٣٦، نشرت وثائق أخرى منها وثيقة (بوكدا نوفا) عن الاستغلال الإقطاعي للرحّل في مجلة (الأرشيف التاريخي)، الجزء الثاني ١٩٣٩ التي يصدرها معهد التاريخ في أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي، وهي تعطينا نظرة أكثر دقة عن الموضوع الذي نحن بصدده. وقد نشرت فيها قائمة بأسماء الضرائب دوّنت حوالي العام ١٨٢٨ من قبل الميرزا اسماعيل الذي كان موظفاً مالياً لدى حسين خان قاجار، الذي كان يشغل خلال فترة الحرب الروسية – الإيرانية منصب (السردار) أي الحاكم العام لإقليم (أريوان)، وهو الاقليم الذي ألحق بروسيا بعد الانتصار الذي حققته على إيران. وتقدم لنا هذه القائمة تفاصيل بالاتاوات التي تدفع نقداً أو عيناً من قبل العشائر التركية والكردية الرحّل الموجودة في المنطقة. ونفهم من القائمة على سبيل المثال أن الكرد من عشيرة (زيلان) التي كانت تقدر بحوالي ألفي أسرة وكانت تمتلك مواشي تقدر بمئة ألف رأس غنم، كانوا يدفعون للسردار سنويا خروفين أحدهما ذكر والأخر أنثى عن كل مئة خروف، وخمسة (خروار) أي حمل حمار من الزبدة (يتراوح وزن خروار بين ٢٤٠ كغم إلى ٦٠٠ كغم) لكل ألف رأس من الغنم ضريبة المراعي، كما أنهم يقدمون سنويا جميع التجهيزات اللازمة من برادع وحبال ولُجُم وغيرها لخمسين بعيراً أو بغلا ويضعون تحت تصرف السردار حوالي ألف ثور لنقل المواد، فضلا عن تقديم ألف رجل مسلّح. وفي حالة اخرى تخص فرع سقانلو من عشيرة الجلالي الذي كان يضم ١٠٢ عائلة، كانوا يقدّمون سنويا ٢١٩ تومان و ٦ مينالتون (كان التومان يقابل آنئذ ١٠ روبلات فضة وكان المينالتون يقابل عشر الروبل). وكان للسقانلو ثمانية مراع ترعى عليها حوالي ثمانية آلاف وسبعمائة وخمسين رأس غنم، وكان يتعين عليهم أيضا دفع خمس تومانات ونصف لكل ألف رأس غنم، أي ما مجموعه ٤٨ تومانا ومينالتون واحد وربع المينالتون من الذهب، فضلا عن (١٢) باتماناً من زبدة الأغنام و (٢٥) زوجا من جلود الأغنام مع كيس من الصوف لكل ألف رأس من الغنم. وكان السردار يعهد بمواشيه إلى هؤلاء الرحل وفق شروط يمكن تقسيمها إلى قسمين. فحسب شروط القسم

(٢٤) هذا "العشر" ليس ضريبة اسلامية بأي حال وليس أكثر من أي ضريبة من الضرائب الاقطاعية، والضرائب الإسلامية لا يحق اسلاميا لأي زعيم قبيلة استيفاؤها إلا إذا كان يمثل الحكومة الإسلامية في المنطقة وبوصفه هذا فقط – المترجم.

(٢٥) رحلة إلى إيران خلال عامي ١٨١٢ – ١٨١٣، باللغة الفرنسية، ك. دروفيل، باريس ١٨٢٥.

الأول ويطلق عليه (ديش بديش)، كان على المتسلم ان يرد بعد كل عدة سنوات عدداً من الأغنام والخراف يساوي العدد الذي تسلمه وفي نفس الأعمار التي كانت عليها، على أن يدفع عن كل راس أيضا باتماناً ونصف باتمان من الزبدة والجبن (كان وزن الباتمان يعادل في أريوان خمس كيلو غرامات) وستيلاً من الصوف (كان الستيل يعادل باتمانا و ٣٠٪ من الباتمان)[٢٦]. أما الحيوانات المولودة بعد التسليم فكانت من حق المتسلم وحده. وحسب شروط القسم الثاني ويطلق عليها (أماني)[٢٧]، كانت الحيوانات المولودة حديثا مع الصوف تكون للسردار، وكان على المتسلم أيضا دفع سبع ستيلات ونصف من الزبدة لكل نعجة وست باتمانات لكل جاموسة وأربع باتمانات لكل بقرة. وكان على أبناء هذا الفرع من عشيرة الجلالي ايضا أن يضعوا تحت تصرف السردار جميع دوابهم للحمل والنقل، مرة واحدة كل سنة[٢٨].

(ب) الالتزامات العسكرية في ظل النظام الإقطاعي:

كان من الواجب على الكردي، بالاضافة إلى دفع الضرائب، أن يحمل السلاح بناء على طلب رؤسائه ويترك مشاغله الاقتصادية شاء أو كره. صحيح أنه في حالة نجاح الحملة العسكرية، كان بعض المشاركين فيها يحصلون على شئ من الغنائم، إلا أن الأضرار الناجمة عن الحرب كانت أفدح بكثير، ذلك أن المجنّدين في هذه الحملات غالبا ما كانوا يفقدون صلاتهم بقطعانهم وأراضيهم ويصبحون جنوداً محاربين نظاميين متطوعين لدى الإقطاعي. ويقوم الإقطاعي بدوره بزيادة الضرائب على السكان ليوفر لجنوده وأتباعه المرتّبات اللازمة، فكانت حالة أبناء القرى تزداد سوءاً فيتوجهون إما للاستجداء من جيرانهم، أو يعملون لديهم كأجراء زراعيين ورعاة.

وكانت تكاليف الفارس المحارب التي تتحملها عشيرته تبلغ ١٦٣ روبلا من الفضة في سنة ١٨٤٠، بالإضافة إلى مرتّبه السنوي البالغ ٢٤ روبلا مع العلف لحصانه. وكان على العشيرة أن تقدّم بالإضافة إلى كل ذلك، ملابس وسلاحاً وفرساً إلى المحارب تتضمن زوجا من المسدسات وسيفاً وخنجرا وقاط ملابس وسرجاً ولجاماً مرصّعين بالفضة. وإذا ما فقد المحارب هذا اللجام فإن على المجموع أن يهيئوا له لجاماً آخر (بوكدانوفا، المصدر السابق).

لا يمكن اعتبار الاقتصاد الرعوي، حتى بالنسبة للقبائل الرحّل، اقتصاداً منعزلاً ومستقلاً عن

(٢٦) يبدو لي كما بدا لمترجم الكتاب إلى اللغة الفارسية ايضا، أن (ستيل) محرّف كلمة (سطل) – المترجم.

(٢٧) يبدو لي أن (أماني) محرف كلمة (أمانة) – المترجم.

(٢٨) حول النظام المالي في آذربيجان توجد معلومات دقيقة في مؤلف (بيتروشيفسكي) باللغة الروسية، وهي تخص العلاقات الاقطاعية في أرمينيا وآذربيجان خلال القرون السادس عشر – التاسع عشر، ص ٣١٥، لينينكراد ١٩٤٠. ويمكن مراجعة كتاب (لامبستن) المشار إليه حول النظام المتبع في إيران.

اقتصاد المنطقة. والاقتصاد الرعوي، حتى في الحالات الطبيعية، يكون بحاجة إلى المنتجات والمحاصيل الزراعية، فيلجأ إلى إجراء المقايضة معها، وبذلك يسهم في إنشاء أسواق داخلية جد صغيرة، وهكذا فإن الفلاحين الذين يقاسون ضغطا اقتصاديا من الإقطاع، يحاولون غش الرحّل الذين يتحمّلون في النتيجة آثار الاستغلال الإقطاعي.

وأخيراً، فإن الاستقرار كان ينتشر شيئا فشيئا. وفي هذه المرحلة كان هناك عدد كبير من العشائر نصف المستقرة ونصف المترحّلة، وكان الرئيس الإقطاعي يستفيد من مختلف الوسائل لإستغلال هؤلاء واستخدامهم لصالحه الخاص.

وباختصار، إن الكرد الرحّل، على الرغم من إستقلالهم الصوري وقلة الضرائب المفروضة عليهم من حيث الظاهر، لم يستطيعوا ان ينجوا من جور النظام الإقطاعي، وانتهى بهم الأمر بأن باتوا تحت حكم رؤسائهم الاقطاعيين. ويعتقد (بيتروشيفسكي) أن وضع الكرد الرحّل كان افضل من وضع الحضر منهم.

وهكذا فإن الإقطاع في كردستان في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لم يكن قد غدا نظاما متكاملا حسب، بل ووصل أيضا إلى نتيجته المحتومة. فقد أدى هذا النظام إلى تفكك المجتمع الكردي وأوجد الاقتصاد الطبيعي الذي يعتمد على الملكية الخاصة للمواشي، وحمى الفلاحين من خطر غزو العشائر الرحّل. كما أنه حافظ على كردستان كوحدة متماسكة ضد تسلط امبراطورية العشائر الغازية التي استطاعت السيطرة على البلدان المجاورة لكردستان، وبإسهامه في مقدرات الإقطاع في عموم آسيا الصغرى، تحوّل بنفسه أيضا إلى عائق كبير أمام التطور اللاحق للقوى المنتجة في المنطقة. إن الإقطاع الكردي دمر في الواقع رفاهية المجتمع الكردي لأنه أبقى على الأشكال القديمة للاقتصاد التي سمحت له بممارسة الضغط فوق الاقتصادي. لقد صار عائقاً أمام تطور السوق الداخلية التي غدا نشوؤها أمراً ضروريا لتعايش الاقتصاد الرعوي والزراعي معا، وعمل على هدم الاقتصاد الرعوي بسحبه الأيدي العاملة منه لينخرطوا تحت السلاح لخدمته، وهكذا كان الأمر أيضا بالنسبة للاقتصاد الحضري الذي كان يعاني من غزواته، وفي الوقت نفسه كان يقف كابحا أمام التحضر لأنه كان بحاجة إلى الرحّل بوصفهم قوة مسلّحة.

يقول فيلجيفسكي: إن الإقطاع الكردي أخذ يتضعضع ذاتياً منذ بداية القرن التاسع عشر وغدا عائقا أمام تطور القوى الاقتصادية الجديدة التي تولّدت جزئيا بتأثيره هو نفسه بعد تفكيك الأسر النبيلة وذوبانها في العشائر. كما أن العشيرة صارت، بدورها مدعوة للتحولات، وصار دور الرئيس الإقطاعي يتحول بتأثير العامل الاقتصادي إلى دور صاحب رأس مال يحاول مواصلة تربية الحيوانات على أسس رأسمالية. إن الثورات الكردية التي اندلعت في القرن التاسع عشر كانت تتسم، على ما

يراه فيلجيفسكي بطابع معاداة الإقطاع، فسجّلت بذلك مرحلة جديدة في تطور الشعب الكردي ويمكننا تلخيص العلاقات التي كانت تربط رئيس العشيرة برعاياه في ظل النظام الإقطاعي بما يلي:

يجب على الرحّل ان يقدّموا لرئيسهم بموجب التزاماتهم الطبيعية مقداراً من الضرائب العينية وعدداً من المجنّدين المسلحين، ويتمتعوا بالمقابل بحق إرتياد الكلأ على مسار محدد والاقامة في مراع معينة لهم بصرف النظر عما إذا كانت متروكة أو مورد انتفاع، حيث ان الرحّل كانوا يتوقفون خلال تحركهم بقطعانهم في مناطق مزروعة أو متعلقة بفلاحين مستقرين. إن هذا التحديد الذي يعطيه فيلجيفسكي، يمكن تفسيره بصورة أخرى أيضا على ما أرى. إذ يمكن القول بوجه خاص، إن عشيرة رحالة ما إذا كانت قوية بما فيها الكفاية ولديها رجال مسلحون ملتفون حول زعميهم،باستطاعتها أن تسلك الطريق المناسب لها للتنقل بقصد الوصول إلى المراعي المطلوبة لها للاستفادة منها في تغذية قطعانها. وعلى هذا، فإن ما تقدمه العشيرة للاقطاعي ليس التزاماً تلتزم به تجاهه، بل ضرورة تخضع لها في صراعها من اجل وجودها. ويبدو أنه ينبغي هنا أن نميز بين الإقطاعي ورئيس العشيرة أو القبيلة، وهذان العاملان الاجتماعيان يمكن أحيانا أن يجتمعا في شخص واحد، ولكنهما بصورة عامة يتميزان عن بعضهما. ويمارس رئيس اقطاعي واحد سلطته على عدة عشائر في الغالب، إلا انه يمكننا التحدث عن الضرائب الثقيلة والباهظة التي تستخدم لأغراض ليست دائما من اهداف العشيرة، عندما يكون مدار حديثنا عن العشائر التي لا ينتمي إليها الرئيس بنفسه وليست سلطته عليها سلطة وراثية.

(ج) النظام المالي:

هناك مسألة شكلية يجب الإشارة إليها في البداية، وهي: أننا عندما نتطرق لموضوع الإقطاعي، نبتعد عن البيئة العشيرية الصرفة وندخل في موضوع الدولة، رغم ان الدولة في الشرق، حتى في عصرنا الراهن، ليست إلا ائتلافا من العشائر غير مستقر تماماً، لوجود سيطرة قليلة للسلطة المركزية عليها. ومع ذلك، فإن الدولة الشرقية، رغم تركيبتها الخاصة، لها أهداف ووظائف أسمى وأهم من أهداف العشيرة ووظائفها. وهناك أيضا الباعث السايكولوجي الذي يجعلنا نعتقد بضرورة التمييز بين رئيس العشيرة والسيد الإقطاعي. فالأول، كيفما كان الاستغلال الذي يمارسه، والذي لا يمكننا إنكاره، يبقى على كل حال متعلقا بمصلحة العشيرة التي تربطه بها صلات عديدة. إنه لا يمارس سلطة غريبة عن العشيرة. لذلك ونتيجة لهذا الواقع، إن لاح احتمال لعزله ونصب شخص آخر في محلّه، يظل رغم إساءاته التي تبقى على كل حال محدودة، مقبولا أكثر من سواه.

١- على كل وحدة من العشائر الرحالة التي تشغل منطقة محددة من المراعي أن تدفع من منتجاتها ضريبة عينية حسب عدد رؤوس المواشي التي تملكها الأسر التي تتكون منها تلك الوحدة، وفق التفصيلات التي ذكرها آنفا. وهناك بالإضافة إلى ذلك رسم المرعى ورسم الشرب اللذان يأخذهما

مالك الأرض من الرحّل الذين يمرّون عبر أراضيه وممتلكاته.

٢- يسلّم الرحّل الرسوم المترتبة عليهم لصاحب الاقطاعية بواسطة رئيس عشيرتهم، حسب ظروف الحال. ويمكن أن تأخذ هذه الرسوم شكل التزامات بتقديم الخدمة (مجنّدين عسكريين احتياطا) أو تقديم منتجات (عشر المحاصيل أو رسم الأغنام) أو مبالغ محددة. وكانت الإساءة ظاهرة وكثيرة بالنسبة للرسوم التي تستوفى نقداً، لأن موظفي الجباية كانوا يحددون مقدارها حسب أمزجتهم ويأخذون الزائد منها لمصلحتهم الخاصة. ومن جهة أخرى كان للسلطات المالية الحكومية مآخذ دوماً على دافعي الضريبة الكرد، لأنهم لم يكونوا يتمكنون منهم كما ينبغي. ويمكنني أن أذكر في هذا المجال على سبيل المثال، أن الضريبة التي كانت تستوفى من الرحّل من عشيرة (هركي) كانت تجبى بشيء من النجاح، لأن الجباة الترك كانوا ينصبون كمينا على ضفاف الجسر القائم على نهر الزاب الأعلى الذي يعبر عليه هؤلاء الرحل كل عام للوصول إلى منطقة (زيبار). وعلى المنوال نفسه، هناك مضيق في المقاطعة الجبلية (تياري) في المنطقة نفسها يحمل إسما ذا مغزى هو (مضيق الجابي) يشير بالإضافة إلى معناه، إلى أن الموظفين المكلفين بهذه المهّمة لم يكن بوسعهم الولوج إلى المنطقة اكثر من ذلك لإستيفاء الضرائب(٢٩).

(٢٩) لذلك لم يكن يتردد هؤلاء الموظفون في مباغتة الكرد لكونهم متهربين من دفع الضرائب، دون أن ياخذوا بنظر الاعتبار الظروف المحيطة بهم، كما يؤيد ذلك الرسالة التي بين يدي المرسلة من (سوتو آغا)، رئيس عشيرة (اورامار) إلى حيدر باشا، والي الموصل عام ١٩١٥، فقد ورد فيها: " كان لي شرف المثول بين يديك في فصل الربيع إبان الجهاد الكبير، عندما كان الجنود يصعدون نحو مناطق التياريين وما والاها، فقد أمرتني بعدم بقاء عشيرة (أورامار) في مكانها. لذلك نقلنا مواشينا إلى قضاء دهوك وبقيت أنا مع رجالي في (أورامار). ومع ذلك فإن مسؤول الضرائب يطالب الآن بالضرائب من رجالنا المعوزين في دهوك. انني أرجو الحكومة ان لا تستوفي الضرائب من أولئك اللاجئين، وآمل أن يوافق حضرتكم على طلبي هذا".

ويبدو من هذه الرسالة أيضا أن المشاركين في الجهاد المقدس لم تخفف الضرائب عن كواهلهم. ويذكر ميللينكن (المصدر السابق، ص ٢٥٣) حادثة تتعلق بأحد جباةالضرائب اضطر إلى الفرار أمام تهديد النساء الكرديات له.

وفي عام ١٩٣٥ نشرت صحيفة باريسية بتاريخ ١٤ حزيران، السطور التالية التي أنقلها فيما يلي: وقعت حادثة مؤلمة في منطقة (موش) في الأناضول الشرقية تتعلق بجباية الضرائب المتأخرة. ويسكن الولاية المذكورة كرد أنصاف متوحشين، ولأنهم يمتنعون دوما عن دفع أي من الرسوم والضرائب التي بذمتهم، فإن مدير الناحية التي تقع إلى جوار تلك المنطقة يرافقه اثنان من الجند وموظفان من قسم جباية الضرائب وقاضي المنطقة، توجهوا إلى حيث تعيش عشيرة (ساسون) الجبلية، فأخذ مدير الناحية ينصحهم بأن وصول الضرائب من الرعايا إلى دولة تجددية ومتمدنة ضرورة حياتية. وقد ثارت ثائرة الجبليين بمجرد أن أخذ مدير الناحية يلقي نصائحه، فأخطروا الموظفين القادمين جميعا بأنهم إذا كانوا >

والمعروف أنه في ظل النظام التركي كان يتم استيفاء الضرائب عن طريق الامتياز ويعرف بـ(الالتزام). فكان على الملتزم دفع المبلغ المتعاقد عليه جزافا إلى السلطة المالية المختصّة للمنطقة المتفق بشأنها، ويتولى هو بالوسائل التي يملكها استيفاء الضريبة من المكلّفين. فكان التملّص من دفع الضريبة صعبا بالنسبة للفلاحين من السكان المستقرين في قراهم، ذلك أن المحصول الزراعي الذي تفرض عليه الضريبة يصعب إخفاؤه. أما بالنسبة للرحّل، فقد كان الأمر سهلاً، لأن مواشيهم كانت غير مستقرة في مكان معلوم، فكان من الضروري إيجاد علاقات حسنة مع السلطات العشيرية التي كانت تستفيد هي بدورها أيضا من استيفاء الضريبة.

وبفضل الدراسة الدقيقة التي أجرتها السيدة (لامبتون) حول وضع الكرد في إيران، الذين يتكون معظمهم من أهل الحضر ويختلفون قليلا عن الفلاحين الذين يكون مالك أرضهم رئيسا للعشيرة، يمكننا تكوين فكرة محددة عنهم. إن حصة المالك من المحصول الذي يتولى الفلاح نقلها بنفسه إليه، تختلف حسب المكان. فقد تكون مناصفة أو ثلثاً أو خمسا أو عشراً أو أقل من ذلك. وحسب ما يذكره لنا (رابينو) في كتابه باللغة الانكليزية (تقرير عن كردستان) وقد كتبه في عام ١٩١١: "إن نظام (ده دو) أي عشر حصص مقابل حصتين أو نصف السدس منتشر كثيراً. وحسب هذا النظام يقسّم المحصول إلى اثنتي عشرة حصة، يأخذ منها المالك حصتين والبقية للفلاح وتكون جميع المصاريف على هذا الأخير، في حين لا يقدم الفلاح بموجب نظام المناصفة غير البذور والعمل، ويتولّى المالك دفع الضريبة التي تعرف بإسم (الماليات)، بالإضافة إلى مصاريف الحصاد. وينبغي على الفلاح أيضا دفع اتاوات عينية إلى المالك كالزبدة والدجاج والبيض مما تعرف بإسم (رسوم الضيافة)، بالإضافة إلى رسم الموافقة على الزواج (سورانه). ويستوفي المالك كذلك رسم المرعى وعددا من رؤوس النعاج بصفته رئيسا للعشيرة. وفضلا عن ذلك هناك التزام آخر أشد وطأة على الفلاح، إذ يجب عليه أن يعمل مع دابّته بدون مقابل أياما عديدة في الحراثة أو البذار أو الحصاد أو البستنه أو غيرها حسب ما تقتضيه مصلحة المالك مما يطلق عليه اسم (بيكار) أو (بيكال)، وعليه ان يقول انه يؤدي له هذه الأعمال عن طيب خاطر. ويشمل نظام التدرج الزراعي (المباشر) أي وكيل الأعمال و (كدخدا) أي: المختار او العمدة و (كاخيل) و (بيكار) أي:الحراس ووكلاء الري لأنه يكون الاعتماد أحيانا على الري، رغم أن الزراعة المنتشرة هي الزراعة الديمية في الغالب. وتقسم أراضي القرية على أساس (جفت) التي هي وحدة زراعية تتحدد بكمية معلومة من البذار. وتتم عملية إعادة التوزيع كل خمس سنوات إلى خمسة عشرة سنة. أما بالنسبة للضريبة فيبدو الخطأ في الأساس الذي تقوم عليه عملية التحصيل، لأن

< ممن يهمهم الحفاظ على حياتهم، فالأولى لهم أن يسلكوا طريقهم الذي جاءوا منه ويعودوا من حيث أتوا. وبما أن الموظفين الحكوميين ظلوا يوجهون لهم النصائح والمواعظ بضرورة الاستجابة والإطاعة، فإن القبليين الكرد هاجموهم وأبادوهم عن بكرة أبيهم.

الدولة توكل هذه المهمة إلى الملاك الزراعيين أنفسهم الذين يقومون بجباية حصصهم مع حصص الدولة ولا يملك الفلاح وسيلة للمراقبة ولا يتمتع بأي ضمان يوفر له تأمين العدالة.

ويلاحظ أن قانوناً صدر في عام ١٩٣٤ حلّ محل القانون الصادر عام ١٩٢٦ عدّل النظام الذي كان ساريا في مجال الملكية الزراعية في إيران، وقد أخضع القانون الجديد جميع المحاصيل الزراعية لضريبة حدد مقدارها بـ٣٪ عينا، اما عن الحيوانات، فتستوفى لدى دخولها المدن والقصبات أو عند تصديرها. وتفرض هذه الضريبة مرة واحدة على المواد الخاضعة للضريبة، وتحدد نسبة الضريبة كل سنة. ومنذ ذلك التاريخ أعدت عدة لوائح قانونية لم يصادق عليها المجلس النيابي. وفي عام ١٩٤٨ أعيد تنظيم الضريبة على الملكيات الزراعية في عدة أقاليم من البلاد على أساس المسح الزراعي الذي بدئ به في عام ١٩٢٦.

***

إذا عدنا الآن إلى الملاحظات التي دونها (كريستوف) حول أسلوب العيش في العشيرة الكردية في مظاهره الاقتصادية والاجتماعية، وجدنا بعض الاشارات ذوات الدلالة العامة التي تبدو مع ذلك مفيدة لأنها تؤكد جانبا من ملاحظات (فيلجيفسكي)، رغم ان للباحثين وجهات نظر مختلفة. فعلى سبيل المثال عندما يتطرق (كريستوف) لأسباب التحول من حالة الترحل إلى شبه الترحل، يعزو تلك الأسباب إلى الضرائب الباهظة ونظام الخدمة العسكرية، فيضطر الرحل إلى بيع مواشيهم لتأمين عيشهم والتوجه نحو ممارسة الزراعة وبخاصة إذا كانت الزراعة قد سَهُلت عليهم بالنسبة إلى الظروف الطبيعية المحلّية والأوضاع التي يعيشونها بأنفسهم. إن حالة الفقر هذه نشأت حسب رأي (كريستوف) بسبب سياسة الحكومة. بينما يرى (فيلجيفسكي) سبب ذلك في سلوك الإقطاع وتصرفه، رغم أن النتيجة في الحالتين واحدة. إلا أن (كريستوف) يضيف إلى وجهة نظره نقطة أخرى، هي أن الكرد شبه الرحل قليلا ما يميلون إلى تربية الجياد ويهتمون أكثر بتربية الأبقار بسبب من القيود التي تعرضت لها سجاياهم القتالية (من قطع طريق وغيره)، كما أنهم من جهة أخرى يخضعون أكثر لتأثير نفوذ رجال الدين المسلمين الذين أسسوا بينهم مدارس دينية وغرسوا في نفوسهم أحكام الشريعة الإسلامية على حساب التمسك بالأعراف والعادات السائدة بينهم. هذا فضلا عن أن البنية العشيرية بدأت تتحلل شيئا فشيئا، وأن المرحلة القادمة هي مرحلة الاستقرار، وإن الشعب الكردي إذا لم يحافظ على لغته وتراثه وفولكلوره، يمكن ان يتحول إلى أتراك جبليين "كما يوصفون بذلك في تركيا، أو إلى مجرد "رعايا" إيرانيين" حيث أنهم، في منطقة كرمنشاه مثلا، لا يوجد إلا فارق ضئيل بينهم وبين الرعايا الايرانيين. ويلاحظ كريستوف أيضا أن مفهوم الأسرة يتقدم لدى الرحّل الصرف الذين يهتمون بتربية المواشي على مفهوم العشيرة لأسباب اقتصادية. وفي الحقيقة إن المرأة

هي التي تمثل اليد العاملة لأنها التي تتولى امر تربية المواشي وتحضير منتجات الألبان. ولهذا نجد في هذا الوسط أن وضع المرأة التي تضحي بنفسها لخدمة العائلة والأسرة، أقرب إلى المساواة اجتماعيا مع الرجل منه لدى العشائر الحدودية التي يلاحظ فيها وجود بون شاسع بين زوجة الزعيم (خانم) والنساء الأخريات (يايه). وقد يحدث بين العشائر القاطنة على الحدود التي كانت تمارس السلب والنهب وقطع الطريق فيما مضى في أغلب الأحيان، أن لا يملك مسلّحوا رئيس العشيرة شيئا عدا ما قد يحصلون عليه خلال غزواتهم القتالية، وهو ما يسهل الحصول عليه اليوم اكثر من ذي قبل بسبب إجتياز الحدود (ويسمّى فيلجيفسكي هذا الطراز من العيش بالحياة ما فوق الاقتصادية). وقد تأتي هذه المكاسب من هذا الجانب من الحدود مرة ومن ذاك مرة أخرى، في حين أن سائر أفراد العشيرة مستمرون على أداء اعمالهم الاعتيادية، وفضلا عن هذا فإن هؤلاء المسلّحين يعتمدون ايضا في قرار أمر معيشتهم على السكان المسيحيين الذين يسمّيهم (تايلر) (زير خورلي) أو المبتاعين بالذهب. وتجري هذه الأعمال في حماية رئيس العشيرة الذي يتمتع في الغالب بسلطة إدارية منحته إياها الدولة. وفي مثل هذه العشائر يأتي الخضوع للنظام العشيري قبل مفهوم الأسرة، لأن دور الأسرة الاقتصادي أقل فاعلية نظراً لتعدد مصادر الرزق الاقتصادية وما فوق الاقتصادية لدى العشيرة. وفي هذه الظروف يبدو أن تربية الجياد تكون اهم للمقاتلين.

د- نظام الأوبا(٣٠)

نتطرق الآن إلى دراسة نظام متميز هو نظام الأوبا وكيف انه نشأ في مجتمع يسوده النظام العشيري والاقطاعي، وما هي آثاره على البنية الاقتصادية الكردية. يحدد لنا فيلجيفسكي الأوبا بأنه تنظيم اختياري ،يضم عدداً من الأسر التي تجمع قطعانها خلال فصل الصيف لتشكل قطيعاً مشتركا يتولى رعايته رعاة اتفق معهم بهذا الشأن. وعمليات الحلب وجز الصوف.. الخ، تتم من قبل الأسر صاحبة القطعان، وينحصر التعاون في نطاق رعي المواشي، أي نقلها إلى مراعيها وعلى مسارات معينة وحسب الطرق المتّبعة في الأوبا. وتبرز أهمية القطيع حسب سعته من جهة ونوعية المراعي من جهة أخرى وإمكانيات مراقبة القطيع من قبل الرعاة المتفق معهم. وعدد الرؤوس التي تجمع لترعى معاً يتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠٠ رأس، كما يعتمد عدد الأسر التي تتعاون فيما بينها بهذا الشأن على أهمية القطيع المشترك ودور كل أسرة في العملية. وكمعدل عام، يضم الأوبا بين ٨ إلى ١٥ خيمة، وإن كان بالامكان أن يتألف الأوبا النموذجي في كردستان الشمالية من ١٥ إلى ٢٠

(٣٠) أوبا: كلمة تركية تعني الخيمة أو أنواعاً معينة من الخيام، والمكان الذي تقيم فيه الطوائف المترحلة، كما تعني كذلك العشيرة - المترجم.

أسرة، تملك مجتمعة من ألف رأس إلى الفي رأس من الماشية. إننا لا نشغل أنفسنا بالبحث عن نشأة الأوبا وكيفية نشأته، وهناك احتمالان واردان في هذا المجال:

١- إما أنه تكوّن تحت تأثير النظام الإقطاعي، امتداداً لتكوّن الاقتصاد الطبيعي الفردي الناشيء عن الاقتصاد الجماعي السابق للإقطاع.

٢- أو أنه ظهر نتيجة لمزج الاقتصاديات الطبيعية الضعيفة التي تحمّلت استغلالاً فظيعاً من النظام الإقطاعي، فوجد نفسه غير قادر على مزاولة الرعي بصورة انفرادية. ويرى فيلجيفسكي أن العاملين أسهما معاً في تكوّن الأوبا، إذ نجد فيه على حد سواء اشتقاقا عن البنية الجماعية للأسر، ومحاولة لتجاوز مرحلة الاقتصاد الطبيعي باللجوء إلى استثمار الرعاة المهرة.

وفي تحليلنا لظاهرة الأوبا بوجه عام نتوصل إلى حقيقة أن الأوبا يمتلك بصفة ما حصة محددة من المراعى تحمل إسم (وار = هه وار) أو (زوزان) أو (يورت). وهكذا نعتبر الأوبا ناتجاً من التملّك الجماعي للمراعي من قبل جماعة من الرحّل، يعيشون اقتصاداً انفراديا. وكما بيّنا آنفا، تعود ملكية المرعى إلى العشيرة كلها التي تعطي الإقطاعي مقابل ذلك مبلغا معيّناً يجمع من الأفراد كلهم، لذلك فإن الأوبا يعتبر بمثابة تعاونية، هدفها الاستثمار الأمثل لقسم محدد من المرعى عن طريق الرعي الجماعي. وينظم الأوبا كل سنة قبل الارتحال إلى المرعى ويستمر إلى أواخر الخريف عند العودة إلى المشتى. ويجب أن لا يغيب عن البال أن التحقيق الفعلي للأوبا أمر سهل وميسور في الحياة العملية،ويمكن ان يحدث ذلك ضمن عشيرة واحدة أو فرع من العشيرة مهمته الارتحال، ويمكن أن يوجد في مجتمع زراعي مستقر أو شبه مستقر، كما لا يستبعد أن يكون في حد ذاته وحدة اقتصادية غير متميزة. وبطبيعة الحال يختلط الأوبا في الحالات التي ذكرناها مع إحدى التقسيمات الاقطاعية المناسبة، لذلك لا يمكن اعتباره ذا سمات تعاونية اختيارية، إلا أن الشيء الذي يهم فيلجيفسكي هو أن الأوبا بشكله الطبيعي يعتبر بمثابة حلقة يتركز حولها الصراع الطبقي في كردستان.

وهناك شكلان للأوبا، الأول، الأوبا الذي يقوم على مبدأ المساواة الكاملة بين الأعضاء المنتمين إليه (جول) والذين يعالجون الأمور بصورة مشتركة مع الرعاة، ويتحملون جميع النفقات، كل حسب أعداد الماشية التي يملكها. والثاني: شكل آخر للأوبا تكون نتيجة قبول مالك قطيع من الماشية يعرف بـ (أوباباشي) أو (سرأوبا) لقطعان غيره بحيث أن الرعاة يعتبرون مستأجرين من قبل الأول الذي وافق على قبول قطعان غيره مقابل اجور محددة تحتسب تصاعدياً حسب أعداد الماشية التي يملكها كل واحد منهم. ويبدو أن هذا الشكل من (الأوبا) الذي له رئيس معلوم هو النوع الأكثر إنتشاراً في الحالات الاعتيادية.

اننا هنا نضع جانباً القسم المتعارض من شرح فيلجيفسكي مع نظرية بيكيزاروف وهو باحث آخر اهتم بموضوع الأوبا حوالي العام ١٨٨٥ ويعتبره تنظيما مبنياً على الأسرة الواحدة. يقول بيكيزاروف: "يعتبر المجتمع الكردي مجتمعا بطرياركيّاً ديمقراطيّاً، يجتمع فيه جميع اعضائه، أغنياء كانوا أو فقراء، بحقوق متساوية. والفرق الوحيد بينهم هو أن الأسر النبيلة والغنية بينهم تتمتع بإحترام كبير وثروة أزيد".

وعلى العكس من بيكيزاروف، يعتقد فيلجيفسكي أن مرحلة البطرياركية ذات العائلة الواحدة قد ولّت تحت تأثير النظام الإقطاعي، وأن المجتمع الكردي غدا الآن في معرض الاختلافات الاجتماعية، وأنه يحمل الآن في أحشائه بذور الصراع الطبقي".

إنا لا نريد أن نتّخذ لنا موقفاً من وجهتى النظر المختلفتين هاتين، ولكننا نقول لا يمكن لنا أن ننكر بقاء دور الآغا وسلطته المنتقلة إليه وراثياً. ويقر مينورسكي بأن استغلال الآغا لأتباعه امر غير قابل للإنكار، رغم أنه قد خف نتيجة تعلّق هؤلاء برؤسائهم والعلاقات البطرياركية التي تربطهم معا. إلا أن الاستاذ الملا سعيد الذي درّسني اللغة الكردية، لم يخف عني مشاعره غير الطيبة تجاه الشيوخ والآغوات، وكان ينتقدهم لأنهم يعملون لإبقاء الجماهير غارقة في الجهل ليسهل لهم استغلالهم، وكان يرى أن مكائدهم وعملهم لمصالحهم الشخصية تعيق تقدم الشعب الكردي وتطوره. وهذا الكردي الحقيقي (أي الملا سعيد) كان ينتقد أيضاً جميع زعماء شعبه ويقول إنهم بمجرد أن يشقّوا طريقهم ويمسكوا بعتلة القيادة، يسرعون إلى اختلاق الأنساب لأنفسهم ليثبتوا أنهم ليسوا كرداً بل عرباً، وكان يعبر عن احاسيسه بهذا الخصوص بصورة تعريضية واستهزائية ويقول: "كل من يصبح بيكاً، يعلن وينشر بين الملأ أنه (عباسي) أو (علوي) أو (خالدي) أو ينتسب إلى فلان أو من أحفاد علان ويختلق ألف تحفظ بشأن نسبه الكردي!". هكذا كان يحدثني أستاذي الذي كان مسلماً حقيقياً ذا معرفة واسعة بالتاريخ ويعرف الكثير من الأحاديث النبوية، وكان يقول أنه يجب أن يطبّق على هؤلاء الناس الذين خلقوا ظروفاً لإستغلال طيبة الكرد لمصالحهم الآنية، حديث الرسول محمد (ص) "إتَّقِ شر من أحسنت إليه".

ولكن تبقى هناك حقيقة صارخة هي ان فيلجيفسكي نفسه يقول في معرض حديثه عن الإقطاع: أن هذا النظام ساعد على إبقاء كردستان بمنجى من مطامع الغزاة الأجانب ومكنّها من أن تحافظ على شخصيتها. إلا أن كردستان لن تتمكن من تحويل شعبها إلى أمة وإقامة دولة خاصة بها، ما لم تجتز هذه المرحلة من حياتها.

ومن اجل العودة إلى الحديث عن نظام الأوبا، نشير إلى أنه حسب الإحصاءات الدقيقة لفيلجيفسكي، كان رئيس الأوبا يعمل لرعي مواشيه دون أن يكلفه ذلك شيئا ويوزّع حصته من الأجور

التي عليه أن يدفعها للرعاة، على بقية أعضاء الأوبا، وبذلك كان ينتفع من المرعى المشترك. ونظرا لأن استئجار الرعاة يستلزم نفقات كثيرة، كان رئيس الأوبا يتحول بالفعل إلى مالك للمراعي، التي تعود في الواقع إما للقرية أو العشيرة بأكملها. وهكذا كان يقبل في قطيعه بصفته رئيساً للأوبا أغناما ومواشٍ تعود لبعض معارفه من سكان القرية مستفيداً وحده من الأجور التي يتلقاها منهم. ومن أجل ان يحقق منافع أكثر لنفسه، كان يستبعد تدريجيا من الأوبا عدداً من أعضائه ويرفض قبول مواشيهم ضمن قطيعه.

إن ازدياد دور رئيس الأوبا بهذه الأهمية، يعود بوجه خاص إلى ازدياد دور التجارة في الاقتصاد الطبيعي لرعاة المواشي في كردستان وبروز نشاطات التجّار الداخليين. وفي الوقت نفسه كان يتعذر على الطبقات الأشد فقراً من الفلاحين الكرد الاستمرار في استثمار مزارعها الصغيرة، فتلجأ إلى بيعها والعمل كعمال أجراء، وهذا ما كان يؤدي أكثر فأكثر إلى بروز ظاهرة الرأسمالية في المجتمع الكردي وإضعاف العلاقات الإقطاعية.

ان إتباع سياسة مركزية من قبل كل من الحكومتين الإيرانية والعثمانية وابتلاع الإمبراطورية الروسية لبعض المناطق التي يقطنها الكرد، قوّض من السلطة العسكرية للإقطاع في كردستان الذي كان يعتمد على الأفواج المسلّحة للعشائر التابعة، ليحل محلّها الجيش النظامي للدول المركزية. وقد حرّم السبب نفسه الإقطاع الكردي من ركيزته الاقتصادية والسياسية، ألا وهي استغلال السكان المستقرين المحيطين به.

وهكذا اضمحلت شيئا فشيئا العشيرة والبنية الاجتماعية والاقتصادية الكردية خلال القرن التاسع عشر، وأخذت كردستان تخطو نحو مصير جديد نبحثه في الفصل الآتي والمكرّس للحركة الوطنية الكردية.

ملاحظات

كان عملي في هذا المجال قد انتهى عندما صدر كتابان جديدان جلبا انتباهي. أولّهما مؤلَّف بيتروشيفسكي باللغة الروسية حول العلاقات الإقطاعية في أرمينيا وأذربيجان منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر، الذي كثيراً ما أشار إلى النظام المالي للعشائر الكردية (الصفحات ٢٩١، ٣١٠، ٣١٥، ٣٣٢، ٣٣٥). أما الثاني فهو مؤلَّف السيد عمر لطفي باركان الذي صدر باللغة التركية ويتضمن مجموعة من النصوص التشريعية المتعلّقة بالاقتصاد الزراعي من وجهة النظر القانونية والمالية. ونجد فيه معلومات تخص العشائر الكردية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (نشر الكتاب في استنبول عام ١٩٤٥). لم يكن بوسعي الإستفادة من تلك الوثائق

في مؤلّفي هذا، فلم يبق أمامي سوى الاشارة إليها، وهي على كل حال لا تغيّر من ملاحظاتي. ويجب القول حسب ملاحظات بيترو شيفسكي: أن العشائر الرحّل كانت مستفيدة من وجهة النظر المالية فيما لو قارنّاها بالحضر، ولكن بالمقابل كانت الاستعانة بها عسكريا، كثيرة الوقوع. ويشير بيتروشيفسكي أيضا إلى بعض الانتفاضات التي اندلعت في الحقيقة بسبب الضرائب الثقيلة المفروضة على السكان.

الفصل السابع

العشائر في الزمان والمكان

أولاً- تاريخ العشائر

إذا أردنا استعراض العشائر الكردية عبر الزمن، وجب البحث، كما عملنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، عن اصل هذا الشعب. وهذا من شأنه أن يؤدّي بنا إلى التطرق، إن لم يكن إلى الفترة السابقة للتاريخ، فعلى الأقل إلى عصور التاريخ. الأمر الذي سيؤدّي بنا إلى الخوض عميقا في العصور القديمة لهذا الجزء من آسيا. وحيث أننا، إذا استثنينا النتائج المهمّة التي حصل عليها علماء الآثار في الحقول الآشورية والبابلية والعيلامية والخالدية، تبقى معلوماتنا غير كافية عن البقعة الجبلية لهذه المناطق نظرا لوعورتها، والتي تشكل، كما نعرف، الموطن الخاص بالشعب الكردي. ما يزال هناك حقل واسع لم ينقّب عنه بعد من جانب العلماء. وكما قال العالم الأثري ديكسون، الذي زار تلك المناطق، إن هناك بلاداً قليلة في العالم يوجد فيها هذا القدر الكثير من الآثار والحصون والقلاع القديمة، كالذي يوجد في كردستان التي تعتبر فردوساً لعلماء الآثار. وقديماً وصفها (سرجون)[1] عندما احتلتها جيوشه الغازية، بأن صخورها الكثيرة المتراكمة وقممها العالية تبدو كخناجر موجّهة نحو السماء. وتوجد في معظم هذه القمم آثار خرائب تعود لمختلف الحقب، منها ما تعود للكرد والآشوريين والخالديين (الأورارتيين) وحتى لعهود ترجع لما قبل التاريخ. وفي أماكن كثيرة نجد كتلاً من البنايات العتيقة الفسيحة والضخمة التي تبدو للناظر لأول وهلة، أنها مجرد صخور بسيطة، ولكنها استقرت في أماكنها بصورة تثبت للمرء من أنها من صنع الإنسان، أو من عمل المردة والعفاريت (ديو) كما يقول أهل البلاد. وتوجد في الوديان الخضراء في (نوردوز) التي تقع جنوبي جبال آرنوست مباشرة، خرائب وآثار من طراز واحد. إنها أبراج وحصون للأقدمين. وقد كتب ديكسون أنه وجد أطولها منتصبا على مقربة من قرية سات في منطقة (هركي - أورامر)، بينما يمتد واحد آخر اكثر شموخا فوق سلسلة مرتفعة من جبل الجودي. إن هذا الجبل، بالإضافة إلى المنطقة التي تسمّى (فينك)، أي (بيناكا) القديمة، يشكلان متحفا حقيقياً لعلماء الآثار لأنهما يحتويان على كل أصناف الآثار القديمة منذ عهود الكهوف، وسكانها، حتى الآثار الكردية المشيّدة باللبن مع آثار وسيطة، تعود للآشوريين والفرس والإغريق والرومان والعرب والسلاجقة. اما على جبال الجودي الصخرية وفي أغوار

(١) المقصود هو سرجون (ساركون) الثاني وهو الملك الآشوري الذي حكم من ٧٢٢ حتى ٧٠٥ ق.م وساق جيوشه لإحتلال مصر وأرمينيا وكلده. عن الترجمة الفارسية للكتاب - المترجم

أودية الجنوب، فنجد آثاراً آشورية عديدة وصخوراً منحوتة ونقوشاً وكتابات وأهل البلاد ينسبون هذه كلها إلى (سنحاريب)، ربما لأنه الملك البابلي الوحيد الذي ورد اسمه في التوراة. وتوجد أيضا على قمة الجبل أربعة قبور حجرية نقش الأقدمون على أعمدتها خطوطا مسمارية، وتقف هذه الأعمدة على اربع ركائز أصلية وتتجه كل واحدة منها إلى إحدى الجهات الأربع. انها اليوم مهدمات، وقد أقيمت في مكان يصعب كثيرا الوصول إليه لالتقاط صورة للأعمدة.

لقد كانت كل من (جزيرة) و (مكس) في عهد (ديوكلسين) مراكز رومانية متقدمة وماتزال آثار الاحتلال واضحة فيهما من طرق وقلاع ويراها السائح عندما يمر بتلك الديار. وتوجد في وادي (خيزان) البديع قلعة يبدو أنها رومانية وفي حالة جيدة. ويحتمل كثيرا أن (خيزان) كانت عاصمة الإقليم الروماني (موكسين) الذي كان يقع بين الدولتين المتجاورتين، أرمينيا وبلاد ما بين النهرين. إن هذه الخرائب من بقايا قلعة حصينة تبلغ مساحتها ٢٥٠ م٢. وتوجد فتحات في جدرانها نصف الدائرية والمربّعة الشكل، تبلغ المسافة بين كل اثنتين منها حوالي ٦٠ قدما، وهي اكثر ارتفاعا بالنسبة إلى جدران القلعة. وهناك آثار أخرى سلجوقية منتشرة في المنطقة شيد الكرد مساكنهم على أنقاضها.

إن الدراسة العميقة للآثار القديمة في كردستان التي أشار إليها البروفيسور (ديكسون)، يمكن أن تلقي أضواء على تاريخ الشعب الكردي في الفترات السابقة للتأريخ وما بعده. وفي الحقيقة أصبح بإمكان الباحثين التطلّع إلى معرفة هذا التاريخ بعد أن درس العلماء الروس آثارا مماثلة في منطقة القفقاس فتوصّلوا إلى نتائج ذات طابع اجتماعي حول تركيب هذه المناطق إبان عهد الاحتلال الخالدي في القرن الثامن والقرن السابع قبل الميلاد، وهذا ما يسمح لنا بأن نفترض عن طريق المقايسة بعض الافتراضات حول التنظيم السياسي والاجتماعي للناس الذين عايشوا الآثار القديمة للأوراتو الذي يضم جزء من كردستان الحالية. إن الآثار الأركيولوجية والكتابات المسمارية الخالدية تؤكد وجود جماعات في تلك المناطق كانت تعيش بصورة مستقلة ومنفصلة عن الأخرى، ويرأس كلاً منها رئيس (يدعيايبان أو ايشان). وقد يصادف المرء أسماء بعض العشائر في تلك الكتابات، غير أن هذه الكتابات تتحدث في الغالب عن الفتوحات أو عن أُسَر سكان البلاد أو إحدى المدن. لذلك يفترض البعض عدم وجود العشائر في منطقة القفقاس خلال تلك الحقبة الزمنية. كانت تربية المواشي تأتي في المرتبة الأولى في بنيتها الاقتصادية. إن الكتابات الخالدية لا تتحدث إلا عن الرجال والمواشي كأسلاب حرب. إن القلاع والحصون وجميع الأماكن المسكونة القريبة بعضها من بعض، كانت تعود لشعب يمتهن الرعي. ونظرا لأن هذه الأماكن المأهولة كانت دائما عرضة للغزو من قبل الجيران، كانوا يحيطونها بسور ضخم من الحجارة. ويلاحظ أن مقر إقامة الرئيس كان يقع على حدود الحصن، وكان للرئيس عدد من المقاتلين يأتمرون بأوامره، وهو وإن كان لا ينتمي لطبقة غير طبقة الناس الذين من حوله، إلا أنه كان يختلف عنهم. إن القبور الملكية القفقاسية لا تختلف عن قبور سائر الأفراد

الآخرين، وهي على غرار قبور الـ(سيت) الرحّل. وهذه القبور هي التي جعلت العلماء يفترضون وجود العبودية في تلك الحقبة لأن نقل قطع القبور الضخمة كان يتطلّب جهودا كبيرة لا يقوم بها إلا العبيد. ولا يوجد لدينا دليل يشير إلى وجود الملكية الخاصة في المواشي، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن التملّك الخاص للرئيس للمواشي والدواب كان السبب الرئيسي الذي أدى إلى تفكّك الجماعات وتشتّتها. بإختصار، إن التركيبة الاجتماعية للكرد كانت تبدو شبيهة بمجتمع قديم في مرحلة التطور، وهذا التحول هو الذي أدى إلى ظهور النظام الاقطاعي[٢].

وهكذا، ومنذ ذلك التاريخ السحيق في القدم، ألقت حذاقة علماء الآثار المستندين في تفسيراتهم على تلك البقايا التاريخية، نوراً على العلاقات الاجتماعية التي كانت موجودة آنئذ. وقد تنوّرنا بالرسائل نفسها حول المجتمع الكريتي الذي بدت دراسته لنا أكثر صعوبة لإستحالة قراءة الكتابات الكريتية (التي أمكن قراءتها فيما بعد). وينبغي على علماء الآثار أن يضاعفوا نشاطاتهم ووجودهم في كردستان ليزودونا بمعلومات وافية عن أسلاف الشعب الكردي لاسيما في مناطق دجلة العليا وجبال طوروس الجنوبي حيث يتفق الجميع على أنها كانت موطنهم الأصلي.

تدلّنا أحيانا ملاحظة دقيقة تتعلّق بالحياة المادية الراهنة على الوقوف على الأعراف التي كانت سائدة فيما مضى. فعلى سبيل المثال يخبرنا (ميلليكن) كيف أنه اكتشف في كردستان وجود صهاريج طينية معدة لحفظ الخمر شبيهة تماما بالتي وصفها (زينفون) في كتاب (أناباس). وقد كان (ميلليكن) على حق عندما وصف اكتشافه هذا بالعبارات التالية: "إنه لحدث تاريخي كبير يسترعي الانتباه أن نجد في أيامنا هذه بين شعبيّ كردستان وأرمينيا، الأعراف والعادات الخاصة نفسها التي كان يسير عليها أسلافهما. إن ذلك يدل على أن الأمم التي تقطن الجانب الأخر من الكرة الأرضية تعيش كولايات كاملة، في حين أن الأمور بقيت تقريبا على أحوالها في الشرق الذي مايزال ينعس. في كل مرة يأتي مذهب ويزيل سلطان مذهب آخر، ويأتي فاتح جديد ويقضي على سلطات فاتح غيره ويجبر ثالثاً على الخضوع لسيطرته. إن الميديين والأرمن والكاردوخيين ما برحوا على الطابع القديم الذي كان يتّصف به أسلافهم. ومثل ما هو في الجيولوجيا، تظل بقايا مطّرزة في الأرض تتحدى عوامل الزمن المدمرة والتحلل الكيماوي، كذلك توجد في تاريخ الأمم أعراف وتقاليد هي بمثابة بقايا مطمورة في التاريخ تبقى صامدة رغم توالي الكوارث الاجتماعية وتفكّك الأجناس.

ويعود المؤلّف نفسه إلى مناسبات أخرى، إلى (زينفون) والكاردوخيين في وصفه، مثلا، للمنزل الكردي الذي كان يستخدم جانب منه إصطبلا، إو في استغرابه للسرعة التي كان الرعاة الكرد يتناقلون بها الأخبار فيما بينهم ويستدركون الخطر الداهم (تماما كالكاردوخيين في عهد العشرة

(٢) كانت آثار كردستان مجال دراسات وتنقيبات أجراها عدد من علماء الآثار نذكر منهم (ليهمان هوبت) و (بيلك) و (ستريك) و (بيلربيك). أما الميديون فقد درسهم بإسهاب (دياكونوف).

آلاف). وقد أبدى الملاحظة نفسها (ليهمان هوبت).

إننا واثقون من أنه كلّما تقدمت الأبحاث الأثرية والأثنولوجية العميقة في المناطق الكردية، تمكّن من سد النقص التاريخي والخلل الذي ما يزال يكتنفنا حتى الآن، ويمتد من الخالديين (القرن الثامن إلى السابع قبل الميلاد) والسيرتويين (القرن السادس قبل الميلاد) والكاردوخيين (القرن الرابع قبل الميلاد) والكاريتوايا من التاريخ السوري (القرن الرابع بعد الميلاد) من جهة، والعشائر التي عرّفتنا بها المصادر الإسلامية من جهة أخرى.

وكم من حوادث وتقلّبات يقدّمها لنا مشهد كردستان التاريخي على مر الزمن! وكما يشير إليه (شارموا) في مقدمته لترجمة كتاب (شرفنامه)، إن القسم الجنوبي الشرقي لكردستان الوسطى احتلّه بالتتابع كل من السلالة الملكية الأرمينية لـ(هايكان) الذين كانوا تابعين للاخمينيين ثم الاسكندر الكبير ثم (الأرساسيد) الأرمن ثم ألاسكندر بن مارك انطونيوس و كيلوباترا ثم ألارساسيد والأرمن الخاضعين حينا للبارثيين، وحينا آخر للرومان، ثم الساسانيين في عهد أردشير و شابور، ثم الامبراطورية الرومانية في عهد (كالير) حتى (جوفيان)، ثم الساسانيين مرة أخرى، ثم للأمبراطور البيزنطي (تيودور)، ثم ألارساسيد الأرمن التابعين للساسانيين، ثم للبيزنطيين مرة أخرى، وأخيرا العرب، ثم الامراء الأرمن (الأرتزروني) الخاضعين للعرب، ثم لاامارة الكردية المروانية المستقلة الأولى التي حكمت للفترة من ٩٠٠ إلى ١٩٠٦، وقد خلفتها سلالة (شاهارامين) من ١١٠٠ إلى ١٢٠٧ في اخلاط و ديار بكر و أرضروم، بينما كان الشداديون (وهم سلالة كردية أخرى) كانوا في (آنى) في القفقاس للفترة من ٩٥١ إلى ١٠٨٨، وهي الفترة المعاصرة للمروانيين. ثم يأتي بعدهم من جديد الفاتحون الشرقيون الواحد بعد الآخر. ففي القرن الثاني عشر ظهر السلاجقة الذين بلغت جحافلهم غابات (خوردن) التي يطلق عليها حاليا اسم (درسيم) – ولكنهم تراجعوا أمام (فيلاريت فاراجنوري) الحاكم البيزنطي. وكان السلاجقة يقطعون الأمراء الكرد المقاطعات الواسعة ليصبحوا تحت أمرتهم. وقد عزلوا الأمراء الشاديين في (كنجه) وتنازلوا لهم عن (آنى). ثم اضطر الكرد إلى محاربة المغول، في البداية ضد هولاكو في القرن الثالث عشر، ثم ضد تيمورلنك حوالي سنة ١٤٠٠. وكانت أسوا فترة بالنسبة لكردستان في عهد أمراء العمادية. وفي القرن الرابع أتت دفعة كردية من شمالي بلاد ما بين النهرين بإتجاه أرمينيا الجنوبية وسلاسل زاغروس. وفي القرن الخامس في عهد (قره قوينلو) و (آق قوينلو) التركمان، زوّج أمير بدليس بنته من قره يوسف، فأصبحا حليفين، ولكن في عهد (أوزون حسن) من الـ(آق قوينلو) تعرضت المدن الكردستانية (حصن كيف) و (بدليس) و (جزيرة) و (هكاري) للاحتلال للفترة من ١٤٦٠ إلى ١٤٧٠ وأخيرا وفي القرن السادس عشر، جاء الغزاة الجدد من الغرب وهم الأتراك العثمانيون. ومنذ سنة ١٥١٤، بعد انتصار الترك على الفرس في موقعة جالديران في الشمال الغربي من بحيرة أورومية، غدا مصير كردستان مرتبطا بالترك

العثمانيين.

إن هذا التعداد السريع للأسماء والحقب التاريخية المعروفة في تاريخ آسيا القديمة يكفي لنثبت للقارئ مدى توسع التاريخ المتنوّع الجدير بإهتمامنا بشغف بالغ. إن التاريخ الكردي مايزال بحاجة ماسة إلى الدراسة والبحث.

ثانياً- توسع الكرد مكانياً:

لا شك في أن القارئ اطلّع في الفصل الثاني من هذا الكتاب، بما يكفي، على الرقعة المكانية التي يعيش عليها الشعب الكردي. ويكفي هنا أن نلخّص القول بأن الكرد انطلقوا من موطنهم الأصلي في (ميديا)، ثم تحركوا عبر العصور والدهور في كافة الاتجاهات، بحيث أن أقصى نقطة وصلوا إليها غربا هي اليوم حوالي انطاكية وحلب. أما من جهة الشرق، فنجدهم في خراسان، على حدود أفغانستان، حيث أبعدوا إلى هناك في عهد الشاه عباس الكبير ونادر شاه أفشار. وتوجد أيضا مجموعات كردية لم تدرس حالتهم كما ينبغي، وهم يعيشون بين التركمان في (أترك). اما كرد الشمال، وقد استترك جزء منهم، فهم المتمركزون في أذربيجان السوفياتية الذين يقطنون في اقليم (أويزد) الذي تشكل عام ١٩٢٣ مع المقاطعات التي ألحقت به، وهي (شوشه) و (جوانشير) و (كوباتلي). إن هؤلاء الكرد ينحدرون من الجماعات التي خاضت غمار الحرب التركية-الفارسية سنة ١٥٨٩. وأخيرا في الجنوب، يشكل طريق كرمنشاه أبعد حدود لهم.

ليس بوسعنا هنا تعداد العشائر الكردية كلها، لأن أعدادها كثيرة ومبعثرة من حيث الزمان والمكان ومقسّمه حاليا بين خمس دول هي تركيا وإيران والعراق والاتحاد السوفياتي[٣] وسوريا. إن أسماء وأحيانا مواطن هذه العشائر وأعرافها وتقاليدها تغيرت خلال الحقب والقرون تغيرات كبيرة. وقد قدّم لنا (شرفنامه) الذي كتب في القرن السادس عشر، القائمة الأولى للعشائر الكردية في ايران والدولة العثمانية. وقبل هذا التاريخ نجد في بعض الكتب التاريخية والجغرافية الإسلامية إشارات عرضية لبعض العشائر التي كانت تتمتّع بدور مهم في تاريخ آسيا القديمة، إلا أن (شرفنامه) يظل الكتاب الذي يقدّم لنا المحاولة الأولى في عرض المعلومات بصورة منتظمة في هذا السياق. وحسب هذا الكتاب، يقسّم الكرد إلى أربعة فروع أساسية: (١) الكرمانجي، (٢) اللر، (٣) الكلهُر، (٤) الكوران[٤]. يقطن الكرمانج في المنطقة الممتدة من بحيرة (وان) حتى إقليم أردلان في ايران. أما

(٣) حاليا جمهوريات أرمينيا وأذربيجان وجورجيا، كما توجد مجاميع منهم في بعض جمهوريات آسيا الوسطى - المترجم.

(٤) يشير (ب. روندو) (وهو مستشرق وكوردولوجي معروف، التقيته مرات عديدة في أواسط الستينيات وأواخرها، وكان يدير المعهد الخاص بالدراسات الآسيوية والأفريقية التابع لجامعة باريس. المترجم) في >

الكوران فإنهم يكوّنون الطبقة الفلاحية في اقليم اردلان بالإضافة إلى بعض العشائر الرحل في جنوبي أردلان وشمالي غربي كرمنشاه. وفي الجنوب من الكوران، نجد الكلهر، وفي الجنوب من هؤلاء يقيم اللر الذين يتكلمون لهجة خاصة بهم، ولا يعتبرهم بعض المستشرقين من الكرد.

وحوالي عام ١٨٥٦، قام (ليرخ)، الذي نوّهنا عن كتابه في الفصل الأول من هذا الكتاب، إثر دراسات دقيقة اعتمدت على مصادر اوروبية وشرقية استطاع الاطّلاع عليها في حينه، بتدوين قائمة بأسماء العشائر الكردية في كل من تركيا (الدولة العثمانية) وايران وروسيا في حوالي ٦٠ صفحة من مؤلّفه (من ص ٦٣ إلى ص ١٢١). ومنذ ذلك التاريخ لم يقم أي باحث آخر بما يشبه هذا العمل، ما عدا البريطاني (مارك سايكس) في دراسته باللغة الانكليزية التي تحمل عنوان (العشائر الكردية في الإمبراطورية العثمانية)، وقد أعدّها عام ١٩٠٨ بعد جولة طويلة في أنحاء كردستان ودوّن فيها قوائم بأسماء تلك العشائر على خارطة تمثل آخر إيضاح للموضوع. وهناك أيضا خارطة روسيّة نشرها الكولونيل (كارتسيف) عام ١٨٩٧، إلا أن معلوماتها في بعض الأمور أقل من معلومات خارطة (سايكس). ويجب الإشارة أخيراً إلى الدراسات الخاصة بمختلف الأقاليم الكردية التي نشرها (مينورسكي) في (دائرة المعارف الإسلامية). ويعطي هذا المؤلف معلومات قيّمة عن العشائر الكردية القاطنة في منطقة الحدود العثمانية - الإيرانية التي تسنّى له دراستها بوصفه مندوب روسيا في لجنة تحديد الحدود بين الدولتين عام ١٩١٤. وقد أدرجت هذه المعلومات ضمن الأضابير السرية لوزارة الخارجية الروسية،لذلك يتعذر الاطلاع عليها[٥].

< دراسته القيّمة التي أشرنا إليها مراراً، إلى موضوع التعريف بالفروع الصغيرة للعشيرة ضمن التقسيم الثنائي للكرد إلى (ميل) و (سيليف). إنني لا أعتقد بصحة هذا التقسيم الكلاسيكي، كما يقول روندو، ذلك أن هناك فروعا أخرى. وقد ذكروا لي أربع فروع أساسية أخرى هي (اللر) و(الكلهر) و(السوران) و(الگوران) حسب اللهجات التي يتكلمون بها. ومع ذلك فإن روندو على حق في جذبه لانتباهنا حول هذه النقطة الكوردولوجية، إذ يقول: "في الحالة الراهنة للبحوث المتعلقة بالشعب الكردي، مايزال ينقصنا الخيط الأساسي. ويمكننا مع ذلك أن نشير إلى المعلومات التي قدمها إلى (السير مارك سايكس) وغيره من الباحثين رؤساء عشيرة (ميللي) حول (ميلان) و (سيليفان) أو (زيلان). وحسب هذا المصدر، ينبغي أن ننظر إلى (ميلان) و (زيلان) كجماعتين مختلفتين من الأصل، وقد تطورتا بشكل مختلف ومتميز تماما. لقد أتى (زيلان) من الشرق وظلوا خشنين ورحّلاً في أعالي الجبال ومتعلقين بالتقاليد الكردية القديمة. أما (ميلان) فإنهم يدعون انهم من أصل عربي، وهم أكثر نعومة وأكثر نفوذا، وهم ينقسمون بدورهم إلى (كانورى) و (بانورى) بسبب الخلافات الداخلية التي نشبت بينهما. وقد تفرع عن المجموعةالأولى عشائر (هه سينان) و(حيدران).. الخ في أعالي كردستان، بينما تفرع عن الثاني الكونفيدرالية العشائرية لـ(ميللى).

(٥) يعطي (رابينو) في كتابه (تقرير عن كردستان) عام ١٩١١ باللغة الإنكليزية قوائم عديدة بعشائر (أردلان). كما أن الجريدة الكردية التي كانت تصدر في بيروت بإسم (روژانو - اليوم الجديد) نشرت >

ونظرا لإستحالة تلخيص هذه الوثائق الوافرة، ولو بصورة موجزة، نكتفي بسرد الوقائع المهمة، مستعينين بمعلومات (سون) التي نكملها ونعدلها عند الحاجة بمعلومات مستقاة من مصادر أخرى.

(أ) عشائر كردستان الوسطى (تركيا):

عندما نتوجّه بادئ ذي بدء صوب وسط كردستان القديمة، نحو بدليس ومنطقة (هكاري) حيث أعالي الزاب الكبير والجبال الممتدّة جنوبي بحيرة (وان) حتى دجلة وجزيرة ابن عمر، نجد عشيرة هكاري حيث استطاع رجالها المعروفون باطّلاعهم الواسع على التاريخ، الهجرة شمالا والوصول إلى بايزيد، فغدت هذه المدينة بأكثرية سكّانها منهم، كما وصلوا، من جهة أخرى، إلى رواندوز جنوباً وصار لهم أمراء فيها. وبعد أن فتح تيمورلنك ديار بكر في القرن الرابع عشر، عيّن الأمير قره عثمان حاكما لمقاطعة هكاري. ولما رأى هذا الأمير أن فتح هذه البلاد الجبلية صعب للغاية، تزوّج من ابنة أحد كبار اقطاعييها تقربًا منهم، وبذلك استطاع التقرب من العشائر المحلّية. وعندما ضعفت سلطة تيمورلنك في كردستان، صار هذا الأمير كرديا حقيقيا في تفكيره وسلوكه، وأعطى أحفاده نظارة جديدة للأسرة الحاكمة في هكاري واتّخذو لأنفسهم لقب الأمير. وفي بذخ كبير ثبتوا سلطتهم في بدليس واستمروا فيها حتى القرن التاسع عشر.

هذا ملخّص ما يقوله (سون) بصدد هكاري. ولكن هذه الرواية تختلف تماما عما جاء في كتاب (شرفنامه) الذي نفضّل المعلومات الواردة فيه على رواية (سون). لقد كان (سون) يعرف الكرد جيدا في منطقة السليمانية و أردلان والكرد الذين يقطنون الجنوب، ولكن معلوماته بصدد الكرد في الشمال غير أكيدة. إن رؤساء عشيرة هكاري الذين طردهم الأتابكيون من العمادية في القرن الثالث عشر، وبالتحديد سنة ١٢١٨ كانوا قد اتّخذوا لهم مقراً في (جوله ميرك) الواقعة على نهر الزاب الأعلى، وكانوا يدعون الانتساب إلى العباسيين. إن أول أمير من هذه الأسرة ورد ذكره في (شرفنامه) هو عز الدين شير الذي حاول الوقوف بوجه تيمورلنك في قلعة (وان) عام ١٣٨٧، وليس من الصحيح مطلقا أن شخصاً يدعى قره عثمان قد حلّ محله، كما يدّعي (سون)، وليس من المعلوم من أين أتت هذه الرواية. لقد انتزعت السلطة من هذه السلالة الأولى لحكام هكاري وحلت محلها عشيرة (دونبولي)، غير أن أسرة اخرى من الأمراء المحليين تسلمت الحكم بواسطة النسطوريين وأخذت لقب (شامبو)، وقد توسعت سلطة هذه الإمارة شمالا حتى مقاطعة (ألباك) وعاصمتها (باش قلا)، وكان

‹ في الأعداد ٦١ إلى ٦٨ لعام ١٩٤٦ قوائم كاملة بأسماء العشائر الكردية في كل من تركيا والعراق وإيران. وأخيراً نشرت قوائم منتظمة بأسماء تلك العشائر في الجريدة الإيرانية (بختيار) التي كانت تصدر في طهران (راجع "المشرق والمغرب" عدد ١٥ حزيران ١٩٥٤، الوثائق الفرنسية، رئاسة مجلس الوزراء) باللغة الفرنسية.

آخر ممثل لها، نور اللّه بيك الذي انتزعت منه السلطة من قبل الترك. وفي عام ١٨٤٥ خضعت (باش قلا) للسلطة العثمانية بواسطة (حليمه خانم) التي استسلمت لهذه السلطة.

أما فيما يتعلق بأمراء بدليس، فكانوا يدّعون، دونما وجه حق، أنهم ينحدرون من سلالة الساسانيين، وأن عشيرتهم كانت تدعى (روزبكي) وتضم ٢٤ فرعا. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار ما سبق أن قلناه في الفصل السادس من هذا الكتاب، من أنه يجب عدم الخلط بين الرئيس الاقطاعي والعشيرة. يحتمل ان يحكم رئيس اقطاعي عشائر عديدة يمكن أن تكون كردية أو استكردت او مسيحية، فهو لا يعتبر رئيسا عشيريا إلاّ بالأتجاه للعشيرة التي ينتمي إليها والتي تجهزه في الغالب بالمقاتلين المسلّحين بالقدر الذي يكون ضروريا له لممارسة سلطاته. ويحتمل أن لا يكون هذا الرئيس الاقطاعي كرديا، كما رأينا بالنسبة لسردار (أريوان) الذي كان قاجارياً. أما أمراء بدليس فكانوا يحملون اسم (ساراس بيكي) وكان لديهم في مدينة بدليس قلعة ملكية حقيقية، وكان بإمكانهم إعداد جيش يصل تعداده من عشرين ألف إلى خمسة وعشرين ألف خيّال، وكان كل من السلطان العثماني والشاه الفارسي يتودّدان إليهم ويرغبان في إقامة العلاقات الحسنة معهم، نظرا للموقع الاستراتيجي لبدليس وهيمنتها على طريق الموصل بين حلب وطوروس.

ومنذ نهاية القرن السابع عشر، كان كل أمير جديد من هذه السلالة يقدّم على سبيل المجاملة، هدية صغيرة إلى الباب العالي[٦]، وقد صار هؤلاء الأمراء أقوياء بدرجة أنهم كانوا يوقّعون اتفاقيات حكيمة مع أمراء وبيكات جزيرة ابن عمر و العمادية و (جوله ميرك) ورواندوز الذين كانوا ينتمون إلى عشيرة هكاري. من المحتمل ان يكون (سون) على حق فيما يتعلق بأمراء العمادية و (جوله ميرك)، غير أن الجزيرة و رواندوز كان لهما أمراؤهما الذين كانوا يحكمون إمارتيهم، مستقلين عن كل اثر لسلطة أجنبية، وغير مبالين بأطماع الإمبراطوريتين الفارسية والعثمانية في بقاعهم التي يصعب الوصول إليها. وفي ظل حكم هؤلاء الأمراء، تحولت بدليس إلى مركز مهم وقوي في المنطقة. ويعزى إلى الادريسي، الوزير اللامع للسلطان سليم، وهو كردي من هكاري، امتداد نفوذ أسرته وسلطتها إلى هذه البقاع الكردية الواسعة.

عشائر كردية في أرمينيا:

يمكننا القول بوجه عام إن زوال النظام الاقطاعي في الدولة العثمانية ووهن سلطة البكوات الترك فتحا مجالا جديدا أمام الكرد وبخاصة أمام هؤلاء الذين استقروا بأعداد كبيرة في أرمينيا، بفضل القرار الحاسم الذي اتخذته سياسة الحكومة التركية في هذا المجال. فبعد الانتصار الحاسم على الفرس في سهل (جالديران) عام ١٥١٤، نقل الادريسي عشيرة (حيدرانلو) والعشائر المرتبطة بها إلى

(٦) لينيج، أرمينيا، رحلات ودراسات (باللغة الإنكليزية)، ج ٢، ص ١٩١ و١٩٢.

الشمال، إلى أرمينيا على طول الحدود الجديدة بين الدولة العثمانية مع إيران وجورجيا، بغية الدفاع عن هذه الحدود. وقد أعفيت هذه العشائر من الضرائب بشرط أن تكون شيئا شبيها بالحرس الدائم لخدمة الدولة العثمانية. ومع ذلك فإن موقف الكرد كان مبهما خلال الحروب التي نشبت في الأعوام ١٨٢٩ و١٨٥٤ و١٨٧٧، وبذلك خيّبوا الآمال التي علّقها عليهم الأتراك[٧]. ونحن نتساءل:هل تعد هذه الحقبة تاريخا لبدء الاستيطان الكردي في أرمينيا؟ يعتقد مينورسكي أن الكرد انتشروا في الشمال في عهد يسبق كثيرا هذا التاريخ، لكونهم رحّلا في البداية، ثم لأنهم كانوا أنصارا للإسلام وأرادوا الضغط على المسيحيين. إننا نعرف أن أجداد القائد الكردي صلاح الدين الأيوبي كانوا من عشيرة (روند) التي كانت ترتحل حوالي القرن العاشر قرب (دفين)، وهي منطقة قريبة من (أريوان). كما ورد في (شرفنامه) أن عشيرة (روزبكي) انتزعت بدليس و (خازو) من أحد الأمراء الجيورجيين وكان يدعى داود. وحسب المصدر نفسه، فإنّ قيام السلالة الكردية في بدليس حدث في سنة ٨٣٧. وحتى لو اعتبرنا أن هذا التاريخ كان أقل قدماً، فإن هذا الحدث لم يحصل إلا في الفترة ما بين القرنين العاشر والحادي عشر كأبعد تاريخ.

وقد استحوذ الكرد شيئا فشيئا على بعض اجزاء من المملكة الأرمينية التي اضمحلت في القرن الحادي عشر. لذلك يعد الكرد الموجودون في كثير من أراضي أرمينيا عائشين في الحقيقة على أرض لا تعود إليهم. وعلى كل حال، فإن هذا قد حدث خلال تطور تاريخي استمر قرونا عديدة[٨]. وحسب ما يقول (لينيج)، إن أهم العشائر الرئيسية الكردية الموجودة في أرمينيا (ولاية أرضروم) هي (زيركي) و (جبرانلي) و (زير كانلي) و (زيلانلي) و (هسنانلي) و (حيدرانلي) و (آدمانلي) و (سيبقانلي) و (ماما كانلي) [وتعزى جذور الأخيرة إلى الأصل الأرميني (ما ميكونيان)]. ويذكر الباحث الروسي (أفيريانوف) هذه العشائر نفسها ويضيف إليها أيضا (جمادانلي) و (جلالي) اللتين تعتبران أرمناً مستكردين وتقسّمان إلى ثمانية فروع أو أفخاذ هي: (كوتانلي) و (سورانلي) و (سكانلي) و (حسنانلي) و (كيجنانلي) و (دوتكانلي) و (كابد ليكانلي). والعشائر الأخرى هي (كاسكانلي) و(شاديلي) و(بيدلي) و(قزلباش كروجان) وهم (جاركلي) و(بلبان) و(بال أوشاغي)

(٧) لينيج، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٤١-٥٤٢.

(٨) حاول الجنرال شريف باشا، رئيس الوفد الكردي إلى مؤتمر السلام الذي انعقد في فرساي بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى، في مذكرته التي قدمها إلى المؤتمر المذكور عام ١٩١٩، تفنيد المزاعم الأرمينية بشأن المطالبة بأجزاء من كردستان تركيا. وقد ترجمت إلى العربية نص تلك المذكرة التي نشرت ضمن رسالة الدكتوراه التي أعدها المرحوم (جان بيير فينو) والمعنونة" مساهمة في دراسة سوسيولوجية وتاريخ الحركة الوطنية الكردية من عام ١٩٢٠ إلى يومنا هذا" والتي نوقشت في السوربون في النصف الأول من عام ١٩٦٩، وقد نشرت الترجمة المذكورة في مجلة (كاروان) الطبعة العربية، العدد (١)، ١٩٩٢، أربيل كردستان العراق - المترجم.

و(كجيلان) و(لولانلى)[٩].

ولقد كان أمراء بدليس في قمة مجدهم وسلطتهم خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ويتمتعون باستقلال كامل، وكانوا يعترفون ببعض السيادة الشكلية الفارسية أو العثمانية تارة، مع رفض تدخلهما بأي شكل من الأشكال تارة أخرى. وآخر أمير لهذه السلالة كان شريف بيك الذي صمد أمام الترك لسنوات عديدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما كانت الدولة العثمانية تبذل جميع إمكانياتها في سبيل إخضاع كردستان لسيطرتها. وقد أسر في عام ١٨٤٩ ونفي إلى القسطنطينية. ومنذ ذلك الحين باتت إمارة بدليس تحت السيطرة العثمانية.

ورغم أن الهكاريين حرموا منذ ذلك التاريخ من عاصمتهم بدليس، إلا أنهم يمثلون لحد الآن - أي قبل مجيء الكماليين إلى السلطة- أكبر عشيرة قوية ومشهورة، حتى أنه لم يتجاسر أحد على الوصول إلى القسم الجبلي من موطنهم. ويمارس الترك مع هذه العشيرة سياسة تساهل كيما يتسنّى لهم الاعتماد على إخلاصها في تلك المنطقة الحدودية. وقد أبدى (سون) ملاحظاته بشأنهم قبل الحرب العالمية الأولى. ومنذ ذلك التاريخ، طرأت تبدّلات على أوضاعهم. فخلال الحرب الأولى اشتركت هذه العشائر الحدودية في الجهاد إلى جانب الترك وقاتلت بضراوة العشائر النسطورية المسيحية في المنطقة. وبعد الحرب، وقبل تخطيط الحدود الإيرانية-التركية الذي لم يتم إلا في سنة ١٩٢٥، ظلّت الاضطرابات تسود هذه المنطقة. وفي الوقت الراهن يبدو أن السياسة التركية الحالية لا تعتمد على الثقة بالشعب الكردي، كما سنتكلم عن ذلك فيما بعد.

وللهكاريين عرف غريب يخص كيفية تولّيهم السلطة. فإذا تبين أن الـ (خان) المحلّي غير جدير بتولي أعباء الحكم، يدعى جميع الوجوه والأعيان إلى الاجتماع، فينظر هؤلاء في الوضع. وإذا تبين لهم أنه غير جدير بالحكم وثبت زوال حقه، وضع أمامه زوج من الحذاء، وعليه أن يحتذيها ويغادر الاجتماع، بعد إعطاء موافقته على تعيين شخص آخر سواه لتسلّم الحكم، ولكن أموال المعزول وأملاكه لا تصادر من قبل أحد.

وعلى مقربة من الهكاريين في إقليم درسيم- ولاية خربوط- نجد الكرد الزازا الذين يشكّلون عشيرة خاصة تعيش منذ قرون بصورة منعزلة في الجبال. وقد أبدى (سون) أسفه لأنه لم يستطع زيارتهم، لأن لهجتهم رغم كونها آرية من صنف الفارسية والكردية، إلا أنها لا تشبه أيا من هاتين. وتعيش هذه

(٩) تدلّ أسماء هذه العشائر المختومة بلاحقة (لي) التركية على أنها كانت تقطن في السابق مناطق خاضعة للسلطة العثمانية التركية. وقد مضى عليها تحت حكم هذه السلطة وقت كاف للتأثر باللغة التركية وإضافة هذه اللاحقة التركية إلى أسمائها الكردية، التي كان يجب أن تظل بمنأى عن التأثر باللغة التركية - المترجم.

العشيرة في أعالي دجلة. ويتحدث الرحالة عنها "كأنها شعب صغير ميال إلى الانعزال". وكان القليل من أفرادها الذين التقيت بهم يبدو عليهم الحذر، ولكن مظهرهم كان بسيطا وقامتهم أقرب إلى القصر منها إلى الطول. إنهم أقوياء ويعملون بجد، وفيهم نسبة كبيرة من ذوي العيون الزرق والشعر الأشقر.

(ب) عشائر كردستان الجنوبية (العراق):

١- بابان

إن الطريقة نفسها التي اتبعتها الدولة العثمانية في أرمينيا للحفاظ على حدودها في الشمال، امتدت فيما بعد لتطبق على كردستان الجنوبية (التي تشكل اليوم جزءا من العراق)، منذ إلحاقها من قبل السلطان مراد الرابع بالدولة العثمانية. واستمر البيكات الكرد يواصلون سلطتهم الوراثية بتولية من القسطنطينية وبموجب أحكام كانت تصدر بإسمهم من هناك. وكان يطلق على هذه المناطق اسم ولاية (شهرزور)، ثم وضعت مباشرة تحت تصرف ممثل السلطان في العراق الذي أخذ يعيّن البيكات الكرد في السناجق (الأيالات) الستة لهذه الولاية وهي كركوك وأربيل وكويسنجق وقلاجوالان ورواندوز وحرير. وكان الباب العالي يغدق على هؤلاء البيكات لقب (ميرميران) أو (الباشا)، ويتعهد هؤلاء بالمقابل بمساعدة العثمانيين عسكريا لدفع العدو بعيدا وتقديم المؤن للقطعات التركية في إقليم العراق. ومقابل ذلك، كانوا معفوين من الضرائب والرسوم الحكومية. وفي هذا الجزء من كردستان نذكر بوجه خاص عشيرة (به به) أو (بابان) التي خلفت عشيرة (سوران) المنقرضة (الوارد ذكرها في شرفنامه). وقد أخذوا هذه التسمية تبعاً لإسم زعيمهم (به به سليمان) من منطقة (بشدر) الذي أدى للأتراك في حوالي سنة ١٦٧٨ خدمة كبرى في حربهم مع الفرس. وقد أسس أحد أمرائهم وهو إبراهيم باشا في عام ١٧٨٦ في مكان قصبة (ملكندي) مدينة سماها (السليمانية)، تيمّناً بإسم سليمان الكبير، ممثل السلطان في العراق. وقد أصبحت هذه المدينة مركزاً لاقامة أمراء بابان. وكان إسماعيل حقي أحد قادة (تركيا الفتاة) وعضو مجلس المبعوثان في الأستانة ينتمي لهذه الأسرة، بالإضافة إلى حمدي بيك بابان الذي نوّهنا عنه في الفصل الخامس من هذا الكتاب والذي جمع وثائق مهمة عن تاريخ هذه الأسرة والعشيرة التي تنتسب إليها. وآسف إذ أقول بهذا الصدد أن جميع المستندات هذه كانت في حيازتي طيلة أعوام، ولكنه استرجعها مني لأنه أقام دعوى ضد الحكومة البريطانية في لندن مطالبا بإعادة أملاكه المصادرة، وكان بحاجة إلى تلك المستندات في سبيل كسب الدعوى. ولست أدري أين بات مصير تلك المستندات فيما بعد. وقد ضمت حكومة بغداد في وزاراتها أكثر من مرة أشخاصا ينتمون لهذه الأسرة.

٢- هَموَند[١٠]:

ونذكر في هذه المنطقة أيضا اتحاد الـ (هموند). لعبت هذه العشيرة دوراً مهما في الحرب الروسية - التركية خلال سنتي ١٨٧٧-١٨٧٨ بواسطة فرسان غير نظاميين وكوفئت على ذلك بمنحها أراضٍ شاسعة في منطقة (بازيان - جمجمال). ولهذه العشيرة شهرة خاصة في الغزو. وقد تحدث عنها (ديكسون) بالعبارات التالية: "إن المنطقة الواقعة بين كركوك والسليمانية هي مقاطعة الكرد الهموند الشجعان، وهي عشيرة من الرحل تملك ألفي بندقية، وهم لا يجدون ما يفتخر به المرء غير الخيل والسلاح والغزو. إنهم متوحشون، أوقعوا الفزع في نفوس الكرد الآخرين وسكان المناطق المجاورة. وقبل بضعة أعوام -كتب ديكسون ذلك عام ١٩١٠- حاولت الحكومة العثمانية معاقبتهم. وبعد مناورات طويلة تمكنت الفصائل العسكرية التركية من إلقاء القبض على عدد منهم ونفيهم إلى طرابلس في ليبيا. وقال لي أحد زعمائهم بكل زهو واعتزاز، إنهم بعد ثلاثة أسابيع من وصولهم إلى هناك، فروا من المنفى ورجعوا مشيا على الأقدام وقطعوا كل هذه المسافات الطويلة إلى أن وصلوا إلى الحدود الإيرانية. ويرتدي هؤلاء الكرد ملابس نصف عربية ويمتطون الخيول كالعرب ويتاجرون بها. أما الكرد الآخرون فلا يمتطون على الروابي والهضاب، كما نعلم، إلا البغال ويعتبرون الجياد غير صالحة للركوب. إن السفر إلى هذه المناطق، يعتبر، بسبب وجود الهموند فيها، مجازفة غير مأمونة العواقب. وقد سافرنا مرة بصحبة أحد زعمائهم مع رجاله المسلحين. لقد كانوا يعتزون كثيرا بأنفسهم، وحاولوا إيهامنا بقوتهم ومقدرتهم، ولكنهم ليسوا أفضل بكثير من البدو العرب المسلّحين. إن خيامهم قذرة، ولا يمكن للمرء أن يجد لديهم الراحة التي يتمتع بها الناس الأثرياء في هذه البلاد".

ج- عشائر كردستان إيران:

١- موكري:

نترك الآن الأراضي العثمانية ونتوجه صوب الجنوب الشرقي حيث نجد في إيران عشائر (موكري) و (أردلان).

تعيش عشائر موكري في المناطق الواقعة جنوبي بحيرة (ورمي)، وهي تمثل الفرع الجنوبي لكرد الشمال. ويتكلّم الموكري لهجة كردية يبدو أن نبرات ألفاظها وقواعدها النحوية أدق من سواها من اللهجات. وهم يدّعون أن لهجتهم أقدم اللهجات الكردية. وقد لا تزيد أقدميتها عن أقدمية اللهجات الأخرى، ولكن المحافظة التامة على أشكالها القديمة تسمح باعتبارها نموذجا حياً بالمقارنة مع غيرها من اللهجات الكردية الأخرى[١١].

---

(١٠) وردت كلمة (هموند) في النصوص البهلوية.

(١١) وصف النظام الزراعي لدى الموكري من قبل (راولنسن) في مجلة (J.R.G.S) العدد العاشر، الصفحات ٣٥ -٣٦ في عام ١٨٤١.

تنتسب عشيرة موكري إلى (بهبه) في شهرزور. وقد ظهرت في منطقة ساوجبلاغ حوالي القرن الخامس عشر تحت قيادة رئيسها المدعو سيف الدين. وقد انتصرت على أتراك (جبوقلو) واستولت على مقاطعة (ديرياس) أي (شارويان)، ثم وصلت إلى (دوله باريك) و (أخته جي) و (التمه مور) و (سولدز). فبعد سيف الدين بأربعة أجيال في عهد (ميره بيك)، تسلّم هذا الأمير عام ١٥٨٣ إدارة مقاطعة واسعة تمتد من الموصل وأربيل وشهرزور.. الخ حتى (مراغه) غربي بحيرة أورومية من السلطان مراد الثالث. وتمكن إبنه حيدر خان من توسيع رقعة إمارته وبسط نفوذه على أقاليم (مراغه) و (آجيري) و (ليلان) وعلى مدينة (ميا ندواب) وقلعة (سارو قورغان) الحصينة الواقعة قرب (مراغه).

ينقسم خانات موكري أو (بابا ميري) إلى خمس أسر. وما يزال يعيش معهم في كردستان موكري عشيرة (ديبو كري) المستقرة منذ أمد بعيد، وهؤلاء يحتمل أن يكونوا سكنة المنطقة الأصليين وخضعوا فيمابعد للموكريين. وليس من المستبعد أن يكون اسم (ديبو كري) مشتقا من (ديمو كري)(١٢).

هذه العشيرة ليست كثيرة العدد حاليا، ولكنها تشارك عشائر أخرى تجاورها، وبوجه خاص في الغرب وفي الجنوب الغربي. ولهذه العشيرة شهرة واسعة لما كان لزعمائها وحكامها من قدرة وسلطة واسعة. وقد حكموا هذه المناطق منذ قرون عديدة من عاصمتهم الجميلة (ساوجبلاغ = مهاباد اليوم - المترجم). وقد اعتمد كل من الشاه عباس الصفوي ونادر شاه أفشار وفتح علي شاه القاجاري على الموكريين في أعمالهم الحربية. ويدين الشاه عباس، الذي كان أقوى أولئك الشاهات الثلاث، بانتصاراته للكرد، لأنهم كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة في جيشه، وقد عيّن العديد منهم قادة لذلك الجيش. لقد تمت الانتصارات التي أحرزها الشاه عباس، وبخاصة في الجبهة الغربية، بفضل الكرد. ففي المعركة الشهيرة التي جرت بينه وبين الترك عام ١٦٢٤ وانتصر فيها انتصارا باهرا، كان الكرد يشكلون العنصر الأساسي في جيشه. لقد كانت هذه العشيرة على أهبة الاستعداد دائما، وذلك بسبب مجاورتها لعشيرة (بلباس) المعروفة بميلها إلى الغزو والسطو، التي دخلت معها في معارك عديدة، رغم أنهما ينتميان لأصل واحد لأنهما تشكلان فرعين لعشيرة واحدة. وعشيرة (بلباس) عشيرة قوية، ولها في إيران الفروع التالية: (منكور)، و (بيران) و (مامش) و (ئوجاغ حيدري). ومن بين زعماء الموكري اكتسب (بوداق خان) شهرة واسعة، ولعدالته أطلق عليه لقب (أنو شيروان الثاني). وكان الملك الساساني أنو شيروان قد دخل التاريخ حاملا لقب (الملك العادل). وعاش بوداق

(١٢) لعل في هذا خطأ. فلئن كان الديبوكريون أقدم سكنا في المنطقة من الموكريين، فإن المنطق يقتضي، إذا كان هناك اشتقاق، أن يكون موكري مشتقا من (ديبوكري)، إلا إذا كان الموضوع لا يتعلق بالعلاقة بين (ديبوكري) و (موكري) بوصفهما عشيرتين - المترجم.

خان في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وتبنّى في بداية الأمر قضية الأسرة الكردية (زند) التي وهبت ايران ملكا هو (كريم خان زند)، غير أن القاجاريين تغلبوا عليه في النهاية، فاضطر للتعاون معهم واعترف به فتح علي شاه أميرا على الموكرين. وقدمت شخصيات موكرية أخرى خدماتها للقاجاريين موكرية مثل مجيد خان الذي تقلّد منصبا عسكريا مهما، وإسماعيل آغا ديبوكري الذي صار آمر حرس في قصر الشاه القاجاري.. الخ. وكان بوداق خان قد اشترك مع القطعات الحكومية بقيادة ولي العهد الإيراني وحاكم أذربيجان عباس ميرزا في عمليتين استهدفتا تأديب عشيرة (بلباس).

وهناك زعيم موكري آخر ورد ذكره في تاريخ الأسرة القاجارية هو عزيز خان، رئيس أسرة (بابا ميري) الذي مارس نشاطاته في عهد محمد شاه وناصر الدين شاه. وقد لعب دوره في (تبريز) مع عدد من النبلاء الكرد الآخرين الذين وصلوها عندما كان بوداق خان يريد المصالحة مع القاجاريين، ثم كلف ببعض المهمّات الدبلوماسية (في محادثات هرات) والإدارية (في اضطرابات شيراز)، حيث قام بما كلف به بنجاح باهر، وعهد إليه منصب الحاكم العسكري لطهران في بداية عهد ناصر الدين شاه. ولدى زيارة ولي عهد روسيا لمدينة (أريوان)، كلف عزيز خان بتقديم الهدايا والتمنيات الطيبة له بإسم الشاه. وقد انشغل في سفره هذا عند مروره بمدينة (زنجان) بإخماد فتنة البابيين، كما مر، وهو في طريق الإياب بمدينة تبريز، فنظم فيها بعض الأمور العسكرية. ثم عاد إلى طهران ونظم فيها بناء على أوامر الشاه، الأمور المتعلقة بالنظام في العاصمة التي كان الكرد الموكريون مكلفين بحفظ النظام فيها، بالإضافة إلى الكلهور والأفشار تحت قيادة نجله علي خان. وقد عين مكافأة له على خدماته رئيسا لأركان الجيش الايراني، إلا أنه أتهم إثر دسائس دبرها له الصدرالأعظم (رئيس الوزراء) ميرزا آغاخان، بالتآمر مع الروس والإنكليز لإعلان كردستان دولة مستقلة، فاضطر للعودة إلى منزله في (بوكان). وتوجد ساحة عامة في طهران تحمل اسم (تقاطع عزيز خان) وهي تخلد اسمه في هذه المدينة.

ومن المفيد أن نذكر، كما يقول (سون) أن أرض موكريان هي التي أنجبت زردشت، إذ ولد فيها وبدأ التبشير بدينه من هناك(١٣). كما توجد في القسم الشمالي من موكريان الآثار القديمة الممتعة لبلدة (شيز) عاصمة الميديين والتي تعرف حالياً بإسم (تخت سليمان)(١٤). وتقع هذه الآثار في ولاية (هوشار) على مقربة من (ساين قلا)، ويطلق عليها أيضا (أكباتان) الشمالي، حيث قهر البارثيون انطونيوس الروماني، وهي تقع على ارتفاع ٩٠٠ قدم. ويعتقد الناس ان قصر سليمان المحاط بالجن

(١٣) تذهب النظريات الحديثة إلى القول أن أصل زرادشت يعود إلى شرقي إيران.

(١٤) راجع مينورسكي في بحثه المعنون (الأعمال الحربية بين الروم والبيزنطيين في آتروباتكان)، BSOAS، الجزء الحادي عشر، القسم الثاني وكذلك القسم الرابع من (موقد النار في شيز).